

الجنرال آلان بيلليغريني

القائد العام الأسبق لقوات اليونفيل العاملة في جنوب لبنان

بمشاركة بيار دفولوي

صيفٌ من نار في لبنان

٢٠٠٦ : كواليس نزاع مُعلن



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

الجنرال ألان بيلليغريني

صيفٌ من نار
في لبنان

٢٠٠٦ - كواليس نزاع مُعلن



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب.: ٨٣٧٥ - بيروت، لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢ - ٣٤٤٢٣٦ - ١ ٩٦١+

تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+

email: tradebooks@all-prints.com

website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٢

ISBN: 978-9953-88-608-4

ترجمة: أنطوان باسيل

تدقيق: حبيب يونس

تصميم الغلاف: ريتا كلزي

الإخراج الفني: داني عوّاد

إلى زوجتي ماريز وابننا مارك

إلى جميع أفراد القوة الموقّتة التابعة للأمم المتحدة

في لبنان، إلى العسكريين منهم أصحاب القبعات الزرق،

والمدنيين الذين، على رغم الانتقادات والتهكّمات

والتّنديدات بل وأحيانًا الأعمال العدائيّة،

آمنوا دومًا ولا يزالون مستمرين في الإيمان

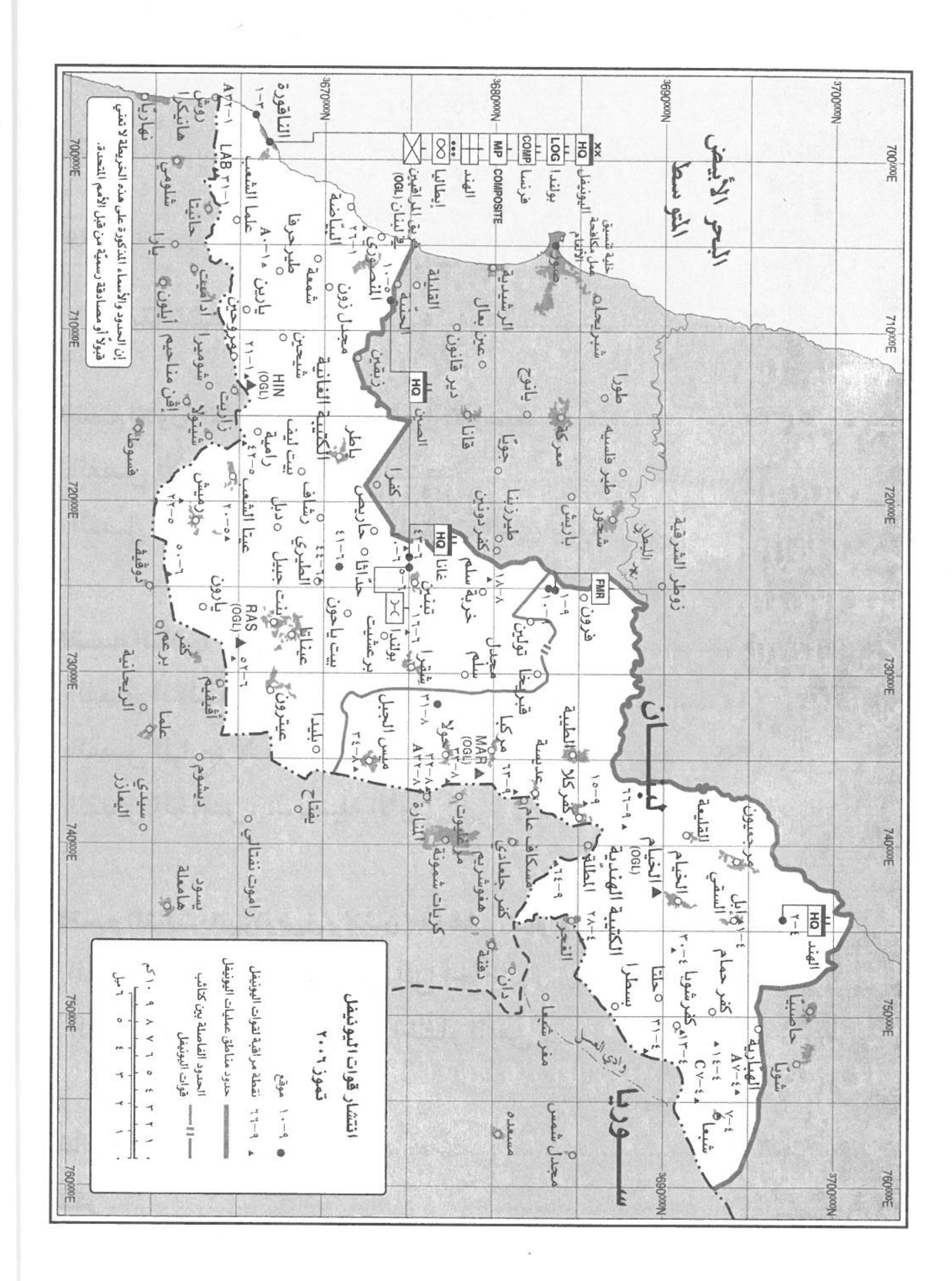
بمهمتهم. تلك المهمة التي اضطلعوا بها،

ويستمرون في إنجازها بهمّة

واحتراف وتصميم.

إلى الجنود الـ٢٧٤ والمدنيين الـ٣٢ الذين سقطوا منهم

المحتويات



المقدمة

أسهم فهم اليونيفيل «من الداخل» بمبادئها الجوهرية وبالعيش على وقع تدخلاتها والشكوك التي راودت موظفيها المدنيين والعسكريين إضافة إلى إخفاقاتها، في خصوصية هذا العمل وفي أهمية ما يعرض له. وتسمح هذه الخصوصية لهذا التحليل بأن يشكّل استثناء في قلب السجل الأدبي الذي يقتصر في الغالب على التاريخ، إضافة إلى التسلسل الزمني التأسيسي لهذه القوة التابعة للأمم المتحدة. ويشكّل الانغماس التام في قلب حياة اليونيفيل اليومية وحياة مفرزتها العسكرية دعوة نادرة إلى الفهم الداخلي لقوة تتمتع بهذا المقدار من الرمزية الذي تتسم به هذه القوة الموقتة في لبنان. «موقتة» إذ بدا أنها لن تستمر إلا لمدة، غير أن هشاشة القطاع الأمني والدفاعي اللبناني شاءت أن تبقى اليوم في موقعها منذ أكثر من اثنين وثلاثين عامًا. وهذه مدة طويلة لا تضاهيها فيها أي قوة من قوى حفظ السلام.

«صيف من نار في لبنان» شهادة لم يسبق لها مثيل من القائد الأعلى لليونيفيل الجنرال ألان بيلليغريني في اللحظة الأكثر أهمية في مهمته، وكذلك الأكثر مأساوية التي عرفها لبنان منذ انتهاء ما يُسمّى بالحرب الأهلية، ألا وهي حرب صيف ٢٠٠٦. فمواجهات ٢٠٠٦ بين حزب الله والجيش الإسرائيلي، وهي الحدث الذي لا سابقة له في تاريخ اليونيفيل، سلّطت الضوء مرة أخرى على هشاشة هذه القوة ومحدوديتها. وبدا من الضروري بالتالي تطويرها وتمديد مدة انتدابها.

أضحت اليونيفيل، منذ إنشائها، عاملًا لا يمكن تجاوزه على الساحة السياسية والاقتصادية والأمنية اللبنانية والإقليمية. ووجودها، بالتالي، في صلب

بلاد الأرز المجزّأة منذ سنوات طويلة بين حزب الله – الذي تتعاظم قوته في استمرار – والجيش اللبناني – الذي فقد الكثير من صدقيته منذ الحرب الأهلية ونزاع ٢٠٠٦ – يحتم بالتالي أن تحظى منظومة دفاعها واستقرارها بوجود دولي مسلّح مستمرّ. فالأعطال التي لحقت بالنظام الأمني أجبرت لبنان اليوم على الاعتماد على «جيشين» حزب الله والجيش النظامي، وهو مثال فريد من نوعه لكنه يعبّر خير تعبير عن ضعف الدولة اللبنانية وما ينتج عن اختلالها الوظيفي من مخاطر. فمن المنطقي أن تكون الدولة وجيشها، بحسب تحديد ويبر، المؤسستين الوحيدتين اللتين تمسكان حصرًا بالكفاح المسلّح. وهكذا شكلت اليونيفيل اللاعب الثالث في مسألة الدفاع عن لبنان، ترقّع وتوصل بين إعادة قوات الجيش اللبناني إلى جنوب لبنان وتهدئة التوترات بين حزب الله والجيش الإسرائيلي. وإذ تخلت الدولة اللبنانية عن جنوب البلاد منذ الاجتياح الإسرائيلي عام ١٩٧٨، أدت اليونيفيل دور البديل، محاولة، على رغم كل ما واجهته من سلبيات، تأمين الوظائف الحيوية في الدفاع عن الحدود. وهي المهمة التي يفترض بالجيش النظامي نفسه الاضطلاع بها في دولة تستحق هذه التسمية.

يدفعنا هذا الكتاب المنطوي على شعور وطني قوي واعتزاز ظاهر، إلى تحليل صعوبة أن يستمر القائد الأعلى لقوة دولية، يحرّكه واجب إدارة جماعية للأزمة والنزاع، محتفظًا في قلبه بتعلّقه بفرقته الأصلية. وهكذا نكتشف، خطوةً بعد خطوة، المسار الضيّق والمتعرّج للأصول والواجبات العسكرية الدولية، بل نكتشف معه أيضًا التساؤلات الإنسانية المشروعة حيث يتم البحث عنها على مستوى هيئات القرار الدولية. ويجب، في أي حال، عدم التشكيك في عمل هؤلاء الآلاف من الرجال والنساء الذين أتوا من أربعة أصقاع العالم لخدمة مصالح بلد غير مألوف في الغالب لهم وليس لهم فيه أي هدف غير إرادة الحفاظ على السلام الشامل.

ولعمل الجنرال بيلليغريني أهمية متعددة: تاريخية في المقام الأول لأنه يروي إحلال اليونيفيل في لبنان منذ العام ١٩٧٨ ويشرح، في عناية، كيف أصبحت هذه القوة جزءًا لا يتجزّأ من الحياة السياسية اللبنانية؛ واستراتيجية من ثمّ لأنه يبرز الدور الإقليمي والدولي لهذه القوة الموقتة؛ وإنسانية أخيرًا، إذ يُذكّر هذا الكتاب بدور هؤلاء الرجال والنساء الذين، باسم مبادئ وقيم يغلب عليها ويا للأسف النسيان، ينخرطون إلى جانب هذا البلد الذي لا يكاد يكون أكبر من محافظة فرنسية، وإلى جانب سكانه المتشرذمين لتفادي زواله ليس إلا.

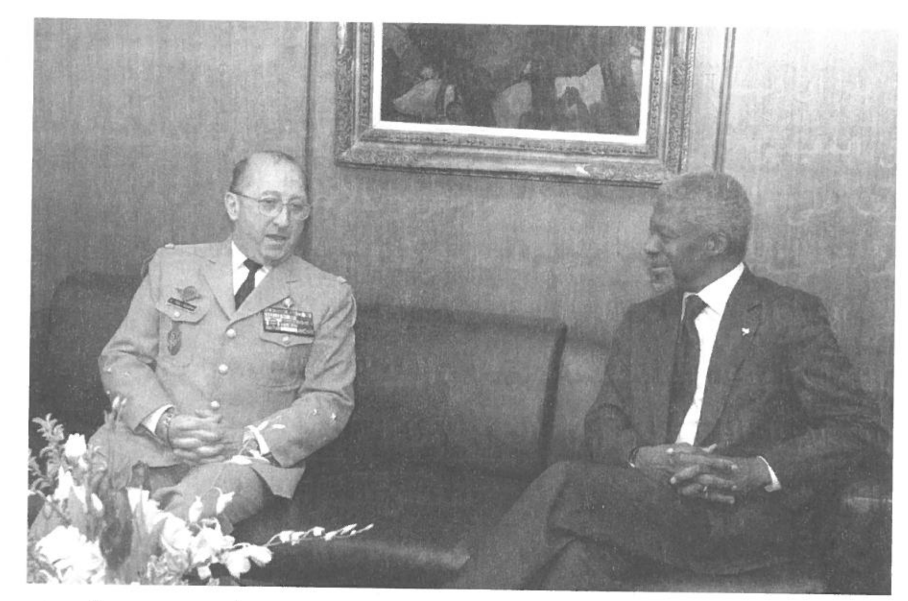
ومن التحديات التي أخذتها اليونيفيل على عاتقها، العمل والاسهام في وقف المعارك وإسكات الأسلحة. واعتقد البعض أنها ستقود إلى السلام. غير أن عراقيل كثيرة ولاعبين أكثر جاءوا ليحدّوا من تطبيق انتدابها. ولكن يبدو من غير الواقعي، ومن الطوباوية بعض الشيء، الحديث عن سلام في بلد يبدو أنه لم يعرفه قط. بل يجب، وهذا أكثر عقلانية، الكلام على الاستقرار الذي يتوجب على كل واحد، في مكانه، بناؤه والقيام – ولو في شكل متواضع – بتوليد شروط توازن هذه الأرض الفريدة من نوعها، إضافة إلى الحفاظ على روحها.

وليُسمح لي أخيرًا بأن أتحدث عن المؤلف، ليس عن نشاطاته العسكرية التي يعرفها الجميع ويعترف له بها أقرانه، بل عن مزاياه الإنسانية. وأنا شخصيًّا لم أعرف الرجل جيدًا، بيد أنني اكتشفت فيه، من خلال الشهادات المتعددة، ومن تصريحاته وكتاباته، رجلًا نادرًا، وجمهوريًّا أعاد مصالحتي مع فكرة فرنسا التي رُسِّخت في ذهني، ولكن خصوصًا مع هذا البلد الذي هو بلدي، لبنان الذي غادرته منذ ثلاثين عامًا. وقد كان لتعلّقه بهذا البلد الذي خدم فيه ضابط استطلاع وملحقًا عسكريًّا وقائدًا أعلى لليونيفيل وقعه في قلبي وأنا أتصفح

كتابه، وكذلك الحب الذي يكنه لشعبه، وولاؤه لدور فرنسا في هذا الشرق الداني الذي يبدو لنا أحيانًا بعيدًا كل البعد.

أنطوان ج. صفير

باريس، أيلول/سبتمبر ٢٠١٠



٥ شباط/فبراير ٢٠٠٤ – نيويورك – بيلليغريني مقدّمًا نفسه إلى الأمين العام للأمم المتحدة السيد كوفي أنان.

توطئة

تأمّلت في الصبيحة النيويوركية الباردة، يوم الخامس من شباط/فبراير ٢٠٠٤، نهر «إيست ريفر» وهو يجرف كتلًا ضخمة من الجليد على طول ضفاف مانهاتن. وهي تبدو صغيرة جدًّا لدى مراقبتها من الطبقة الثامنة والثلاثين في المقر العام لمنظمة الأمم المتحدة. وأنا أنتظر أن أقدَّم إلى الأمين العام كوفي أنان بعدما تمت الموافقة على ترشيح فرنسي إلى قيادة القوة الموقتة التابعة للأمم المتحدة في لبنان (يونيفيل). وأنا المستفيد السعيد وسأخلف اللواء لاليت تيواري (الهند) في الرابع عشر من شباط/فبراير المقبل. لم أدرك كليًّا بعد ما الذي ينتظرني، واستسلمت للرضا والفخر بأن يلقى على عاتقي مثل هذه المسؤولية. وأنا أول جنرال فرنسي يرى اسمه وقد نُقش في لائحة قادة القوة التي أنشئت عام ١٩٧٨. ومنذ ذلك التاريخ وبلادي حاضرة أبدًا ولكن ليس على المستوى الأرفع.

فُتح باب الأمين العام واستقبلني شاغل المنصب بلطافة فائقة. دعاني كوفي أنان إلى الجلوس بقربه على الكنبة حيث التُقطت لنا الصورة التقليدية ونحن نتبادل بعض صيغ المجاملة. وما إن خلت القاعة حتى حدّثني عن مهمتي والطريقة التي يتوقع مني فيها أن أنجزها. وقد أثار إعجابي بطريقته الهادئة والواضحة في التعبير عن نفسه، والتصميم الذي يختفي وراء توصياته، والطريقة المباشرة التي يحدّثني فيها. وهو صادق العزم ويدرك في الوقت نفسه كيف يولّد شعورًا من التواطؤ. وبدا أن معرفتي السياق اللبناني والسرور الواضح الذي انتابني لعودتي إلى التنطّح للتعقيدات الإقليمية، بعثا فيه الرضا. وانتهى اللقاء بأسرع مما كنت أشتهي واستودعته وقد تملكني شعور قوي من الثقة حيال رئيسي الجديد. وهو شعور لن تنتابه أبدًا أي خيبة من أي نوع طوال أعوام قيادتي الثلاثة.

أصبحت الآن، على رغم احتفاظي ببزتي الفرنسية، موظفًا دوليًا في الأمم المتحدة وخارج السلطة المباشرة لرئيس هيئة أركان الجيوش. إلا أن ذلك لا ينسيني مصالح بلادي في المنطقة ولا مصالح القوة الفرنسية في اليونيفيل. وأخذت أكتشف رويدًا رويدًا، في سياق أسبوعي الأميركي، عالمًا جديدًا عليَّ لا يشكّل فيه المجال العسكري الأولويّة بالضرورة. أضف إلى ذلك أن لليونيفيل تلك الخصوصية القائلة إن قائد القوة هو أيضًا رئيس البعثة. فمن الناحية العامة، يوجد على رأس كل بعثة من بعثات الأمم المتحدة موظف دولي مدني، هو رئيس البعثة، وفي إمرته، لدى وجود وسائل عسكرية في تصرفه، قائد للقوة. أما أنا فارتديت القبعتين مع أنني في المقام الأول الممثل المباشر للأمين العام لدى الطرفين الإسرائيلي واللبناني. وأنا بالتالي دبلوماسي قبل أن أكون عسكريًا. وأنا أيضًا إداري، لأنني مسؤول عن إدارة بعثتي التي تضم بضع مئات من الموظفين المدنيين إلى جانب ألفي عسكري. ويعني هذا أن عليّ أن أتعلّم في سرعة كبرى الكثير من الأمور الجديدة، يُضاف إليها التعرّف إلى السياق اللبناني الذي، ومن حسن الحظ، لم أحتج فيه إلا إلى تحديث معرفتي. وهي المرّة الثالثة أقيم في بلاد الأرز التي سبق أن أمضيت فيها أربعة أعوام؛ ستة أشهر منها عام ١٩٨٣ رئيسًا لمكتب الاستطلاع في أركان القوة الفرنسية العاملة في إطار القوة المتعددة الجنسية لبسط الأمن في بيروت، ومن ثم ثلاث سنوات ونصف السنة ملحقًا عسكريًا في السفارة الفرنسية من ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٠. وهو ما يسهل بداياتي خصوصًا أن اللاعبين لم يتغيّروا قط على مر السنين.

وقعت عقدًا أوّليًا لمدة سنة، لكنه سيجدد مرتين، لولايتين مماثلتين. وأنا في يوم الثالث عشر من شباط/فبراير ذلك لم أتوقّع هذا القدر. فقد تملكني، وأنا في الهيليكوبتر التي تقلّني من بيروت إلى الناقورة حيث مقر قيادة اليونيفيل، وعلى رغم العاصفة الشديدة التي لها أسرارها في الشتاء اللبناني، الفرح الشديد بقدري الجديد وأنا لا أعرف بعد أنني سأعيش لحظات استثنائية تتمثل في

نزاع صيف ٢٠٠٦ بين إسرائيل ولبنان. وهو نزاع سيبدّل كليًّا شكل القوة التي سأتولى قيادتها غدًا، ومهماتها.

وأطمح، من خلال هذه المواجهة التي استمرت أكثر من شهر، وكنت شاهدًا مميزًا عليها، إلى أن أشرح من الداخل ما هي مهمة الأمم المتحدة؟ وكيف تعمل في حياتها اليومية؟ وما هي إمكاناتها وأيضًا ما هي حدودها؟ وكيف يمكن أقل أعمالها أو مبادراتها أن تؤدي إلى تداعيات دبلوماسية مهمة؟ وكيف يمكن تشغيلها واستخدامها؟ وكيف يمكن أيضًا هذه الآلية الثقيلة أن تعيد النظر في تكوينها لمواجهة التحديات الجديدة؟

لولا مكمن حزب الله في ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦ لما عرف لبنان ربما الاضطراب، ولربما بقيت اليونيفيل على ما كانت عليه لدى وصولي. إلا أن أخذ الرهائن سيغيّر كل شيء.

تلال عيتا الشعب

لبنان الجنوبي. الناقورة.
مقر قيادة اليونيفيل. الساعة ٧:٣٠

بدأتُ، كالعادة، صباح ذلك الأربعاء ١٢ تموز/يوليو في قاعة الاجتماعات بالعرض العادي للأوضاع الذي يَجْمع المسؤولين الكبار في هيئة الأركان وممثلي مختلف القوات. فرجال مفرزة الهيليكوبتر الإيطاليون لا يزالون في حال من الحبور لفوزهم بكأس العالم في كرة القدم، التي تنافسوا عليها، في قوة، الأحد الماضي مع فرنسا. وأنجز سيخ الكتيبة الهندية خطة جديدة لتبديل وحدتهم. فيما انتظر كوادر الكتيبة الغانية تقويمات اختباراتهم العملانية التي أجريت الإثنين الماضي في سياق مناورة «Dare not» (إيّاك أن تجرؤ). وها إن قوافل الكتيبة اللوجستية البولندية باتت على الطرق. ويستعد فرنسيّو مفرزة المشاة الـ٤٢٠ المؤللة للاحتفال بالرابع عشر من تموز/يوليو في بيروت حيث سيشاركون في مختلف المظاهر الوطنية في السفارة الفرنسية أو مع اتحادات الفرنسيين في الخارج. وعلى خليّة التخطيط أخيرًا أن تفيد عن تقديرها الجديد لنشاطات حزب الله في منطقتنا. إنه، في اختصار، يوم عادي وقد أضفت عليه الشمس حرارتها عندما انهمك كل منّا في نشاطه مع ارفضاض الاجتماع.

إسرائيل. المركز ٤١١، بين موشاف[١] زرعيت والخط الأزرق[٢]. الساعة ٧:٣٠

ها إن الشمس قد أطلت من فوق التلة شرقًا، حيث تمتد عيتا الشعب البلدة اللبنانية الكبيرة الأقرب. تطلّع الملازم ناعير إلى الطرق المتشابكة التي تلتوي واطئة، وتتبع الخط الفاصل بين بلاده ولبنان. كل شيء يبدو هادئًا. بيد أن ناعير حاول، في جزء كبير من الليل، إنعام النظر في الظلمة في محاولة منه لتحديد أصوات مشبوهة. فأنظمة المراقبة الإلكترونية التي تنتشر على طول السياج المقام بين البلدين فُعِّلت مرات عدة عند مستوى النقطة الـ١٠٣. ولكن ليس بطريقة قاطعة، إذ يُفترض بالمجسّات أن تميّز بين سلك شائك يُقطع وابن آوى يحفر في التربة. وشهدت تلك الليلة وجود عدد كبير من بنات آوى!

جنوب لبنان. مارون الراس. الساعة ٧:٤٥

رفع الحاج أ. م.، قائد القطاع في حزب الله، سماعة الهاتف الميداني: لقد كشف أحد مراقبيه في عيتا الشعب، البلدة المجاورة القريبة من خط الحدود، حركة ما في مركز زرعيت الإسرائيلي. ويبدو أن قائد المركز قرر إخراج أحد عناصره. هلّل الحاج أ. م.: هل يمكن حيلته أن تنجح؟ فقد تسللت دزينتان من مقاتليه ليلًا إلى الجانب الآخر من الشريط المزدوج. تقصّدوا تشغيل المجسّات الثانوية لدفع الإسرائيليين إلى القيام صباحًا بجولة تفقّد روتينية. أفاد الحاج أ. م. مركز قيادة القطاع في بنت جبيل أن كل الشروط استوفيت للعملية.

---

(١) مجموعة مزارع مستقلة ترتبط بتعاونية ذات مهام متعددة. وهي تختلف عن الكيبوتز الذي يشكل استثمارًا جماعيًا تجرى النشاطات فيه بشكلٍ مشترك.

(٢) الخط الفاصل بين لبنان وإسرائيل الذي رسمته الأمم المتحدة في أيار/مايو ٢٠٠٠ عند الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان. ومن الناحية النظرية لم يعد يوجد أي إسرائيلي شمال هذا الخط.

نسج حزب الله في القطاع، في سياق الأعوام الأربعة السابقة، شبكة معقّدة جدًّا من المخابئ الجوفية المدفونة تحت منازل القرى أو في قلب الطبيعة، تحت الصخور. وهي تشكّل خطه الدفاعي الأول الذي سمّاه «النصر» في مواجهة المواقع الإسرائيلية في الجانب الآخر من خط هدنة العام ١٩٤٩. وما من شك في أن المراقبين الدوليين، بل وأكثر منهم أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية، عرفوا في شكل عام في شأنها لكنهم لم يعرفوا بالتفصيل أحجام هذا الترتيب وأعماقه ونظامه.

أقام حزب الله، مطلع أيار/مايو، أي قبل شهرين على العملية، «مركزًا متقدمًا للعمليات» في مبنى صغير يجثم على طرف بلدة مارون الراس. وتعبير «مركز» فضفاض جدًّا في تحديد هذا الموقع الموقت. فالأمر يتعلّق، وحسب، بطبقة واحدة من الطبقات الثلاث التي تشكل هذا المكعب الإسمنتي الخام. وتعيش في الطبقتين الأخريين أسرة هادئة. بيد أن ثلاث مجموعات مسلحة، يقظة جدًّا وخفية، تحرس المركز من المنازل المجاورة.

انتظر ثلاثة رجال في القاعة التي سوَّدها الدخان: الحاج أ. م المسؤول عن العملية الخاصة التي أمر بتنفيذها الأمين العام لحزب الله حسن نصرالله، ومساعداه: الحاج ك. وهو رئيس الاستخبارات التكتية، وأبو م. الذي يقود الوحدات الخمس المنتشرة منذ ٤٨ ساعة على امتداد نحو عشرة كيلومترات في مواجهة التجهيزات الإسرائيلية: ثمانية مراكز تعج بالهوائيات ومحاطة بشباك من الحماية المعدنية ضد الصواريخ تنتشر ما بين زرعيت وبيرانيت. سهرت الفرقة الصغيرة طَوال الليل ترصد إشارة كبرى. فعلى الطاولة المصنوعة من القوالب الخشبية، خارطة منسوخة لطّختها شروحات بالقلم العريض، وأكواب شاي فارغة، وعلب بيسكويت ممزقة وهاتفان: جهازا هاتف على الطريقة القديمة لأن لا شيء أفضل من الاتصالات السلكية في زمن التجسس

الإلكتروني المحموم هذا. الأول موصول بشبكة داخلية تضم نصف دزينة من المراكز المدفونة تحت القرى الأكثر قربًا من خط ترسيم الحدود. أما الثاني فموصول بخط مباشر مرتبط بمقر قيادة المنطقة الجنوبية للجهاز العسكري لحزب الله المخفي في بنت جبيل. فمن هنا – ربما – يأتي الضوء الأخضر للعملية المنتظَرَة على نار: مهاجمة دورية إسرائيلية واختطاف جنديين أو ثلاثة من جنود «تساهال»[٣] بهدف مبادلتهم بسجناء لبنانيين، وأيضًا فلسطينيين، يقبعون منذ زمن طويل في السجون الإسرائيلية.

وقد حدّدت القيادة العليا لحزب الله جيدًا وجوب اختطاف جنود «يهود، وأحياء أيضًا». إذ سيمتلكون قيمة تبادلية أكبر كثيرًا من قيمة مسلمي الجيش الإسرائيلي، الدروز منهم أو العرب الإسرائيليون، أو حتى من الفلاشا، أولئك اليهود السود الوافدين من الحبشة. وقد رأى استراتيجيو حزب الله أن الوقع العاطفي لاختطاف جنود يهود سيبلغ أوجه والضغط الذي ستمارسه عائلاتهم على الحكومة الإسرائيلية سيكون بلا شك كبيرًا جدًّا. بيد أن برقية وردت أول من أمس، الإثنين العاشر من تموز/يوليو، أكدت أن الوحدة المؤلفة من جنود الاحتياط المنتشرة راهنًا في مواجهة لبنان ستنهي مدة خدمتها العسكرية، الأربعاء في الثاني عشر منه، على أن يحل محلها اللواء ٣٠٠. ولم يتبق إذًا إلا ٤٨ ساعة لتنفيذ عملية الخطف.

إسرائيل. المركز «و٤١١». الساعة ٧:٥٠

زرّر الملازم ناعير سترته القتالية التي تُعلّق فيها مخازن الرصاص وقربة الماء التي يسميها الجنود «إيفود» تيمُّنًا ببطرشيل الحاخامين. التقى الضابط

(٣) اختصار لـ«تزفا هاغاناه لي ـ إسرائيل» (جيش الدفاع الإسرائيلي).

جنوده الخارجين من الحمامات واستعجلهم التجهّز. تبادل بعض الكلام مع الرقيب الأول إيهود غولدفاسر في شأن أصوات الليل. فقبل ذلك ببضعة أسابيع وقعت أحداث مشابهة قبل الفجر، ولم تكشف جولات التفقّد أي شيء محدّد. واعتقد ناعير أن مجموعة من الأشخاص استطاعت التنقل، الليلة الماضية، على مقربة من الحاجز. ولكن من أي جهة؟ ولن يفهم أحد، بعدما كُشف لاحقًا عن هذه المؤشرات المثيرة للقلق، لماذا مضت الدورية لتفقد الحاجز «كما لو انها ذاهبة في نزهة» بحسب ما كتبه لاحقًا اللواء المتقاعد دورون ألمونغ في تقريره عن التحقيق. وقد يعود جزء من التفسير إلى حقيقتين: أولاهما أنه اليوم الأخير للمدة العسكرية السنوية لوحدة الاحتياطيين هذه في لواء المشاة الثالث. ٢٨ يومًا متعبة خصوصًا بعدما اختطفت حماس في ٢٥ حزيران/يونيو في غزة العريف جلعاد شاليط مما أدى إلى مضاعفة إجراءات الأمن وزيادة التدريبات. فظهرًا سيتم تنظيف المكان والعودة إلى المنزل! وسيُترك الأمر لمحترفي اللواء ٣٠٠، وهم من الدروز المحنّكين الذي يعرفون طبيعة الأرض. أما العنصر الثاني الذي يجب أخذه في الحسبان، فهو أكثر دقّة، على رغم صعوبة الاعتراف بالحقيقة: يشتهر هذا الجزء من الحدود بأنه أشبه بالغربال. ويعرف الجميع أن تهريب السجائر والبنزين وخصوصًا الحشيشة ازداد في غضون الأشهر الأخيرة. بل يبدو أن أقسامًا عدة من الحاجز هي «في طور الصيانة» الدائمة على مقربة من قرية الغجر، عند الشمال الشرقي، وفي الوسط عند مستوى عيتا الشعب. ويمكن، بعبارة أخرى، القول بوجود ممرات شبه دائمة نحو إسرائيل، مع تواطؤات محلية حتمية. والصحافة لا تتحدث عن الموضوع على رغم حصول بعض التوقيفات في إسرائيل. ويصعب التصديق، حقًّا، أن في موازاة الحرب المقنّعة، ولكن العنيفة بين «تساهال» وحزب الله، تُجرى، بالأحرى في هدوء، عملية تهريب للمخدرات! وربما لم يتعلّق الأمر، تلك الليلة، بأكثر من عملية «تسليم» إضافية. وبدا الملازم منزعجًا أكثر مما هو قلق حقًّا. ويجب مع ذلك الذهاب لمعاينة المكان عن كثب.

جنوب لبنان. مارون الراس. الساعة ٨:٠٠

يتجسس حزب الله على الجيش الإسرائيلي بلا كلال. وقد سجّل بفضل التقدم التكنولوجي – مناظير أحادية العين قوية مقرونة بالحواسيب – ساعات الدورية، والبدل، والروابط اللوجستية، إلخ. وكشف أحد المقربين من حزب الله عن «تصوير الكثيرين من كوادر «تساهال» ليلًا ونهارًا، وتحديد هوياتهم وفتح ملفات لهم. وتسمح برمجية – أميركية! – بالتعرّف إليهم حتى عندما يبدّلون مظهرهم. وهو ما يسمح بتفادي الشوائب. فعلى سبيل المثال ألغي هجوم، في حزيران/يونيو، في الدقيقة الأخيرة: إذ كان قائد المنطقة الشمالية اللواء إيهود «عودي» آدم[٤] يزور المركز مع عائلته. ولو تمّ الأمر لأحدث تأثيرًا سلبيًا». وتتكامل المراقبة المباشرة مع التنصت الإلكتروني. فالإسرائيليون، كما في كل مكان في الشرق الأوسط، يستخدمون هواتفهم النقالة من دون توقف ومن دون حذر ومن دون حدود! أما بالنسبة إلى الاتصالات العسكرية المحض، فإن حزب الله يمتلك أدوات فاعلة جدًا للتنصت وفك رموز الاتصالات اللاسلكية بين المراكز بل وحتى مع قيادة الأركان «كما لو أنها اتصالات عادية».

رصد مراقبو عيتا الشعب للتو آليتي الهامر[٥] اللتين تستعدان لتفتيش الطريق. لا بل تمكن المقاتلون اللبنانيون أيضًا من التقاط الحديث عبر اللاسلكي: فقد تلقى آمرا الآليتين للتو اسمي الدلالة إليهما: فالآلية الأولى ستصبح «شمعون ٤» والثانية «شمعون ٤٠٠٠». وتأكد للحاج أ. م. أن الإسرائيليين وقعوا في الفخ: فهم لن يقوموا بعملية واسعة النطاق بل بجولة تفقدية محدودة. أفاد الحاج أ. م. مقر قيادة المنطقة في بنت جبيل، وتلقى منها الضوء الأخضر. ونبّه

(٤) ابن اللواء يكوتئيل «كوتي» آدم، مساعد رئيس الأركان والمسؤول عن العمليات الذي قتل في لبنان في ١٠ حزيران/يونيو ١٩٨٢، خلال حرب لبنان الأولى.

(٥) آلية خفيفة من صنع أميركي خلفت الجيب.

أبو م. على الفور رؤساء المجموعات الخمس المتمركزة قبالة مراكز القطاع الإسرائيلية. وأصبحت فرق مقاتلي حزب الله الخمس جاهزة لإطلاق النار.

إسرائيل. المركز «و٤١١». الساعة ٨:٣٠

ركب رجال الدورية الآليتين وجلس رئيسها الرقيب الأول إيهود غولدفاسر في آلية الطليعة إلى جانب سائقها معادي رازك، بينما جلس في الخلف إلى اليسار تومر فاينبرغ وإلى اليمين الرقيب إلداد ريغيف. وتبعهم في الآلية الثانية كل من الرقيبين الأولين شاني تورغمان وإيال بنين إضافة إلى الرقيب وسيم نزال. تحرّك الموكب الصغير في الساعة ٨:٤٥. ولم يسلك الطريق العسكرية المحاطة بسياجين مشبَّكين مرتفعين، بل الطريق الأضيق القديمة التي تتعرّج بين التلال لتقترب أحيانًا من خط ترسيم الحدود وتبتعد عنه أحيانًا أخرى. تحركت الآليتان، في بطء، لا يفصل بينهما سوى ٢٠ مترًا. وهما نصف مصفحتين: القاعدة بكاملها، وقد دعم الجانب الخلفي منها والأبواب بصفائح يُفترض بها صد الرصاصات ذات العيار الصغير وشظايا القنابل. ولا يمكن رؤية الكثير من النوافذ الجانبية المصفرّة. وقد سلكتا الطريق عبر سلسلة من المنعطفات بين منحدرين صغيرين تغطيهما أدغال ليست عالية جدًا، لكنها تخفي، معظم الوقت، المنظر. توقّفت الآليتان للمرة الأولى مع اقتراب الطريق أكثر ما يكون من السياج. ما من شيء تتم الإفادة عنه. انطلقتا من جديد وها إنهما تسيران الآن نزولًا صوب استدارة الطريق في الاتجاه المعاكس في محاذاة صفَّي الأسلاك المزدوجة.

جنوب لبنان. مارون الراس. الساعة ٨:٤٥

أعطى أبو م. الأمر لفرق المساندة الخمس بفتح النار، في وقت أكّد القائد الحاج أ. م. عبر الهاتف الآخر لمقر قيادة منطقة بنت جبيل أن إطلاق النار في منطقة عيتا الشعب بدأ. كرر الأخير المعلومات لمواقع عدة أخرى لحزب الله من يارين في الغرب إلى شبعا في الشمال الشرقي. ودكّت عشرات قذائف الهاون والصواريخ المواقع الإسرائيلية على الخط الأزرق: لقد بدأت عملية «الوعد الصادق».

إسرائيل. الطريق التكتيكي. الساعة ٨:٥٠

بلغت الدورية الآن المنعطف المحاذي للسياج المزدوج. لم يسمع أي من جنودها انفجارات قنابل الهاون والصواريخ المنهمرة على المواقع الإسرائيلية. وفجأة انفجر الهامر الذي يسير ثانيًا وقد أصابته من الأمام ثلاث قذائف مضادة للدروع. انفصلت عنه جبهته الأمامية فانزلق وهو يشتعل مسافة بضعة أمتار. وحوّله وابل ثان من النيران حطامًا من الحديد الحارق. وأصيبت الآلية الأولى بدورها بثلاثة صواريخ «آر.بي.جي - ٧»[٦]. وهي أقل قوّة. ثم اندفع ستة مقاتلين من حزب الله، في سرعة، من المنحدر ورشقوا الحطام بنيرانهم الغزيرة، وخلعوا بوابتي الآلية الأولى لجهة اليمين، واختطفوا اثنين من الجنود وهما إيهود غولدفاسر وإلداد ريغيف، وهما جريحان وفاقدا الوعي، فتوجّب حملهما. وتردّدت من بعيد أصوات انفجارات الصواريخ والقنابل التي تدكّ الحصون الإسرائيلية على بعد بضعة كيلومترات من المكان.

(٦) قاذفة صواريخ فردية ومحمولة من صنع سوفياتي.

انطرحت الآليتان وسط الطريق، وثانيتهما تحترق، فيما تصاعد الدخان من الأولى بعدما أصابها صاروخان على مستوى قاعدتها من الجهة اليمنى، وشلّ ثالث السائق. ونجا تومار فاينبرغ من الهجوم، وقال في شهادته: «أدركت ما يحدث فورًا منذ الصدمة الأولى. اندفعت وسلاحي بيدي خارجًا صوب الأكمات الموجودة في الجهة السفلى من الطريق. وأُصبت لحظةَ خرجت في رجلي ويدي وظهري. لم أستطع أن أرى هل تمكن أودي[٧] أو إلداد هما أيضًا من الخروج». وقد جهل أيضًا أن أحد رفاقه، وسيم نزال، تمكن من جرّ نفسه إلى الحفرة، عن يسار الآليتين المصفحتين، ليُعثر على جثته بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة. ستمر في البعيد دويّ انفجارات الصواريخ والقنابل التي تستهدف المراكز الإسرائيلية. وأشار انفجار أقرب إلى أن جزءًا من السياج طار للتو. ووصلت سيارتا دفع رباعي اندفع إليهما المقاتلون الستة وهم يجرّون رهينتيهما. عادت السيارتان سريعًا إلى الجانب اللبناني تاركتين وراءهما ما تبقى من آليتي الهامر المشتعلتين. وستلتفّان حول عيتا الشعب وتنطلقان مسرعتين صوب بيت ليف.

إنها الساعة ٩:٠٥ والقيادة الإسرائيلية لا تعرف بعد أن اثنين من جنودها خُطفا. وهي لا تزال حتى الآن تحاول إدراك الطبيعة والحجم لموجة القصف هذه التي لم يسمح أي شيء بتوقّعها. وحاول مركز زرعيت الاتصال بدوريته. ولم يلقَ إلا الصمت.

لم يعِ أحد، لا في صفوف حزب والله ولا في مقر القيادة الإسرائيلية، أن حربًا جديَدةً بدأت للتو.

(٧) تصغير إيهود (غولدفاسر).

جنوب لبنان. الناقورة.

مقر قيادة اليونيفيل. الساعة ٩:٠٠

ورد إلي أول التقارير المخيفة من مراكز الكتيبة الغانيّة الموجودة على مقربة من الخط الأزرق. فأفادت أن موقع الجيش الإسرائيلي «و٤١٨» في بيرانيت، عرضة لقصف بالهواوين، مصدره الأراضي اللبنانية. وسريعًا ما واجه مركز زرعيت المصير نفسه. أفاد جنودنا عن عناصر من حزب الله في آليتين تقتربان من الخط الأزرق. وما لبثوا أن سمعوا أصوات إطلاق رصاص من أسلحة فردية في المنطقة الممتدة بين المركزين الإسرائيليين. بيد أن طبيعة الأرض تمنع الرؤية المباشرة للمكان المفترض للحادث. عاودت السيارتان الظهور، بعد وقت قليل، وتوجهتا شرقًا في اتجاه عيتا الشعب. ولم تسمح خطوط الاتصال الهاتفية المربوطة مع الإسرائيليين بمعرفة المزيد. فهم لم يدركوا بعد أن إحدى دورياتهم وقعت في مكمن على الطريق التي تحاذي، في الجانب الإسرائيلي، السياج بين البلدين. وستُكتَشف لاحقًا عملية القطع التي تمت في السياج المشبّك والتي تمكن العناصر المسلحون من النفاذ عبرها، وقد أخذوا معهم الجنديين رهينتين.

الضاحية الجنوبية لبيروت. الساعة ٩:٣٠

في أحد مكاتبه المحميّة، ربما تحت أرض مبنى عادي جدًّا، أخذ حسن نصرالله سماعة الهاتف التي ناوله إياها مساعده. فقد وُجّهت التعليمات إلى الأخير بأن يمرّر إليه فورًا أي اتصال يأتي عبر هذا الخط المحمي جدًّا والمتصل مباشرة بمركز قيادة المنطقة الجنوبية في بنت جبيل. ابتسم الأمين العام لحزب الله وانهال على محدّثه بالأسئلة: «هل سُلّمت فعلًا الهدية؟ هل سقط لنا شهداء أو جرحى؟ هل الجنديان على قيد الحياة؟ ما الذي يقوم به من هم

قبالتنا؟». بعد ذلك بساعتين وصل ساع من الجنوب وسلّم نصرالله شخصيًّا شريطي فيديو من دون أي مونتاج، واحد صُوّر خلال الهجوم والآخر يراكم التحضيرات التي استمرت أربعة أشهر.

جنوب لبنان. الناقورة.

مقر قيادة اليونيفيل. بداية مدة بعد الظهر

سمحت التقارير الفورية بإعطاء تقويم أوّلي. إجتازت للتو دبابة ميركافا من اللواء المدرّع السابع، يواكبها جنود مشاة من لواء ناحال، الخط الأزرق في اتجاه عيتا الشعب في محاولة لتحديد مكان الرهينين اللذين أصبحا بلا شك بعيدين جدًّا، واستعادتهما. فشلت هذه المحاولة التي تمّت على عجل، ودُمِّرت، نتيجتها، دبابة بلغم على بعد ٧٠ مترًا شمال السياج، وسقط خمسة قتلى آخرين. وأدت المواجهات العنيفة جدًّا في ذلك اليوم إلى ثمانية قتلى وخمسة جرحى في صفوف «تساهال» وسمحت لحزب الله بأسر الرقيب الأول إيهود غولدفاسر والرقيب إلداد ريغيف.

الوضع خطر جدًّا، ولم يعد من الوارد عندي متابعة برنامج النشاطات المقرر لهذا اليوم. وُضعت كل الوحدات في حال الإنذار الأحمر، وهي الدرجة العليا من اليقظة والاستعداد المُعتمدة عندنا. واتصلنا على الفور بمقر الأمم المتحدة في نيويورك حيث الساعة لا تزال الثانية فجرًا، وهو اتصال سيبقى مستمرًّا. حاولنا الاتصال بالأطراف المعنيين، أي الحكومة اللبنانية والجيش الإسرائيلي، إلا أن المحاورين باتوا عملة نادرة. فمكتب الاتصال التابع للجيش اللبناني لا يعرف شيئًا وسيستعلم عن الأمر. أما في الجانب الإسرائيلي، وعلى جاري العادة في مثل هذه الأوضاع، أشاعت السلطات العسكرية أنها في اجتماع ولا

يريد عامل مقسّم الهاتف إيصال أي رسالة من قبلنا. ولم يعد أمامنا سوى الصبر والقيام بأفضل ما يمكننا فعله في انتظار الرد المحتوم.

اجتياز الخط الأحمر

لم يتوافر ما يسمح بتوقّع توقيت هذا الحادث على رغم أن طبيعته لا تشكّل حقيقة أي مفاجأة. فحزب الله يعنى دومًا عناية كبرى بتنظيم عملياته ويصعب كثيرًا كشف سرّيته وتحضيراته خصوصًا في منطقة تتبنى، في غالبيتها، قضيته. وقد أعلن حسن نصرالله مرات عدة في خطاباته أنه لا يتخلّى عن أخذ عسكريين إسرائيليين رهائن ليتمكن من مبادلتهم باللبنانيين الأسرى في السجون الإسرائيلية. وأمكن في تلك المدة إحصاء ثلاثة أسرى لبنانيين أقدمهم سمير القنطار. فهذا اللبناني الدرزي العضو في جبهة التحرير الفلسطينية شارك عام ١٩٧٩ في عملية اختطاف في مدينة نهاريا الساحلية (شمال إسرائيل)، قتل فيها ثلاثة إسرائيليين: شرطي ومدني وابنته. أُسر وحوكم وحُكم عليه عام ١٩٨٠ بالسجن مدى الحياة، وهو سيصبح طرفًا في عملية التبادل التي تمت في ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٨ بين إسرائيل ولبنان. وستستعيد إسرائيل حينذاك جثتي الجنديين اللذين اختطفا للتو.

سبق لحزب الله أن هاجم في ٢١ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، بهدف أخذ رهائن، موقعًا إسرائيليًا في الغجر، وهي القرية التي يقطع الخط الأزرق في وسطها ويحتلها الإسرائيليون كلها في انتهاك لقرار الأمم المتحدة. لكن الهجوم كان مُتوقَّعًا وجاء الفشل داميًا. وقُتل أربعة على الأقل وتم الانسحاب تحت النار. غير أن ما يلي أثبت أن ذلك لن يثنيه عن عزمه.

وأذكر جيّدًا، من الناحية الإسرائيلية، الكلام الذي قاله على مسمعي قائد المنطقة الشمالية يومذاك، الجنرال بنيامين غانتز، قبل ذلك بسنة على الأقل: «إذا وقع لنا جنود في الأسر فسنحرق بيروت». ولا تترك جدّية محدّثي وتصميمه أي مجال للشك في مثل هذا الاحتمال. وبالتالي، ولدى عودتي إلى لبنان، نقلت الرسالة إلى أعلى سلطات الدولة. ومع ذلك، وعلى ما هي الأمور غالبًا في الشرق الأوسط، ما إن يُرسم خط أحمر حتى ينظر إليه الطرف المعني بعبارات الاستفزاز ويعمل أحيانًا على قذف الكرة إلى ما هو أبعد، ليختبر ردّ الفعل. وفي الحال الراهنة ستؤدي أخطاء في التقدير، من طرف ومن آخر، إلى نزاع استمر ٣٤ يومًا(٨).

لم يكن الوضع الإقليمي غريبًا بالتأكيد عن قرار حزب الله التحرّك. فنصرالله يبقى على تناسق مع مواقفه المعلنة ولم يعترض عرّابه الإيراني قط على مثل هذا المشروع. أضف إلى ذلك أن حماس خطفت هي أيضًا، في الخامس والعشرين من حزيران/يونيو الماضي، جنديًا إسرائيليًا، في قطاع غزّة، هو العريف جلعاد شاليط. وستسمح العملية لحزب الله، بمهاجمته العدو المشترك، بأن يُظهر تضامنه مع الفلسطينيين ويحاول تخفيف الضغط عنهم. وهي أيضًا طريقة جيّدة لـ«نشر رايته» في جنوب لبنان وتعزيز وجوده، إذا وُجدت حاجة إلى ذلك. فالسنوات السابقة رُصّعت بالأحداث على طول الخط الأزرق وشهدت في بعض الأحيان سقوط القتلى. ولكن أُمكن، كل مرة، التحاور من خلال اليونيفيل، وهي الوسيلة الوحيدة للقيام بحوار هادئ لوقف أعمال العداء بين البلدين، وهما رسميًا في حال حرب، بما يسمح عندذاك باستعادة الهدوء. وربّما فكّر حزب الله، في هذه الحال بالتحديد، في إمكان متابعة السبل نفسها

(٨) الصحافيون والمؤلفون الذين كتبوا فور انتهاء النزاع أطلقوا عليه اسم «حرب الأيام الثلاثة والثلاثين». وهو عنوان لافت بالتأكيد لكنه غير دقيق. فقد اندلع النزاع في ١٢ تموز/يوليو وانتهى في ١٤ آب/أغسطس، فيكون قد استمر ٣٤ يومًا.

للوصول إلى تبادل للأسرى. وسيعترف نصرالله لاحقًا بـ«أننا لو اعتقدنا بوجود نسبة واحد إلى مئة أن اختطاف الجنديين سيؤدي إلى حرب عنيفة وعدائية لما قمنا بهذه العملية». فهل يعني هذا أن تحليله الوضع جاء خاطئًا؟ لقد تم تجاوز حدود لا يُفترض تجاوزها وسرعان ما سيُعلن الإسرائيليون لليونيفيل أنهم سيقومون بأي تحرّك يرونه مفيدًا لاستعادة جندييهم من دون أي تسوية ممكنة. أما الحكومة اللبنانية التي تعي خطورة الموقف، فأوحت أن الأمور تجاوزتها وطلبت منّا التفاوض على وقف للنار، وهو مطلب وهمي جدًّا، إذ لم يعد في الإمكان وقف التصعيد الذي بدأ، وقد شرع الطيران الإسرائيلي في القصف منذ بداية ما بعد الظهر. وتعهّد رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال دان حالوتز «بإعادة لبنان عشرين عامًا إلى الوراء» فيما جدّ حزب الله في الردّ بإطلاق المقذوفات والصواريخ.

انقضت المفاجأة الأساسية في منطقة «زفّات» وشرعت الفرقة الـ٩١ المكلّفة الدفاع عن الجليل في استدعاء الاحتياط. فقد عقد الإسرائيليون العزم على تنفيذ خطط متعدّدة الأهدف، جهّزوها منذ مدة طويلة. أرادوا في البداية، طبعًا، وهذه أولويتهم، استعادة الرهينتين، ومن ثم معالجة التهديد الذي يشكله حزب الله بأكبر مقدار ممكن من الفاعلية. فميليشياته، وهي الأخيرة التي لم يُنزع سلاحها في لبنان وتعدُّها الأمم المتحدة غير شرعية، ليست فقط تشكّل خطرًا على الحدود الشمالية لإسرائيل، بل تعدها تل أبيب بمثابة خزّان إرهابي إقليمي في الشرق الأوسط يمد الحركات الفلسطينية في الأراضي المحتلّة، وعلى استعداد لمساندة كل كيان يحارب إسرائيل. وليس الهدف تدمير حزب الله، وإلا عدَّ ذلك وهمًا، بل إضعافه إلى حدّ بعيد ومنعه بالأخص من إطلاق النيران على إسرائيل. وأملت إسرائيل أيضًا في أن يدفع قصفها الواسع داخل الأراضي اللبنانية بالشعب إلى التخلّي عن تضامنه مع حزب الله وحثّ قادته على طلب وقف النار. ويتعلّق الأمر أيضًا بإجبار الحكومة اللبنانية على الشروع

في نزع سلاح الميليشيا، على ما ينص قرار مجلس الأمن الرقم ١٥٥٩ الصادر في الثاني من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤. ولم يشهد هذا القرار أي بداية تنفيذ لهذا البند. وتريد إسرائيل، في النهاية، الحض على نشر الجيش اللبناني بين الليطاني والخط الأزرق. وقد أخلى الجيش الإسرائيلي هذه المنطقة في أيار/مايو ٢٠٠٠ فتركتها السلطات اللبنانية مذذاك تحت السيطرة الحصرية لحزب الله الجبّار. وهي تحوّلت من «فتح لاند»[٩] (أرض فتح) في سنوات ١٩٨٠ إلى «حزب الله لاند» الذي يتم العمل الآن على تحجيمه.

فاجأ شن العملية المجتمع الدولي وبخاصة الراعي الأميركي الذي يعرف مع ذلك بالخطط التي ستنفّذها ربيبته. فالأهداف الإسرائيلية تصب في المنحى السياسي الذي تقوده واشنطن في محاولتها إقامة «الشرق الأوسط الكبير» من خلال التشجيع على إحلال الديمقراطية فيه والإصلاحات الاقتصادية والسياسية. وتغيير اللعبة في لبنان أمر مغرٍ، لكنه يجب ألا يفضي إلى سقوط الحكومة اللبنانية التي يديرها فؤاد السنيورة والتي تستند إليها القوى الغربية. فاللعبة الدائرة شاقة.

بدأت عملية «القصاص العادل» التي سرعان ما حُوّل اسمها إلى «تغيير الاتجاه» وقد تحسّبت لأربعة أيام من القصف الكثيف!

أفهمتني الاتصالات الهاتفية النادرة مع قيادة الشمال أن التصميم الإسرائيلي كامل. فالجيش الإسرائيلي يتوقع عملية طويلة وصعبة ومكلفة في الرجال. والوقت ليس وقت تفاوض. بيد أن الرهانات حيوية: فحكام إسرائيل يريدون خلق وضع تتولى معه في لبنان حكومة مسؤولة ومتحرّرة من ضغط حزب الله.

---

(٩) اسم أطلقه الصحافيون على جنوب لبنان في سنوات ١٩٨٠ في الحقبة التي كانت الحركات المسلحة الفلسطينية الحاكمة بأمرها فيه.

ولم تتأخر أحداث بعد ظهر الثاني عشر من تموز/يوليو في تأكيد الموقف الإسرائيلي. فقد دُمِّرت جسور طريق الليطاني الساحلية مما قطع الطريق من صور في اتجاه بيروت، فيما شرعت الزوارق الحربية في قصف مواقع حزب الله على طول الطريق التي تمر بين رأس الناقورة[١٠] وصور. وعلمت من مفرزتي الدائمة في بيروت، وهي بقيادة العقيد سلفاتوري سكاليزي (إيطاليا) أن الطائرات الإسرائيلية تعاملت أيضًا مع أهداف في عمق البلاد. النية الإسرائيلية واضحة: عزل جنوب لبنان ومنع أي دعم مصدره الشمال لمقاتلي حزب الله الموجودين في قطاع من بضعة كيلومترات، شمال الخط الأزرق. ولكن أخليت مراكزهم المعروفة، في معظمها، وكثيرًا ما أطلقت الصواريخ من مواقع ظرفية في قلب الطبيعة أو القرى. وبدا الاشتباك كأنه شامل.

وُجد في ذلك اليوم فريق من اليونيفيل في نهاريا، في الأراضي الإسرائيلية، لاجتماع عمل مقرر سابقًا. ولدى الإعلان عن مكمن حزب الله، قرر ذوو القبعات الزرق، نظرًا إلى خطورة الوضع، العودة في أسرع ما يمكن إلى مقر قيادتهم في الناقورة. وبوصولهم إلى معبر «روش هانيكرا» لاجتياز الخط الأزرق بقيت البوابة من الجهة الإسرائيلية موصدة، في عناد، في وجههم. وخشي أفراد الفريق الصغير من التعرض لإطلاق صواريخ حزب الله، فتوجهوا إلى مقر قيادة اللواء الغربي للجيش الإسرائيلي في بيرانيت. لكن القيادة رفضت السماح لهم بدخول مقر عسكري في حالة استنفار، ولو بحثًا عن ملجأ. فذهبوا حينذاك إلى حيفا، أملًا منهم في أن يكونوا في منأى عن القصف الآتي من لبنان. وينص الاتفاق الذي وُقّع رسميًا على أن جنود الأمم المتحدة هم في حماية الأطراف المعنيين، ولم يترك موقف الجنود الإسرائيليين مجالًا لتوقّع أي شيء جيّد.

---

(١٠) «روش هانيكرا» (للإسرائيليين) أو رأس الناقورة (للبنانيين) التي تقع على جرف صخري عند البحر هي نقطة العبور الوحيدة على الخط الأزرق. يحرس بوابتها من الشمال مركز لليونيفيل يقع في محاذاة موقع إسرائيلي يقع مباشرة عند الجانب الآخر من السياج.

لكنه، وعلى العكس، يؤكّد وجوب توقّع مواجهة عنيفة لا تُقارن بالمناوشات الصغيرة التي يشهدها أحيانًا الخط الأزرق.

اتصل بي هاتفيًا، مع نهاية النهار، صديق فرنسي من بيروت. أراد أن يعرف رأيي هل تستطيع جمعيته التي تضم مهاجرين فرنسيين الإبقاء على برنامج الاحتفالات المقرّر لمناسبة الرابع عشر من تموز/يوليو. بدا لي هذا الانشغال عقيمًا فجأة. ستكون هناك بالتأكيد ألعاب نارية، ولكن، ويا للأسف، ليست تلك المخصّصة لعيدنا الوطني. لأننا سنعيش شهرًا أصعب بكثير مما يمكن لخططنا أن تحضّرنا له.

إنها حرب لبنان الثانية بالنسبة إلى إسرائيل

قوة الردّ الإسرائيلي ومداه، وقد ترافقا مع تصريحات رسمية من تل أبيب لا تترك أي مكان للحوار والتفاوض، بشّرا فورًا بتصعيد في المواجهة. وحاولت القوى العظمى وكبار المسؤولين الدوليين إعادة كل واحد إلى رشده، لكن الكلام جاء من دون طائل. ومهما قال اللاعبون الدوليّون الكبار إنهم معنيّون بما يحدث وشرعوا في الأسى على سقوط الضحايا والخراب، فإن مشاعرهم الطيبة بقيت من دون تأثير في المأساة الآخذة في التكشّف. فالإسرائيليون يمارسون سياسة الأمر الواقع على غرار ما فعلوه مرات كثيرة في تاريخهم. والفرصة المتاحة أجمل من الاكتفاء برد معتدل. بل على العكس يجب من البداية التحرك، في قوة، لإجبار هذا اللبنان المتمرّد أبدًا على التوبة ولإنزال أكبر ضرر ممكن بحزب الله الذي يحتمي فيه. الخطط جاهزة منذ زمن بعيد ويكفي الآن وضعها موضع التنفيذ. وباتت كلمة السرّ هي السرعة والقوة والاستعداد للمضي إلى أكثر مما ينبغي. وعلى أي حال، سيُضطرّ الحلفاء التقليديون، أي الولايات المتحدة، إلى السير في الركاب، كما فعلوا ذلك دومًا.

انقسمت هيئة الأمم منذ البداية حيال الطريقة التي ردّت بها إسرائيل، غير أنها أجمعت على التنديد بعجز اليونيفيل. ولم تتأخر التصريحات منذ اليوم التالي: «كيف يُعقل ألا تتدخّل اليونيفيل؟ عليها أن تعارض القصف وتشرع في المحادثات. ولماذا لا تساعد السكان؟ وأخيرًا، إذا تدهور الوضع فستتحمل هي المسؤولية الكبرى في ذلك». وزايدت إسرائيل ولم تتردّد في اتهامنا بالتواطؤ مع حزب الله. وهذه طريقة سهلة ليخفي فيها المسؤولون والدبلوماسيون عجزهم أو أطماعهم. وامتدت مروحة التقديرات من الانتقاد العنيف الصادر عن سوء نية إلى التعاطف مع أصحاب هذه القبعات الزرق الذين لا يتمتعون بما يكفي من القدرة لمواجهة وضع حرب. ولكن يبدو أن كل هذه البلدان التي اكتشفت بشيء من التسرّع، الحاجة إلى قوة السلام هذه، نسيت أنها من أنشأها عام ١٩٧٨ وامتنعت مذذاك دومًا عن العمل على تطوير انتدابها. فهي تجتمع في نيويورك كل ستة أشهر لتجديد الانتداب وتتوصل دومًا وفي شكل إجماعي إلى تمديد وجود اليونيفيل ستة أشهر إضافية. وهذه الدول هي التي تتفق على مهمات القوة الدولية والوسائل التي يجب توفيرها لها وقواعد الاشتباك التي يُفترض بها احترامها. فهي لا تفعل ما تريد، والأمر على أي حال أفضل بهذا الشكل. وبالتالي يجب عدم لومها على الحدود التي فرضها أرباب عملها. ولا يمكن أن تُعدَّ المسؤول الوحيد عن عجزها.

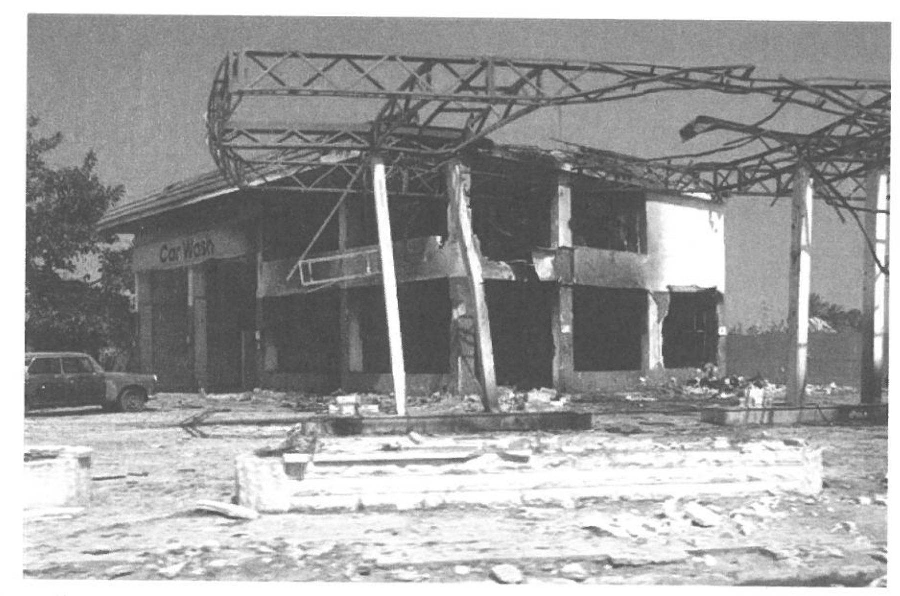
كيف أمكن الوصول إلى هنا؟ من المؤكد أن الإجابة في وضوح وبداهة عن هذا السؤال صعبة. ولكن من الواضح أن تاريخ اليونيفيل نفسه، وفي شكل أوسع تاريخ الأمم المتحدة في الشرق الأوسط، يسمحان بتقديم عناصر لفهم هذا الوضع. فهل كان في الإمكان تفادي مثل هذه المواجهة؟ سؤال ذو صلة يجد أيضًا أيضاحات له من خلال تفحّص ملحمة العلم الأزرق في المنطقة. وهكذا فإنني، وقبل أن أروي يومًا بيوم أيام النزاع الأربعة والثلاثين، سأنكب على طريقة تكوين اليونيفيل وأنظر في بيئتها الجغرافية والسياسية وأقوّم سريعًا نجاحاتها وانتكاساتها حتى تموز/يوليو ٢٠٠٦ ذاك.

ومن ثم سيجهد السرد المفصّل لـ«حرب لبنان الثانية» كما سمّتها إسرائيل، في إلقاء الضوء على مبادرات الأطراف المعنيين وأفعالهم وردود فعلهم. ويتعلّق الأمر هنا بحدث رئيس في تاريخ المنطقة تمّت متابعته من مركز قيادة اليونيفيل، وهي اللاعب المسؤول عن انتدابها، لكنها أيضًا مراقب يتمتع بحظوة خاصة. واتسم إدراكها الأزمة، طبعًا، بالجزئية لأنها عاينتها من الساحة بعيدًا من الحوارات الدبلوماسية الدولية. لكن يمكن لهذه النظرة المُكمّلة أن تسهّل فهمًا أفضل للصعوبات التي واجهتها في التأثير في الوضع، إضافة إلى التحديات التي اضطرت اليونيفيل إلى مواجهتها لكي تبقى، وهي تتمسك في الوقت نفسه بمتابعة تنفيذ مهماتها التي حددتها القرارات المتتابعة.

وسيؤدي تأمّل المكتسبات السياسية والعسكرية التي حققها هذا الطرف وذاك في نهاية النزاع أيضًا إلى نتائج لا تزال المنطقة تشعر حتى الآن تداعياتها. أهو «نصر إلهي» لحزب الله وهزيمة منكرة لإسرائيل؟ يجب بالتأكيد توصيف المسألة بتعابير أكثر دقّة.

والنتيجة الكبرى لهذه الأحداث هي، من وجهة نظر اليونيفيل، التحوّل العميق الذي فُرض عليها ليسمح لها بالاستمرار في أداء دورها في هذه المنطقة الحاسمة جدًا بالنسبة إلى لبنان وإسرائيل.

شكّل هذا النزاع العامل الذي أطلق إعادة النظر الحقيقية في الطريقة التي يقوم بها قطاع عمليات حفظ السلام، وهو الجهاز الأساس في المقر العام للأمم المتحدة في نيويورك، في إدارة عملياته. فقد أعيدت هيكلة القوة وشُدِّدت قواعد اشتباكها واضطرت إلى الاستحداث، إلى حدّ أنها أضحت مختبرًا حقيقيًّا يتم فيه تثبيت المفاهيم الجديدة ووسائل التصدي الجديدة للمحافظة على السلام. وسيسمح التدقيق في هذه التغييرات بإحاطة أفضل بعمق التحولات الجارية، وتقويم ما سيكون لهذه الأخيرة من تأثير في الوضع الإقليمي على المديين القصير والمتوسط.



٢٥ تموز/يوليو ٢٠٠٦- بين صور والناقورة ـ محطة وقود حيث لم يعد حزب اللّه قادراً على التزود بالوقود.

القسم الأول

الأمم المتحدة والشرق الأوسط



إبل السقي – جبل حرمون من مقر القيادة الهندية.

الفصل الأول

تمركز الأمم المتحدة

بوّابة الشرق

يقع لبنان، الذي يشبه مثلّثًا متّجهًا صوب الجنوب، عند الطرف الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. وهو أكبر قليلًا من كورسيكا (١٠٤٧٢كلم٢) ويتألف من أربعة قطاعات من الأرض متوازية مع الساحل. فمن الغرب إلى الشرق يوجد السهل الساحلي الضيّق والخصب، ثم جبل لبنان الذي ترتفع أعلى قممه إلى ٣٠٨٣ مترًا. والباروك اللذان يشكّلان سلسلة جبلية خضراء تغطيها الثلوج من كانون الثاني/يناير إلى نيسان/أبريل، وتضم آخر أشجار الأرز الشهيرة. وبعد ذلك يوجد سهل البقاع، وهو كناية عن هضبة متطاولة، بمعدّل ارتفاع ٩٠٠ م، تنحدر لطيفة نحو الجنوب. وهناك أخيرًا سلسلة جبال لبنان الشرقية الصخرية التي تشكل الحدود الطبيعية مع سورية.

طبعت الجغرافيا الطبيعية الجغرافيا الإنسانية: وهكذا فإن صيادي الأسماك، الذين أصبحوا مزارعين وبنائين وبحارة يجوبون أعالي البحار، اخترعوا التجارة والأبجدية والمنازل ذات الطبقات والأرجوان والوكالات التجارية. وصيغ تاريخ البلاد على مرّ الغزوات المتعددة التي اندفعت في كل الاتجاهات في هذا الممر الإجباري بين الشرق والغرب. وتحوّل الجبل حصنًا انكفأ إليه على التوالي الناجون من النزاعات الكثيرة في المنطقة.

يتمتع سكان لبنان بمزية مزدوجة: فللعائلات التي يتشكّلون منها أديان وثقافات متميزة، في وضوح، لكنها تحتل معًا الأرض ـ المأوى في مواجهة

سلسلة من التدخلات الأجنبية التي تتكرّر في عناد. وامتلك كل واحد، نتيجة ذلك، خبرة الالتحام بمجموعته الخاصة – لئلا نقول واجب الالتحام – ولكن أيضًا العيش مع «الآخر». فهذا التعايش الذي لا مفرّ منه بين الإثنيات والأديان والثقافات يفترض بالتأكيد التحالفات، ولكن أيضًا الخيانات العرضيّة والمأسوية من آلاف السنين إلى اليوم. هكذا هي حياة نحو أربعة ملايين من السكان موزّعين على ١٨ طائفة معترفًا بها رسميًّا.

يشكّل النظام، على الصعيد السياسي، فجوة كبرى بين الآلية الديمقراطية والتوزيع الثابت للمسؤوليات بين المجموعات الدينية والثقافية ـ الاجتماعية الرئيسة. ويؤكّد الدستور الميثاقَ الوطني، وهو الترتيب غير المكتوب الذي قام عند الاستقلال ويحدّد توزيع المسؤوليات الكبرى بين الطوائف الرئيسة. وهكذا على الرئيس أن يكون مسيحيًّا مارونيًّا ورئيس مجلس الوزراء سنّيًّا ورئيس المجلس النيابي شيعيًّا. وينتج عن ذلك مبدأ «الديمقراطية التوافقية» التي، ومن بين تأثيرات جانبية أخرى، تمنع أيّ إحصاء فعليّ للسكان. أما توزيع المقاعد في البرلمان «بالتساوي» بين المسيحيين والمسلمين، ٥٠٪ لكل منهم، من دون أخذ النسب الديمغرافية في البلاد في الحسبان. ومن التأثيرات الأخرى أن مفهوم الدولة العلمانية غير وارد: فلا زواج مدنيًّا في لبنان، لأنه مسألة تتعلّق بالطوائف الدينية للمعنيين. يضاف إلى ذلك وزن العائلات الكبيرة – وهو تعبير أقل إثارة للجدل من العشائر – التي تتم في صفة خاصة مغازلتها أو محاربتها. ففي المرحلة الانتخابية تقترع المجموعة كلّها، في الواقع، وكذلك يُنتخب رئيسها. وأخيرًا، تبرّر «مقاومة» العدو الإسرائيلي فصل الأمر الواقع بين القوى العسكرية الوطنية والجناح العسكري لحزب اللّه، الميليشيا الوحيدة التي لم تتخلّ عن السلاح بعد انتهاء الحرب الأهلية. وهكذا يمضي تاريخ لبنان بمواجهاته الداخلية وائتلافاته ودعائمه الخارجية التي تنفخ في أغلب الأحيان في نيران أزماته، إذا لم تعمل مباشرة على إثارتها.

«النكبة»

شكّل إنشاء إسرائيل عام ١٩٤٨ الصدمة الإقليمية الكبرى، التي تسبّبت بـ«النكبة» الكارثة على الفلسطينيين. وألهب – بالفعل ـ ما تبع ذلك من نزاع حدودَ لبنان الجنوبية. وقد طُرد سكّان نحو عشر قرى من أراضيهم. بل حدثتْ أعمال قتل فيها، كما في حولا والصالحة، في سياق عملية «حيرام» في ٣٠ و٣١ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨. وشهد الوضع في الوقت نفسه تدفّقًا كبيرًا للاجئين الفلسطينيين الهاربين من الجليل. وهو ما شكّل العامل الأول والأكثر أهمية في ضرب التوازن السياسي بل والاجتماعي الذي عرفه لبنان. وأمل فلسطينيو الموجة الأولى هذه (من مئة ألف إلى مئتي ألف بحسب المصادر) في تمكنهم من العودة إلى ديارهم في مهلة وجيزة. فالخطابات السياسية جعلتهم يعتقدون ذلك. وأقاموا في مخيمات مُرتجلة حيث يُشكّل الموقت شكلًا من أشكال الأمل المثير للشفقة. ولم يدركوا أن معظمهم، وثلثي الأجيال المتحدرة منهم على الأقل، لن يعرفوا سوى هذا.

أما لبنان فلم يمكنه أن يتخيّل يومذاك أنه سيصبح، بعد مدة طويلة جدًّا، واحدًا من آخر البلدان التي تحارب إسرائيل. وشكّل الأمر بالنسبة إليه نقطة انطلاق لسلسلة من الأزمات المستمرة بعد ذلك بستين سنة. وهي أزمات مرتبطة بظاهرتين لا تنفصلان: ولوج عدد ضخم من السكان الأجانب «غير القابلين للاستيعاب» وتصعب كثيرًا السيطرة عليهم، وحدود جنوبية تشكّل خط جبهة أكثر مما هي خط فاصل بين دولتين.

هيئة مراقبة الهدنة، المهمة الأولى للأمم المتحدة

بدأت قصّة منظّمة الأمم المتحدة عمليًّا مع إعلان دولة إسرائيل. بل إن هذا الحدث هو الأزمة الأولى التي تنغمس فيها المنظمة. وهي لن تغادر هذه المنطقة التي أضحت اليوم الجزء من العالم حيث يتجمع العدد الأكبر من البعثات تحت العلم الأزرق. وليست اليونيفيل إلا التجسّد الأخير لهذا الانغماس الدولي.

أعلن ديفيد بن غوريون في ١٥ أيار/مايو ١٩٤٨ إنشاء دولة إسرائيل، فاندلعت الحرب في اليوم التالي بين ائتلاف الجيوش العربية ووحدات الهاغاناه، التنظيم العسكري اليهودي الذي سيتحوّل سريعًا جيش إسرائيل، «تساهال». وطلب مجلس الأمن في قراره الرقم ٥٠ في ٢٩ أيار/مايو «وقف أعمال العداء في فلسطين». وقرر أن يُشرف الكونت فولك برنادوت[١١] على مختلف اتفاقات وقف النار واتفاق الهدنة المقبل. وستساعده في ذلك مجموعة من المراقبين العسكريين أطلق عليها اسم «هيئة الأمم المتحدة المكلفة الإشراف على الهدنة» والتي انتشرت في المنطقة منذ حزيران/يونيو.

مارست هيئة مراقبي الهدنة مسؤولياتها على أراضي خمس دول هي: مصر وإسرائيل والأردن ولبنان وسورية. وهي لا تزال قائمة إلى اليوم، وتُعدُّ عميدة بعثات الأمم المتحدة، وهي بعثة حفظ السلام الوحيدة التي لم يجدد مجلس الأمن قط مدة انتدابها إذ عليها البقاء إلى أن يتم التوصل إلى اتفاق شامل للسلام. وقد أضافت إلى مهماتها الأساسية تعاونًا وثيقًا مع البعثات الأخرى التي ستلي. وهكذا وُضعت مجموعة المراقبة التابعة لها في الجولان تحت الإشراف العملاني لقوة مراقبة فك الاشتباك، ومجموعة مراقبيها في لبنان تحت إشراف اليونيفيل. وتوجد خصوصية مهمة لمراقبي الهدنة وهي أنهم

(١١) ابن أخي ملك السويد وقد اغتاله في القدس في ١٧ أيلول/سبتمبر ١٩٤٨ أفراد من عصابة شتيرن، بينهم إسحق شامير.

غير مسلحين وأن «على أطراف الهدنة توفير الحماية لهم». غير أن هذه البعثة خسرت، على رغم ذلك، إضافة إلى الكونت برنادوت، خمسين من عناصرها (١٨ مراقبًا عسكريًّا، ١٨ جنديًّا، ٨ عناصر من الموظفين المدنيين الدوليين و٦ عناصر من الموظفين المدنيين المحلّيين).

ارتدادات حرب الأيام الستّة

على الرغم من أن ما من معركة دارت عام ١٩٦٧ على حدود لبنان، لأن هذا الأخير لم يشارك في النهاية إلا في الحرب الإسرائيلية ـ العربية الأولى، فإن حرب الأيام الستة أدت إلى موجة جديدة من اللاجئين الفلسطينيين وأحدثت شقاقًا في قلب السلطة. فقد طالب رئيس الوزراء رشيد كرامي بدخول الجيش في الحرب، لكن رئيس الجمهورية شارل الحلو تنصّل من الأمر، واتفق مع موقف قائد الجيش المدرك حدود قدرات الجنود اللبنانيين. وبات الواقع الجديد مع انتهاء النزاع هو أن قسمًا كبيرًا من الحدود اللبنانية مع سورية بات الآن تحت السيطرة الإسرائيلية: فقد احتل الجيش الإسرائيلي – ولمدة طويلة - الجزء الأكبر من هضبة الجولان.

بيد أن التأثير الأكثر ديمومة كان، من دون منازع، تصاعد قوة الحركة الفلسطينية كثقل موازن لخيبة العالم العربي العظيمة حيال هزيمة جيوشه المُذلّة والمذهلة. وتضاعفت الحركات التي تُشكل «المقاومة الفلسطينية» وتسلّحت وانتظمت في لبنان. ولم تتأخر في مواجهة الجيش. ودعت الدول العربية في بيروت إلى ما لا تتسامح به في ديارها. ووقّع قائد الجيش اللبناني العماد إميل بستاني عام ١٩٦٩ في القاهرة اتفاقًا مع رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات أقره البرلمان اللبناني، شرّع إقامة قواعد في جنوب لبنان يمكن للفدائيين الانطلاق منها في عملياتهم على إسرائيل. أضف إلى ذلك أن القادة

العسكريين الفلسطينيين الذين طُردوا بعد «أيلول الأسود» من الأردن شرعوا منذ العام ١٩٧٠ في التوجه إلى لبنان. وكثيرًا ما أدت الأفعال الفلسطينية في إسرائيل إلى ردود غير متناسبة، معظم الأحيان، وقاتلة بالنسبة إلى المدنيين. وكثيرًا ما أسهم مراقبو الهدنة في أداء دور الوسيط في المفاوضات بين الأطراف أو في مواكبة المزارعين إبان موسم التبغ أو قطاف الزيتون، بناء على طلب من السلطات اللبنانية،. وتعلّق الأمر بمواكبات غير مسلّحة، إلا أنها أثبتت في معظم الأحوال أنها رادعة لأن الفدائيين والجنود الإسرائيليين يتفادون ارتكاب الهفوات تحت أعين المراقبين الدوليين.

وأخذت تظهر في الوقت نفسه انشقاقات جديدة في قلب الطبقة الحاكمة اللبنانية، واستطرادًا بين السكان. فللفلسطينيين الموجودين في لبنان مؤيدوهم ممن اعتنقوا قضيتهم وساندوهم في معركتهم ضد الإسرائيليين للعودة إلى فلسطين. وهناك في المقابل من يعدُّون أنهم يشهدون على إقامة دولة في قلب الدولة ناهيك بأنها مسلحة وتصعب السيطرة عليها، ويريدون الوقاية منها. وهكذا جهز المسرح لاندلاع حرب ١٩٧٥ الأهلية التي ستنهش البلاد طوال ١٥ عامًا وهي لم تتعافَ منها كليًّا بعد.

حرب الكيبور (الغفران) والقوة الدولية لمراقبة فك الاشتباك

شكّلت القوة الدولية لمراقبة فكّ الاشتباك المهمّة الثانية للأمم المتحدة، من حيث الأقدمية، في المنطقة؛ وهي من نتائج «حرب كيبور». وتعطي الأمم المتحدة الملخص الرسمي التالي عنها: «إندلعت الحرب في ٦ تشرين الأول/أكتوبر في الشرق الأوسط بين القوات المصرية والإسرائيلية في منطقة قناة السويس وسيناء، والقوات الإسرائيلية والسورية في مرتفعات الجولان.

وفي ٢٤ تشرين الأول/أكتوبر، وفيما المعارك بين مصر وإسرائيل بلغت مرحلة حرجة، قرر مجلس الأمن الدولي إنشاء قوة طوارئ دولية ثانية [...] تتمركز بين الجيشين الإسرائيلي والمصري في منطقة قناة السويس، إذ إن وصولها سيؤدي إلى استقرار الوضع في شكل فاعل[١٢]. غير أن التوتر بقي في المقابل مرتفعًا في القطاع الإسرائيلي – السوري، وأخذ الوضع منذ آذار/مارس ١٩٧٤ يصبح غير مستقر في اضطراد. وقامت الولايات المتحدة بمبادرة دبلوماسية أدّت إلى وصول القوات الإسرائيلية والسورية إلى «اتفاق لفك الاشتباك»."

أقام الاتفاق الموقّع في ٣١ أيار/مايو ١٩٧٤ منطقة فاصلة منزوعة السلاح ومناطق سُميت بالمناطق «المحدودة السلاح» فُرض فيها سقف لعدد القوات التي يُسمح بوجودها فيها ومقدار تسليحها. وتبنّى مجلس الأمن في اليوم نفسه القرار الرقم ٣٥٠ الذي أنشئت بموجبه قوات مراقبة فك الاشتباك.

تراقب قوة مراقبة فك الاشتباك المنطقة الفاصلة بين سورية والجزء من هضبة الجولان الذي تحتلّه إسرائيل. وهي تتحقّق في شكل منتظم من القوى العسكرية وتعدّد كمية الأسلحة الموجودة في المناطق المحدودة السلاح ونوعيتها. وتمتد هذه المساحة من الشمال إلى الجنوب على نحو ٨٠ كيلومترًا ويراوح عرضها بين نحو عشرة كيلومترات في الوسط وأقل من كيلومتر واحد عند طرفها الجنوبي. وهي ذات طبيعة جبلية يشرف عليها جبل حرمون. ويوجد أعلى موقع للأمم المتحدة على ارتفاع ألفي متر. وسيكون لهذا الترتيب – كما سنرى لاحقًا – انعكاسات ملحوظة على جهود الحل الدبلوماسي لأزمة المنطقة، لأنه يتضمن مساحةً شائكةً خصوصًا ومتنازعًا عليها، وهي المنطقة المسمّاة مزارع شبعا.

(١٢) حُلّت قوة الطوارئ الثانية في تموز/يوليو ١٩٧٩.

الصدمة الثالثة:

اجتياح ١٩٧٨ وإنشاء اليونيفيل

في الحادي عشر من آذار/مارس ١٩٧٨، تسلل كوماندوس فلسطيني من لبنان إلى إسرائيل وهاجم باصًا وسيارات مدنية ما بين حيفا وتل أبيب: وسقط ٣٧ قتيلًا و٧٦ جريحًا. تبنّت منظمة التحرير الفلسطينية العملية. فردّت القوات الإسرائيلية في ١٤ آذار/مارس واجتاحت لبنان في «عملية الليطاني» على اسم النهر الذي ينبع من البقاع، جنوب بعلبك، ويصب في المتوسط على بعد ٢٦ كلم شمال الحدود بين لبنان وإسرائيل. واحتلّت في مدى بضعة أيام هذه المنطقة الجنوبية من البلاد كاملة.

دعا مجلس الأمن إسرائيل، في ١٩ آذار/مارس، (القراران ٤٢٥ و٤٢٦) إلى وقف أعمالها العسكرية فورًا وسحب قواتها من كل الأراضي اللبنانية. وقرر المجلس كذلك أن ينشئ على الفور القوة الدولية الموقتة في لبنان (اليونيفيل).

وصلت طلائع قوة اليونيفيل إلى المنطقة في ٢٣ آذار/مارس ١٩٧٨. وقضت «مهمّاتها بالتأكّد من انسحاب القوات الإسرائيلية وبسط السلام والأمن الدوليين ومساعدة الحكومة اللبنانية على استعادة سلطتها الفعلية في المنطقة». وقدّمت فرنسا المفرزة الأولى والأكبر. وفي ٢٣ آذار/مارس نزل المقدم جان سالفان على رأس فوج المظليين الثالث التابع لمشاة البحرية. وسيتبيّن أن المهمة الغامضة جدًا والعامة صعبة وخطرة. ففي الثاني من أيار/مايو، أطلقت النيران الرشاشة على العقيد من مسافة قريبة، ونجا على رغم إصابته بـ١٨ رصاصة. وقُتل مرافقه المعاون سانتيني وأصيب سائقه العريف ميريس بجروح خطرة. ولم يتم قط تحديد المجموعة الفلسطينية المسؤولة عن الاعتداء. وقد سقط في اليوم نفسه جريحان آخران للمفرزة وهما النقيب غابلياني والملازم ديشان.

أوضحت ورقة للأمم المتحدة حُرّرت بعد ذلك بسنوات أن «مجلس الأمن لا يزال يؤكّد، منذ سنوات، تعهّده ضمان استقلال لبنان ووحدته وسلامة أراضيه، فيما تواصل إسرائيل التأكيد أن المنطقة التي تحتلّها تشكّل ترتيبًا موقتًا تدفعها إليه المسائل المتعلّقة بالأمن».

والحقيقة هي أن لبنان أخذ في التحوّل تحت أنظار اليونيفيل. فلم توطّد التنظيمات الفلسطينية وجودها في منطقة بيروت الغربية فحسب بل على مقربة وثيقة من عدوّها الإسرائيلي في الشطر الجنوبي الشرقي من البلاد. فالولاية «الموقتة» الشهيرة لليونيفيل لا تسمح، بالتأكيد، لا بالتدخّل ضد القوات الفلسطينية ما دامت لا تهاجم عناصرها، ولا في اعتراض أفعال الجيش الإسرائيلي وردود فعله، وهو ما سيتبيّن قريبًا.



(بدون تاريخ) ـ علم حزب الله

الفصل الثاني

اليونيفيل، أو المؤقت الذي يدوم

١٩٧٨-٢٠٠٠: من «فتح لاند» إلى «حزب الله لاند»

لم يدم الوضع القائم طويلًا بعدما هشّمته المناوشات التي تزيد خطورة أو تقلّ. وشنّت إسرائيل عملية «سلامة الجليل» وهي الاجتياح الثاني للبنان، على أثر محاولة اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن شلومو أرغوف، في ٤ حزيران/يونيو ١٩٨٢، ومحاولة أخرى، من ثمّ، استهدفت أيضًا دبلوماسيًّا إسرائيليًّا في الخارج، وأخيرًا قصف مدن في الجليل. اجتازت مئات الدبابات والشاحنات الحدود في السادس من حزيران/يونيو فيما عمدت الطائرات الإسرائيلية إلى تدمير قواعد الصواريخ التي نصبها السوريون في البقاع، وكذلك طائرات الميغ التي حاولت الدفاع عنها. دَحَمَت أرتال دبّابات «تساهال» مواقع اليونيفيل وحاصرت المواقع الفلسطينية الواحد تلو الآخر. وأبادت أيضًا عددًا كبيرًا من الدبابات السورية في البقاع. وتبيّن سريعًا أن استراتيجية تل أبيب تقضي بطرد التنظيمات الفلسطينية المسلّحة من لبنان مرّة أولى وأخيرة. وصلت القوات الإسرائيلية سريعًا جدًّا إلى بيروت واحتلت نصفها وحاصرت جزءها الغربي الذي يتحصّن فيه الفدائيون. وستسهّل قوة الفصل العسكريّة – وهي قوة دوليّة تشارك فيها فرنسا في شكل فاعل – لاحقًا رحيل الفلسطينيين. وسحبت إسرائيل بعد ذلك قواتها تدريجًا حتى شريط واسع في جنوب لبنان ستستمر في احتلاله مستندة إلى ما تسمّيه الأمم المتحدة قوات الأمر الواقع التي تُعرف أكثر باسم جيش لبنان الجنوبي. وهي ميليشيا مؤلفة من عناصر لبنانيين مسيحيين وشيعة ستستمر حتى أيار/مايو ٢٠٠٠.

وفي وقت تهاوت تنظيمات المقاتلين الفلسطينيين في لبنان، أخذت مختلف حركات المقاومة اللبنانية للمحتل الإسرائيلي تزداد قوّة. ويتحدّر عناصرها من الأوساط اللبنانية الأكثر حرمانًا، وبخاصة سكان البقاع ذي الغالبية الشيعية وضواحي بيروت الجنوبية وجنوب لبنان. وحلّت «اللجان الإسلامية» وكذلك الفرع اللبناني لحزب «الدعوة» الشيعي العراقي محل الفلسطينيين في القيام بعمليات دقيقة ضد «تساهال».

تحاشت سوريا وإسرائيل الاصطدام المباشر، لكنهما استمرتا في التقاتل من خلال لبنان. وقد تُرجم طرد المقاتلين الفلسطينيين من منطقة الحدود الإسرائيلية – اللبنانية فراغًا سياسيًّا في هذه المنطقة. وبحسب نظرية الأميركية جوديث بالمر حريق[١٣]، أستاذة العلوم السياسية في الجامعة الأميركية في بيروت، فإن الرئيس الأسد، الذي لا يزال يسعى إلى استعادة الجولان من دون خوض الحرب، «بات يحتاج إلى ورقتين رابحتين: قوته التعويضية التي يمكنها دومًا إثارة المشكلات والاحتكاكات لإبقاء قضية الجولان في الواجهة، إضافة إلى مساعدة لوجستية لتطبيق استراتيجيته. [...] وسيوفّر له حزب الله وإيران هاتين الورقتين الرابحتين». فطهران دائمة الاستعداد لمساعدة الشيعة أينما كانوا على رغم أنها في خضم حرب مع العراق. ويدخل ذلك في إطار بحثها عن انفتاح سياسي صوب العالم العربي. وهكذا أرسلت إلى لبنان، عبر سوريا، بضع مئات من «الباسدران» حرّاس الثورة، لتدريب المقاتلين الشيعة. وتعلّق الأمر على وجه التحديد بـ«فوج القدس» وهو وحدة من المُدرّبين المتخصصين الذين تمركزوا في تلال بعلبك، في ثكنة الشيخ عبدالله التابعة للجيش اللبناني والتي أصبحت قاعدة «عشّاق الشهادة». وفي ٢٠٠٦، سيعلن علي أكبر محتشمي، وكان يومذاك سفيرًا لإيران في سوريا، أنه من أدار العملية: «قدّمنا ستّ

(١٣) .Le Hezbollah. Le Nouveau visage du terrorisme, Judith Palmer Harik, Éditions ViaMedias, 2006

دورات تدريب للمقاتلين اللبنانيين، ضمّ كل منها ٣٠٠ مقاتل تحوّلوا بدورهم مُدرّبين».[١٤] وانضمّ إلى هؤلاء كوادر من حركة أمل[١٥] التنظيم الوحيد الممثل لشيعة لبنان، وبينهم حسين الموسوي الذي انشق لاحقًا عن الحركة ليؤسس «أمل الإسلامية». وأصبح أيضًا عضوًا في مجلس شورى حزب الله الناشئ، حيث التقى منشقًّا آخر عن «أمل» هو حسن نصرالله. ويأخذ كلاهما على رئيسهما القديم نبيه برّي تأييده الوساطة الأميركية ومشاركته في لجنة الإنقاذ الوطني التي أنشئت في حزيران/يونيو ١٩٨٢ وضمت خصوصًا بشير الجميل ووليد جنبلاط. أما التنظيمات اليسارية، المناوئة لنشاط للإسرائيليين، فأنشأت في ١٦ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢ جبهة الإنقاذ الوطني.

خلال صيف ١٩٨٢، وفيما مئات المقاتلين الشيعة يواصلون تدريباتهم في البقاع، اجتمعت المجموعات الصغيرة المذكورة آنفًا وأسست حزب الله. وشرعت الحركة في السنة التالية في ترسيخ نفسها والنمو في الضاحية الجنوبية لبيروت فيما لم يعمّر اتفاق ١٧ أيار/مايو الإسرائيلي ـ اللبناني طويلًا. فمنذ توقيعه الذي تم بضغط أميركي، نجحت سورية في تعطيله بدعمها التنظيمات الإسلامية ـ التقدمية اللبنانية المعارضة له. وهكذا توطّد تحالف حزب الله مع سورية. ثم إن حزب الله كشف علنًا عن مشروعه السياسي على شاكلة «نداء إلى المحرومين» فيما أخذ يواصل توسّعه. وها إنه أصبح الآن في جنوب لبنان حيث حمل جناحه المسلّح اسم المقاومة الإسلامية.

وإذا كانت الثورة الخمينية في إيران شكّلت مصدر الإلهام الأساس لحزب الله، فإن الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢ هو بالفعل الذي أطلق عمله. فما كان الحزب ليوجد لولا هذه العملية العسكرية الواسعة النطاق.

(١٤) مقابلة مع صحيفة الشرق اليومية الإيرانية في ٣ آب/أغسطس ٢٠٠٦ استشهدت بها دلفين مينوي في Le Hezbollah. Le Nouveau visage du terrorisme, Judith Palmer Harik, Éditions ViaMedias, 2006

(١٥) اختصار لأفواج المقاومة اللبنانية. وقد تولّى نبيه برّي قيادتها بعد اختفاء مؤسسها الإمام موسى الصدر في ليبيا في آب/أغسطس ١٩٧٨.

وستتزايد من الآن وصاعدًا الهجمات على القوات الإسرائيلية وحلفائها في لبنان. وسيتم سريعًا شنّ معظمها تحت راية خضراء على خلفية صفراء كُتب عليها «حزب الله»[١٦]. وخُطّ الحرف الأول بطريقة تزيينية تُظهر ذراعًا تمتشق بندقية هجومية. وتعلو ذلك آية قرآنية خُطّت بالأحمر «فإن حزب الله هم الغالبون» (المائدة ٥-٥٦)، وكتبت تحتها بالأحمر أيضًا عبارة «المقاومة الإسلامية في لبنان». وهكذا نشأت جبهة جديدة سيصعب تبيّن خصوصيتها ومستقبلها في الإعصار الذي تسبب به الاجتياح الإسرائيلي الذي يُضاف إلى الحرب الأهلية المستمرة منذ العام ١٩٧٥!

سرعان ما ستحلّ القوى الشيعية، بفضل المساعدة القوية من دولتي إيران وسورية، محل المقاتلين الفلسطينيين، سواء في الضاحية الجنوبية للعاصمة أو في جنوب لبنان المنطقة التي يحتلّها الجيش الإسرائيلي، مع فارق كبير وأفضلية هائلة على منظمة التحرير الفلسطينية: فسيتم التعامل الآن مع لبنانيين في معظمهم من أبناء المناطق التي يقاتلون فيها. وتوالت الهجمات واستهدفت أيضًا المراكز «الغربية» مثل تجمّع المارينز الأميركيين في مطار بيروت (٢٤٣ قتيلًا) ومبنى «دراكار» للقوات الخاصة الفرنسية (٥٨ قتيلًا)، كذلك استهدفت القوات الإسرائيلية المتمركزة في جنوب لبنان، إلى حد أن «تساهال» اضطر إلى دعم عناصره الذين لم يفترض بهم أساسًا إلا تقديم الدعم اللوجستي إلى الملحقين اللبنانيين بهم من جيش لبنان الجنوبي. وأخذت القوات الإسرائيلية تغرق شيئًا فشيئًا في فخ جيش الاحتلال الذي يتعرّض للإنهاك من رجال حرب عصابات مشاكسين يحظون بدعم من السكان.

(١٦) انظر الصورة ص (٤٨)

لم تتمكن اليونيفيل من تنفيذ انتدابها بالكامل عند دخول المدحلة الإسرائيلية عام ١٩٨٢، لكنّها حاولت مع ذلك الحد من النزاع وحماية السكان المحلّيين من أسوأ تأثيرات العنف. غير أنها لن تتمكن دومًا من ذلك، كما في نيسان/أبريل ١٩٩٦ عندما شنّ الإسرائيليون عملية «عناقيد الغضب» التي هدفت – آنذاك – إلى وضع حد لإطلاق حزب الله الكاتيوشا[١٧] على مدن الجليل. وردّت المدفعية الإسرائيلية في ١٨ نيسان/أبريل على قصف من حزب الله بالهواوين بقصف ثقيل على قرية قانا. استهدفت رشقتان محيط معسكر القبعات الزرق الفيدجيين، وقد لجأ إليه الكثيرون من قرويي المنطقة. سقطت ١٣ قذيفة، بينها ثمان مجهزة بحشوات مضادة للأشخاص، في داخل المعسكر وأربع أخرى في محيطه المباشر. وجاءت الحصيلة رهيبة: مئة وقتيلان بينهم عشرات الأطفال والعجزة والنساء.

تمكّن الفرنسيون والأميركيون من جمع الإسرائيليين واللبنانيين في مكان واحد، في حضور مبعوثين لحزب الله، من دون حصول محادثات مباشرة، وتوصلوا جميعهم في ٢٦ نيسان/أبريل إلى ترتيب يهدف إلى حماية المدنيين. فلعبة الخفّة الدبلوماسية هذه، المكتوبة وغير الموقّعة لتفادي الاعتراف رسميًّا بحزب الله، أعلنها في وقت واحد وزير الخارجية الفرنسية هيرفي دي شاريت ورئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في بيروت، ووزير الخارجية الأميركية وارن كريستوفر ورئيس الوزراء الإسرائيلي شمعون بيريز في القدس. وهي تنص في بندها الثاني على «عدم شروع إسرائيل ومن يتعاونون معها في إطلاق النيران [...] على المدنيين أو أهداف لبنانية». وفي بندها الثالث على «تعهّد الفريقين ألا يصبح المدنيون، في أي حال من الأحوال، هدفًا للهجمات وعدم

(١٧) اسم عام استخدمه الجيش السوفياتي في الأساس في الحرب العالمية الثانية وأطلقه على قاذفات الصواريخ المتعددة الفوهة.

استخدام المناطق المأهولة والمنشآت الصناعية نقاط انطلاق لأي هجوم». وأعاد هذا الاتفاق إعطاء المقاومة حق الأمر الواقع في مواصلة عملياتها ضد الأهداف العسكرية. وستجتمع مجموعة المراقبة المكلفة الإشراف على احترام بنود التعهّد في الناقورة، مقر قيادة اليونيفيل، كل مرّة ينتهك أي حادث هذا الاتفاق. وستتولى في شكل منهجي تحديد المسؤوليات ودعوة الأطراف إلى التعقّل. وسترأس هذه اللجنة المؤلفة من خمسة أعضاء (الولايات المتحدة وفرنسا وإسرائيل ولبنان وسورية) الولايات المتحدة وفرنسا بالتناوب، لمدد من خمسة أشهر لكل منها.

فترة ٢٠٠٠-٢٠٠٦: حصيلة أرباح المقاومة

في غضون الأعوام الـ٢٢ من السيطرة الإسرائيلية على بقعة من أرض جنوب لبنان بعرض نحو عشرة كيلومترات وطول مئة، لم تتوقف أعمال العداء قط بين القوات الإسرائيلية وعناصر جيش لبنان الجنوبي من جهة والمجموعات اللبنانية التي أعلنت المقاومة للاحتلال، وبخاصة حزب الله، من جهة أخرى.

أصبحت تكاليف هذا الوجود في لبنان أكبر بكثير على إسرائيل من الفوائد المرجوّة منه: إذ بات يسقط ما معدّله ٣٠ جنديًّا إسرائيليًّا قتيلاً، كل سنة احتلال، تضاف إليهم مشكلات السياسة الداخلية الملازمة للوضع. وأعلن رئيس الوزراء العمالي إيهود باراك في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠ نيته سحب الجيش الإسرائيلي من لبنان في سياق فصل الصيف. وهو فك ارتباط من جانب واحد بعدما توقّفت المفاوضات مع دمشق فجأة. ولكن، ومنذ ١٦ أيار/مايو، أي قبل وقت أبكر كثيرًا من المتوقع، بدأ جنود «تساهال» وعناصر جيش لبنان الجنوبي بإخلاء مواقعهم وسط تبادل لإطلاق النار. ومنذ الحادي والعشرين من أيار/مايو، بدأت عشرات العائلات اللبنانية، يرافقها عناصر مسلحون، بدخول

قراها مع الإخلاء الفجائي للمراكز الإسرائيلية ومواقع جيش لبنان الجنوبي. وليل ٢٢-٢٣ أيار/مايو، اجتازت آخر الشاحنات الإسرائيلية الحدود وانكفأت مئات عدّة من كوادر جيش لبنان الجنوبي وعائلاتهم إلى إسرائيل، فيما استسلم بضع عشرات آخرين للسلطات اللبنانية. لم يتطلّب الزوال التام لجيش لبنان الجنوبي إلا بضعة أيام. وفي الخامس والعشرين من أيار/مايو، أبلغت الحكومة الإسرائيلية الأمين العام للأمم المتحدة أن إسرائيل «أعادت نشر قواتها وفقًا للقرارين ٤٢٥ و٤٢٦».

حدّدت الأمم المتحدة، من ٢٤ أيار/مايو إلى ٧ حزيران/يونيو، وبمساعدة من اليونيفيل والاتفاق مع الأطراف، خطّاً على الأرض يسمح بتأكيد الانسحاب الإسرائيلي. ولا يُشكل هذا «الخط الأزرق» الذي تجسّد في بعض المناطق بضربة تلوين زرقاء على الأرض، في أي حال من الأحوال، حدودًا رسمية. وهو يستند في الأساس إلى تخطيط لخط هدنة ٢٣ آذار/مارس ١٩٤٩، إذ لا توجد في الواقع حدود يعترف بها الطرفان بالكامل بين لبنان وإسرائيل. وعلاوة على ذلك، فإن إسرائيل، بالنسبة إلى بيروت، لا تزال فلسطين. وعلى رغم بعض التحفظات، وبخاصة من جانب لبنان الذي دافع عن كل متر مربع من ترابه الوطني، لاحظت الحكومتان الإسرائيلية واللبنانية أن الأمم المتحدة تتحمل المسؤولية الكاملة عن رسم الخط وأكدتا أنهما ستحترمانه.

في ١٦ حزيران/يونيو، أبلغ الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان مجلس الأمن أن إسرائيل سحبت قواتها من لبنان بموجب القرار الرقم ٤٢٥ وأنجزت انسحابها «بما يتوافق مع الخط الأزرق؛» وأن قوات جيش لبنان الجنوبي حُلَّت وحُرِّر معتقلو سجن الخيام. وقد حُوّل هذا المركز العسكري القديم الذي شيدته فرنسا زمن انتدابها، سجنًا ذا شهرة مشؤومة للإسرائيليين. واستعادت الشرطة والدرك وعناصر قوى الأمن اللبنانية الإدارة المحلية للقرى، وشُرع في

إعادة بناء شبكات الاتصال والكهرباء الوطنية، والبنى التحتية للطرق، وأنظمة الصحة والضمان الاجتماعي. ونهاية آب/أغسطس، شارك سكان المنطقة التي سيطرت عليها إسرائيل سابقًا للمرة الأولى منذ العام ١٩٧٢ في انتخاب أعضاء البرلمان، مع انتصار كبير لمرشحي حزب الله وبعض أعضاء حركة أمل، حليفته – وخصمه في بعض الدوائر.

ولكن ما الذي قامت به اليونيفيل؟

حافظت اليونيفيل، من العام ١٩٧٨ وحتى العام ٢٠٠٠، أي منذ إنشائها وحتى الانسحاب الإسرائيلي، على الانتداب نفسه، فيما شهدت خلال عشرين عامًا ثلاثة اجتياحات (١٩٨٢، ١٩٩٣، ١٩٩٦)، فضلًا عن تدخلات عنيفة عدة لـ«تساهال». وقد عجزت عن وضع حد للاحتلال الإسرائيلي ناهيك بانتهاكات المجال الجوي اللبناني. واستخدمت وسائل متواضعة، لا تتناسب بالتأكيد مع هذه الأوضاع المفرطة والمتعاقبة، إضافة إلى عدم قدرتها على استخدام هذه الوسائل وفق ما تشاء. فقواعد اشتباكها لا تسمح لها باستخدام السلاح إلا للدفاع عن عناصرها ومنشآتها. ومن غير الوارد إذًا استخدامها لإرغام أي كان على احترام شروط القرار الرقم ٤٢٥.

الانتقاد سهل، غير أن الواقع أكثر قساوة. فقد طلبت الأمم المتحدة عام ١٩٧٨ من اليونيفيل إنجاز مهمّات ثلاث:

- تأكيد انسحاب القوات الإسرائيلية من جنوب لبنان،
- إعادة بسط السلام والأمن الدوليين،
- مساعدة الحكومة اللبنانية على ضمان إعادة بسط سلطتها الفعلية في المنطقة.

اقتصرت، عمليًا، إمكانات العمل الفعلي للقبعات الزرق ـ كما لهيئة مراقبة الهدنة من قبلها – على رادع يرتكز على خوف المتنازعين من الاضطرار إلى العمل تحت أنظار شهود مؤهلين. وأمكن بالتالي، من دون شك، تفادي تفجير أوسع. وبين الإسهامات الملموسة الأخرى لهذه القوة، عمليات نزع الألغام (العمل كثير والمتطوعون قلّة) إضافة إلى المساعدة الاجتماعية الثمينة جدًّا للسكان (العناية، التعليم، الهندسة المدنية، الخ.) الذين يجب ألا ننسى أنهم بين الأكثر فقرًا في لبنان. ودور اليونيفيل هو دور المراقب الذي يفرض على نفسه الحياد ولا يمتلك وسائل الإكراه والذي يبذل، مذذاك، نشاطًا إنسانيًّا مهمًّا.

أشار الأمين العام في كانون الثاني/يناير ٢٠٠١ إلى أن اليونيفيل «أنجزت اثنين من بنود انتدابها الأربعة: فقد أكّدت انسحاب القوات الإسرائيلية، وساعدت، على قدر إمكاناتها، السلطات اللبنانية في عودتها إلى القطاع الذي أخلته إسرائيل» لكنه لاحظ أن «الحكومة اللبنانية لم تتخذ مع ذلك الإجراء بنشر عناصرها حتى الخط الأزرق». وانتقد أيضًا، في قوّة، «انتهاكات الطيران الإسرائيلي (الطائرات النفاثة والهيليكوبتر والطائرات التي تطير من دون طيّار[18]) المجال الجوي اللبناني، وهي انتهاكات لا تزال تتم يوميًّا».

مزارع شبعا

أغلق آخر جندي إسرائيلي، في ٢٢ أيار/مايو ٢٠٠٠، بوابة فاطمة، تلك الفتحة التي أقيمت في السياج الفاصل إسرائيل عن لبنان، عند مستوى كفركلا والتي كانت تسمح لـ«تساهال» بالولوج إلى المنطقة المحتلّة. وبعد ذلك بأربعة

(١٨) طائرات من دون طيّار تقوم بتحليق مبرمج أو موجّه.

أيام، أكّد الأمين العام لحزب الله في خطاب النصر في بنت جبيل أن إسرائيل لم تنسحب بعد من كل الأراضي اللبنانية. وأعلن أن ليس أمام الإسرائيليين «من خيار سوى إخلاء مزارع شبعا وهو ما سنثبته في الأيام المقبلة». لقد أُعلن فورًا استمرار حزب الله في معركته، والاحتفاظ بسلاحه وتعزيزه، يبرّره في ذلك وجود «تساهال» في منطقة يطالب بها الحزب بصفتها لبنانية.

وتشكّل منطقة النزاع هذه، التي تراوح بين ٤٧ كلم مربع و٢٠٠، بحسب مختلف التقديرات، منطقة لبنانية بالنسبة إلى البعض، ومنطقة تابعة للجولان السوري الذي تحتله إسرائيل بالنسبة إلى البعض الآخر. وقدّمت الحكومة اللبنانية وثائق لتثبت أن هذا القطاع أرض لبنانية: سندات ملكية يملكها سكّان شبعا القرية الجبلية الصغيرة عند سفح جبل حرمون، هذا الجبل الموجود بالتأكيد في لبنان. ومن هنا الاسم الذي أُطلق على هذه المزارع التي تبعد عن القرية بضعة كيلومترات. وهذه السندات مُسجّلة في الأساس في بلدية مرجعيون، المدينة اللبنانية الرئيسة في المنطقة. إلا أن خط الحدود الموجود على الخرائط التي تعود إلى حقبة الانتداب الفرنسي، يضع المزارع ضمن الأراضي السورية. ولم يُصحَّح مذذاك.

قام اختصاصيو الأمم المتحدة برسم الخط الأزرق، على خرائط تعود إلى سنة ١٩٢٠. وشرع واضعوها، اختصاصيو علم الهندسة الفرنسيون، في تلك المدة على مشروع لرسم الحدود بين لبنان وسوريا معتمدين في ذلك الطريقة الأوروبية المعمول بها، وهي نفسها تأثرت بتقرير العسكريين الموجودين على الأرض الذين يرون أن الخط الطبيعي الذي يفصل بين الأقاليم هو في الغالب خط المياه الفاصل وخط قمم الجبال التي تسمح، أسهل من عمق الوديان، بـ«الرؤية» مع الاستمرار في الاحتجاب عن الأنظار. أما الحدود التي رسمها العثمانيون الذين يفضّل أتباعهم – المزارعون ومربو الماشية – مبدأ الوصول

العادل إلى المياه، فتبعت في المقابل، وفي معظم الأحيان، خطوط المياه التي تفصل هي الأخرى طبيعيًّا بين السكان. وهكذا، فإن الخرائط الغربية تضع الحدود عند قمم الجبال فيما يطالب الملاكون المحليون بأن تكون في عمق محور الوادي. وفي ما يتعلّق بشبعا فإن خط القمم يفصل بين القرية والمزارع!

وأكثر ما اشتهرت به هذه المراعي والبساتين، التي استغلها اللبنانيون طويلًا وهم يدعون ملكيتها، هو كونها منطقة للتهريب بين لبنان وسوريا (الحبوب والخضر والمخدرات من جهة؛ والمحروقات من جهة أخرى وكلّه يتم على ظهر الحمير). حاول السوريون مكافحة هذه الممارسات فأنشأوا منذ العام ١٩٦٠ بضعة مخافر لقواتهم الأمنية التي وجدت نفسها في مواجهة الجيش الإسرائيلي خلال حرب يوم الغفران. وعقب اتفاق لفك الاشتباك، ضمّت قوات المراقبة التابعة للأمم المتحدة هذه الأرض إلى المناطق التي ينبغي لها مراقبتها. ولم تطأ أقدام اليونيفيل، عند إنشائها عام ١٩٧٨، هذا القطاع الذي كُلّفت به قوات مراقبة فك الاشتباك، وبقيت محصورة بلبنان.

سبق أن رأينا أن الأمم المتحدة لم تُكلّف رسم الحدود الدولية للبنان، بل رسم الخط الأزرق، مستندة إلى الخرائط الموجودة من أجل تحديد خط الانسحاب الإسرائيلي. ولأن مزارع شبعا تابعةرسميًّا لسورية، عُدَّت من اختصاص قوة مراقبة فكّ الاشتباك، أي أنها مرتبطة بقراري مجلس الأمن الرقم ٢٤٢ الذي صدر عام ١٩٦٧ مع نهاية حرب الأيام الستة، والرقم ٣٥٠ الذي أنشأ قوة مراقبة فك الاشتباك، لا بالقرار الرقم ٤٢٥ المتعلّق باليونيفيل المنتشرة في لبنان.

حزب الله لا يستكين

واصل مجلس الأمن، من العام ٢٠٠٠ إلى العام ٢٠٠٤، التمديد كل ستة أشهر لانتداب اليونيفيل، معيدًا، كل مرة، تقويم عدد العناصر المتناقص. وقد حاولت الأمم المتحدة الحفاظ على الهدوء على طول هذا الخط الأزرق، رغم تبادل التصريحات العدائية من طرف هذا الخط وذاك. وهي تصريحات يمكنها أن تؤدي إلى نكسة، ولا تسلم منها أحيانًا أيضًا دوريات اليونيفيل. والانتهاكات من الجانب اللبناني صغيرة يقوم بها في الغالب رعاة لا يميلون كثيرًا إلى تعديل عاداتهم في الرعي. والخط لا يكاد يكون ملموسًا على الأرض، فيدّعي المذنبون الجهل. وكثيرًا ما تترك بيروت الأمور على مجراها، سواء للاعتراض على الخط من دون الجهر بذلك، أو أيضًا لإزعاج جارتها.

غير أن الأحداث الخطيرة لم تتأخر في الظهور. فيوم السبت ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٠ أسر كوماندوس حزب الله ثلاثة جنود إسرائيليين هم: أبراهام بنيامين وعمر سعاد وآدي أفيتان على مقربة من مزارع شبعا. وأعلن حزب الله في ١٦ تشرين الأول/أكتوبر «أسر عقيد إسرائيلي في لبنان». وتعلّق الأمر بالحنان تينانبوم، العقيد في الاحتياط ورجل الأعمال، الذي خُطف في الواقع في دبي وجُلب من ثمّ إلى لبنان. وأسفرت مفاوضات طويلة في ٢٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٤ عن تبادل جثامين ٥٩ مناضلًا و٣٠ أسيرًا لبنانيًّا و٤٠٠ أسير فلسطيني، إضافة إلى خرائط تحدّد أمكنة الألغام الإسرائيلية في جنوب لبنان، في مقابل إعادة رفات الجنود الإسرائيليين الثلاثة وإطلاق الحنان تينانبوم. واحتفظ حزب الله حتى النهاية بسرّ مصير الجنود الثلاثة لجهة موتهم أو بقائهم أحياء. وقد عزّز اختطافهم، الذي وقع تحديدًا في منطقة مزارع شبعا التي يحتلها الجيش الإسرائيلي، من هيبة حزب الله. وأثبت التبادل ربحيّة مثل هذه الأفعال. وهو ليس الأول من نوعه ولن يكون الأخير. فخلال ثلاثين عامًا،

أطلقت إسرائيل آلافًا من السجناء في مقابل ١٩ إسرائيليًّا واستعادة جثامين ثمانية آخرين. من هنا سهولة فهم إغراء حزب الله بإعادة تنفيذ هذا النوع من العمليات: من دون نجاح عام ٢٠٠٥ في الغجر، ومن ثم، مع العواقب المعروفة، في ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦ على مقربة من عيتا الشعب.

القرار ١٥٥٩ ينبئ بأزمة جديدة

استفاد حزب الله إذًا من مرحلة ما بعد الانسحاب الإسرائيلي وعزّز سيطرته على جنوب لبنان. وأنشأ، بالتوازي مع تنظيمه العسكري، شبكة فاعلة من الجمعيات التي حلت بديلًا من الدولة اللبنانية التي طال انتظارها بالفعل في جنوب لبنان المحرّر هذا. فمنذ مدة طويلة، وهذه الجمعيات تقدم مساعدة متعدّدة الشكل إلى السكان، وتعطي الأولوية بالتأكيد للمناطق ذات الكثافة الشيعية الكبيرة: الضاحية الجنوبية لبيروت وجنوب لبنان والبقاع. وهي تعوّض غياب الدولة، وتزيل النفايات من جنوب بيروت وتبني المستوصفات بل وحتى المستشفيات التي تليق بهذا الاسم، والمدارس، والمياتم، ومؤسسات لعائلات المقاتلين الذين أصبحوا شهداء. وها إن الجهد يُبذل الآن في هذه المنطقة التي انسحبت منها إسرائيل ولم تشأ السلطات اللبنانية نشر جيشها فيها. فأيدي حزب الله مطلقة تمامًا هنا ويمكنه أن يرسّخ شعبيته الثمينة ويوطّد سمعته بأنه «لا يسرق الدولة» ليثرى. وأثبت بالتالي نفسه، بصفة الضامن الوحيد للمساحة الممتدة بين الليطاني والخط الأزرق، على أنه الظهير الذي لا غنى عنه ولا يمكن تجاوزه والمُعترف به جدًّا من القوى المسلحة اللبنانية في الصراع مع العدو الإسرائيلي. وكثيرًا ما أزعج، بصفة سيّد المكان الجديد، حركة اليونيفيل. سوى أنه ليس المالك الحصري للمضايقات: فالقوّة الدولية عرضة دومًا للعداوة المستمرّة من جانب إسرائيل التي لن تعارض مع ذلك أبدًا تجديد انتدابها.

ويجب التأكيد أن قوة الأمم المتحدة هذه تقدّم ميزتين كبيرتين إلى لاعبي المنطقة. فهي أولًا قناة الاتصال الوحيدة بين الأطراف لأن إسرائيل ولبنان لا يزالان رسميًّا في حال حرب، وبالتالي لا يتحادثان. وهي تقدّم إلى اللبنانيين بالتالي مصلحة اقتصادية كبيرة لا يمكن نكرانها. فكما أنها تقدم المساعدة الإنسانية والاجتماعية إلى سكان جنوب لبنان، تساعد في الوقت نفسه مالية الدولة التي تقتصد ما تقدّمه المنظمة الدولية. وفي الإمكان، بلا شك، أن نضيف إلى هذه المظاهر الإيجابية التقارير المتوازنة للأمين العام التي تؤكّد حفظ الحد الأدنى من الاجماع بين الأطراف.

أما التطور الجديد في الموقف في المنطقة فسينتج عن السياسة الداخلية اللبنانية. فها إن ولاية رئيس الجمهورية اللبنانية إميل لحود تشارف الانتهاء. وتوجّبت عليه، في شكل طبيعي، مغادرة قصر بعبدا في ٢٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٤. وينصّ الدستور بالفعل على عدم إمكان إعادة انتخاب رئيس الجمهورية إلا بعد مرور ست سنوات على انتهاء ولايته. ولكن يمكن لمثل هذه المدة أن تتسبب بالضرر الكبير على وضع اليد السورية، وهو ما ستعمل دمشق على تفاديه! فتوجّه رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في ٢٦ آب/أغسطس إلى دمشق (يقول محيطه إنه «استدعي إليها!») واستمع إلى الرئيس السوري بشّار الأسد يؤكّد، في حزم، أنه ينظر في تمديد ولاية الرئيس لحود ثلاث سنوات. ويقتضي ذلك أن يشرع البرلمان اللبناني في تعديل المادة المتعلقة بهذا الأمر في الدستور، «بصفة استثنائية ولمرّة واحدة» على غرار ما حدث سابقًا عام ١٩٩٥، بطلب من الرئيس السوري حافظ الأسد لتمديد ولاية الياس الهراوي ثلاث سنوات. أعلنت الحكومة اللبنانية في ٢٨ آب/أغسطس المشروع، وتبعت ذلك احتجاجات قوية من الجزء المناهض لسورية بين الزعماء اللبنانيين. وفي الثاني من أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤، صوّت مجلس الأمن الدولي – بغالبية الحدّ الأدنى المطلوبة (تسعة أصوات من أصل ١٥) – على القرار ١٥٥٩ الذي يوجب

الاحترام الكامل للسيادة اللبنانية، ويفرض على القوات الأجنبية (السورية في شكل واضح) مغادرة لبنان، ويطالب بنزع سلاح الميليشيات (ضمنًا حزب اللّه والجماعات المسلحة الفلسطينية). ورغب أيضًا في أن تبسط الحكومة اللبنانية سيطرتها على أراضيها كاملة (بما في ذلك «حزب اللّه لاند»!) وأيّد إجراء انتخابات رئاسية حرّة ونزيهة.

ساندت باريس، في قوة، هذا القرار، وهو نتاج فرانكو – أميركي مشترك، في سعي منها إلى كسب التغاضي عن موقفها المعارض، في شدّة، التدخل الأميركي في العراق. وقد فاجأت بهذا عواصم الشرق الأوسط لأنه يؤشّر بالفعل على تحوّل جذري وغير متوقّع كثيرًا في السياسة الخارجية الفرنسية. ولم ينتظر أحد أن يتوافق زعماؤها مع واشنطن بعدما باعدت بينهما العراق في شكل ملحوظ، وهم الذين أظهروا حتى الآن موقفًا متسامحًا بالأحرى حيال سورية، وبخاصة حيال رئيسها الشاب بشار الأسد. وقامت قيامة الحكومة اللبنانية، بلسان وزير خارجيتها جان عبيد، على هذا القرار الذي «يهدد بتعريض لبنان لأخطار جدّية». وسجّل اللبنانيون الموالون لسورية «التناقضات الخطيرة لهذا القرار الذي يفرض في الوقت نفسه نزع سلاح حزب اللّه والمخيمات الفلسطينية إضافة إلى انسحاب القوات السورية، فيما هذه الأخيرة هي الوحيدة القادرة، في المطلق، على الشروع في عمليات نزع السلاح هذه!». والحقيقة هي أن الفرنسيين والأميركيين اشتركوا في صياغة النص، لكنهم يسعون إلى أهداف مختلفة: فالرئيس الفرنسي جاك شيراك، وهو الصديق الشخصي لرئيس الوزراء اللبناني الذي أخذت علاقاته بدمشق تتوتّر أكثر فأكثر، تعب من موقف الرئيس بشار الأسد حيال لبنان وأيضًا حيال باريس التي تتجاهل إشارات انفتاحها وبخاصة في المجال الاقتصادي. أما واشنطن، وقد أصبحت منخرطة جدًّا في حرب العراق، فتنوي، من جهتها، متابعة مشروعها «الشرق الأوسط الجديد» الذي يتضمن تطويع سورية. واستنتج الكثيرون من المعلّقين أن الفرنسيين

أرادوا، وقد خافوا من أن يُهمَّشوا في المنطقة، إعادة الحرارة إلى علاقاتهم مع الأميركيين. أما رفيق الحريري فيتردّد في بيروت أنه تورّط في صياغة مشروع القرار «موقّعًا بذلك الحكم عليه بالإعدام».

وتسارعت الأحداث مذذاك: ففي الثالث من أيلول/سبتمبر، غداة إصدار القرار ١٥٥٩، أقرّ مجلس النواب اللبناني – بـ٩٦ صوتًا من أصل ١٢٨، بينها أصوات كتلة الحريري – التعديل الدستوري الذي يسمح بالتجديد ثلاث سنوات للرئيس إميل لحود. بعد ذلك بثلاثة أيام، استقال ثلاثة وزراء دروز وهبّت ريح الاحتجاجات المناهضة للسوريين في بيروت. وفي ٢١ أيلول/سبتمبر طرح الزعيم والنائب الدرزي وليد جنبلاط معروضًا يطعن فيه بتمديد ولاية الرئيس لحود. وفي الأول من تشرين الأول/أكتوبر أصيب النائب الدرزي وزير الاقتصاد والتجارة المستقيل مروان حمادة، الحليف الرئيس لجنبلاط، بجروح خطرة في اعتداء بسيارة ملغومة قُتل فيه سائقه. وفي ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر، قدّم رئيس الوزراء رفيق الحريري استقالته – المعلنة منذ التاسع من أيلول/سبتمبر – «إذ إن سوء تفاهمه مع الرئيس لحود يهدد بإغراق البلاد في الجمود». بعد ذلك بأربعة أيام كُلّف النائب الموالي لسورية عمر كرامي تشكيل الحكومة الجديدة. وانتهت السنة في بيروت في مناخ من التوتّر بعدما أعلنت المعارضة، بمختلف مشاربها، في ١٣ كانون الأول/ديسمبر، برنامجًا موحّدًا يندّد بالوصاية السورية ويطالب باستقالة الحكومة، في سابقة هي الأولى من نوعها منذ العام ١٩٧٥. ومع انضمام الدروز إلى رفيق الحريري والدعم الكبير من الطائفة السنية له، تغيّرت طبيعة المعارضة المناهضة لسورية التي قامت بها حتى الآن تنظيمات مسيحية في الأساس لتصبح خارج الإطار الطائفي.

الاغتيال في عين المريسة

قُتل رفيق الحريري بعيد ظهر الرابع عشر من شباط/فبراير ٢٠٠٥ في انفجار ضخم. أدى الهجوم إلى مقتل ٢٢ شخصًا وإلى سقوط نحو مئة جريح. أوفد مجلس الأمن الدولي بعثة تحقيق برئاسة بيتر فيتزجيرالد، المفوّض في الشرطة الإيرلندية، وصلت إلى بيروت في ٢٥ شباط/فبراير وختمت تحقيقها في ١٦ آذار/مارس ٢٠٠٥، فكشفت فيه عن قصور خطير في حماية مكان الجريمة وعن تقصير جدّي في مجريات التحقيق الذي أجراه المسؤولون اللبنانيون بعد الانفجار. واستند القرار ١٥٩٥، الذي تم تبنّيه بالإجماع في ٧ نيسان/أبريل ووافقت عليه الرئاسة اللبنانية، إلى هذا التقرير ليُنشئ لجنة تحقيق دولية مستقلّة. وأشير بإصبع الاتهام إلى سورية واشتُبه بأفضل مؤيديها اللبنانيين. وتضاعفت، غداة المأساة، التظاهرات ضد وجود القوات السورية ونفوذها في لبنان، إلى حدّ أن رئيس الحكومة الجديد قدّم استقالته ليعيد الرئيس لحود تكليفه. وعرض عمر كرامي على المعارضة تشكيل حكومة وحدة وطنية، لكنها رفضت. وفي الثامن من آذار/مارس ٢٠٠٥، وبدعوة من شيعة أمل وحزب الله، تظاهر أكثر من ٤٠٠ ألف شخص في ساحة رياض الصلح في قلب بيروت تأييدًا لسورية، سيشكلون بالتالي حركة الثامن من آذار. وبعد ذلك بأسبوع تلاقت جماهير هائلة، متعددة الطوائف، مناوئة للوصاية السورية، في مكان آخر قريب هو ساحة الشهداء. وسيصبح تاريخ ١٤ آذار اسمًا للحركة المناهضة لسورية. وعندذاك، وتحت الضغط اللبناني والدولي معًا، أعلنت سورية أنها ستسحب قواتها من لبنان «تطبيقًا للقرار ١٥٥٩». ونهاية آذار/مارس، غادر أكثر من عشرة آلاف جندي سوري الأراضي اللبنانية. وتبعهم الآخرون سريعًا وانتهى انسحاب هذا الجيش في ٢٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥، بعدما قضى في لبنان تسعة وعشرين عامًا، يومًا بيوم تقريبًا.

أجريت الانتخابات التشريعية من ٢٩ أيار/مايو إلى ١٩ حزيران/يونيو، وفازت فيها المعارضة المناوئة لسورية، ولو ان حزب الله كسب مقاعد فيها. وفي ١٩ تموز/يوليو شكّل فؤاد السنيورة، الذي سبق أن تولى وزارة المال وهو من أقرب معاوني رفيق الحريري، حكومة وحدة وطنية ضمّت حزب الله للمرة الأولى في تاريخه. بيد أن الوضع بقي مشدودًا، وبخاصة في بيروت، حيث حصدت موجة من الاغتيالات شخصيات معروفة بمعارضتها للسياسة السورية في لبنان. وتعلّق الأمر، في معظم الحالات، بعمليات اغتيال بسيارات مفخخة: قُتل سمير قصير، الباحث والصحافي المستقل، في ٢ حزيران/يونيو. وقُتل جورج حاوي، الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني، في ٢١ حزيران/ يونيو. وفي ١٢ تموز/يوليو، أصيب وزير الدفاع الياس المر إصابة خطرة. وفي ٢٥ أيلول/سبتمبر أصيبت مي شدياق، الصحافية النجمة في تلفزيون أل.بي. سي.، بجروح خطيرة في انفجار قنبلة وُضعت تحت سيارتها. وقُتل النائب والصحافي المسيحي جبران تويني في ١٢ أيلول/سبتمبر مع اثنين من مرافقيه.

أما في الجنوب فشكّل ترسّخ حزب الله واحدًا من آثار الزوبعة الأمنية والسياسية الحقيقية التي تهزّ لبنان. فقد بات يمتلك قاعدة سياسية معترفًا بها بعد فوز مرشحيه في الانتخابات التشريعية، بداية الصيف، وحصوله، من ثم وللمرة الأولى، على حقائب وزارية في الحكومة الجديدة.

لم تكن لهذه الأحداث الأخيرة تأثيرات مباشرة في الخط الأزرق وفي وجود اليونيفيل، إلى حدّ أن الأمين العام «استنتج» في آب/أغسطس ٢٠٠٥ «أن الوضع في لبنان وفي المنطقة لا يُبرّر التعديل في انتداب اليونيفيل أو أي إعادة تشكيل عند هذا الحد». وأوصى مجلس الأمن بتمديد انتداب هذه القوة حتى ٣١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ من دون تعديل في أعدادها أو تشكيلاتها. وكرّر، من دون جدوى، مطالبة لبنان بنشر جيشه في المنطقة الموجودة بين الليطاني والخط الأزرق.

بيد أن اليونيفيل ليست وحدها في لبنان، ومن المفيد هنا التذكير بتعدّد مشاركات الأمم المتحدة الموجودة في البلاد بأكثر مما يمكن المرء التفكير فيه. فهي تنشر فيه ممثلين عن مختلف الهيئات المكلّفة إدارة البرامج والصناديق – مثل برنامج التنمية التابع للأمم المتحدة، والأونروا[١٩] للاجئين الفلسطينيين، واليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) أو اليونيسيف (صندوق الأمم المتحدة للطفولة). أما اليونيفيل، بعثة حفظ السلام هذه، فموضوعة تحت قيادة ضابط عام يتولّى، في الوقت نفسه، رئاسة البعثة وقيادة القوة ويرفع تقاريره إلى الأمين العام. فهو ممثله ويتولّى وظائف دبلوماسية بأهمية دوره العسكري المحض إن لم يكن أكثر. غير أن الأمين العام قرر، بعد تبني القرار ١٥٥٩ وبهدف متابعة تطبيقه، تعيين «ممثل خاص» هو السيّد تيري رود لارسن، الدبلوماسي النروجي الذي تولّى من العام ١٩٩٩ وحتى العام ٢٠٠٤ مهمة المنسق الخاص للأمم المتحدة المكلف عملية السلام في الشرق الأوسط. وتقضي بالطبع مهمات المتابعة المنوطة به بمراقبة الانسحاب السوري. ومن المؤكّد أن وجود هذا العدد الكبير من اللاعبين المختلفين في بلد واحد يتطلّب تنسيق أعمالهم على المستوى السياسي. وهو ما يتولاه، من بيروت، الممثل الشخصي للأمين العام لجنوب لبنان السيد غير بيدرسون (النروج).

وفي الإمكان تصوير الوضع، نهاية ٢٠٠٥، بالقول إن تبني القرار الرقم ١٥٥٩ خلّف هوة عميقة بين مؤيدي سوريا اللبنانيين والمناوئين لها. وقد أدى، في الحقيقة، إلى الانسحاب الفعلي للقوات السورية من لبنان، وعلى ما يبدو أيضًا لأجهزتها الأمنية، وبالتالي إلى تغيير في الغالبية البرلمانية. بيد أن القرار يرتبط، بطريقة أو أخرى، باغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري. ثم أن تطبيقه

---

(١٩) وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين وتشغيلهم في الشرق الأدنى.

يبقى بمثابة ضربة حظ خصوصًا أن القوة الوحيدة – الجيش السوري – القادرة على المساعدة في نزع سلاح حزب الله، وبالتالي تحقيق هذا النزع، لم تعد موجودة. أضف إلى ذلك أن الدولة اللبنانية تواصل الإدارة الصعبة للمساكنة البهلوانية بين رئيس جمهورية يتعرّض أكثر فأكثر للخصومة وغالبية برلمانية مناوئة له، ولكن لا يسعها أن تحكم إلا بالتعاون مع أخصامها. وفي جنوب لبنان المُهمل من مؤسسات الدولة العاجزة، بسط حزب الله حجمه السياسي والاجتماعي المحلي، وعزّز جناحه العسكري وتموضع بصفته حامي البلاد الوحيد في مواجهة إسرائيل. وهو، في خلاصة القول، نصّب نفسه أمرًا واقعًا رئيسًا للجبهة المناوئة للغرب، وسيّدًا بلا منازع على جنوب العاصمة والبلاد. وباتت أهدافه السياسية، أكثر من أي وقت مضى، إقليمية ووطنية معًا.

وفي هذا السياق قررت قيادته شن عملية ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦، ولكن هل تخيّلت العواقب؟

القسم الثاني

الحرب



٢٦ تموز/يوليو – ما تبقى من قاعدة دوريات الخيام.

الفصل الثالث

لا يمكن لطائرة أن تنزع علمًا

١٣ تموز/يوليو – الأولوية للبعد الثالث

توسّعت الضربات الجويّة على الفور لتشمل القسم الأكبر من لبنان: استهدفت مواقع حزب الله القريبة من الخط الأزرق، ومواقع غيرها حُددَت في العمق، ولكن أيضًا أهداف ظرفية مثل المواقع التي اختارها حزب الله لإطلاق الصواريخ. وتعرّضت البنى التحتية كذلك للضرب، وبخاصة الجسور ومدارج مطار بيروت الدولي الذي أقفل نهائيًّا طوال مدة النزاع. وبدأ كذلك العمل بحصار بحري مع انتشار البحرية الإسرائيلية المتيقظة قبالة السواحل اللبنانية. واستهدفت عمليّات قصف صاروخية أكثر تحديدًا منازل يُعرف، منذ وقت طويل، أنها تؤوي مسؤولين في حزب الله أو حتى مؤيدين أقوياء له. ولم يُوفّر القصف كل ما من شأنه تسهيل تنقّل المقاتلين بالآليات، وبخاصة محطات الوقود. وردّ حزب الله من جانبه برشقات كثيرة من القذائف والصواريخ. ولم يعد يكتفي بمعالجة الأهداف العسكرية، على غرار ما فعل في حوادث سابقة، بل استهدف أيضًا التجمعات السكنية وغيرها من الأهداف المدنية. وتلقّت نهاريا، الواقعة على بعد عشرة كيلومترات جنوب معبر «روش هانيكرا» أولى قذائفها، وكذلك «زفّات» حيث مقر القيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي. الرسالة واضحة: إذا أرادت إسرائيل المواجهة، فسوف تكون مواجهة شاملة. وأعلن الإسرائيليون أنهم من الآن فصاعدًا سيطلقون النار على كل من يحاول الاقتراب من الخط الأزرق من جهة لبنان.

توالت الضربات الجوية الإسرائيلية نهارًا وليلًا: قنابل وصواريخ تُطلق من الطائرات، وصواريخ فحسب من المروحيات. ولم تقف المدفعية مكتوفة، وهي التي يمكنها أن تبلغ مجمل منطقة عمليات اليونيفيل. وتستحيل معرفة أي جزء من القطاع سيصبح الهدف التالي، أو تحديد هل ثمة مراكز معينة أكثر تعرّضًا من غيرها، وهل من الحكمة خفض عدد الموجودين في مراكز معيّنة ونقلهم إلى أخرى أقل تعرّضًا من حيث المبدأ؟ ونحن جميعنا بالطبع في حماية علم الأمم المتحدة. ولكن يجب مع ذلك أن يحظى مثل هذا الميثاق بالاحترام. وسنرى سريعًا أن الأمور ليست على هذا الشكل بغض النظر عن الطرف صاحب العلاقة.

اكتفت الحكومة اللبنانية، العاجزة تمامًا، بالتأكيد في بيان رسمي مسؤولية مجلس الوزراء عن حماية المدنيين وضمان أمنهم. وأعلنت أيضًا احترامها للخط الأزرق وقرارات الأمم المتحدة. ووجهت، في النهاية، نداء إلى مجلس الأمن لوقف العدوان الإسرائيلي وفرض وقف فوري لإطلاق النار ورفع الحصار عن البلاد.

١٤ تموز/يوليو – اللاجئون الأول

شهدنا، في مواجهة مثل هذا الهيجان، أوّل تحركات مدنية كبيرة صوب الشمال. وسرعان ما تلاشى أي أمل بعودة الهدوء مع تصريح رئيس وزراء إسرائيل إيهود أولمرت الذي اشترط لوقف النار: إطلاق الجنديين المخطوفين، ووقف إطلاق الصواريخ، وتطبيق القرار ١٥٥٩ الذي يدعو في شكل خاص إلى نزع سلاح حزب الله. فرد الأمين العام للحزب بإعلان «الحرب المفتوحة». وشرعت عائلات بأكملها في مغادرة المنطقة الواقعة بين الخط الأزرق والليطاني للالتحاق برًّا بالأهل أو الأصدقاء في منطقة بيروت أو في الجبل.

ولا يزال من السهل في الوقت الحاضر، على رغم الجسور المقطوعة، الوصول إلى هاتين المنطقتين الواقعتين شمالاً. ولكن لن يمضي وقت طويل حتى يتعذّر الأمر ولن يكفّ، مع ذلك، دفق اللاجئين عن التضخّم. وإمكانات اليونيفيل محدودة على رغم أن من واجبها مساعدة هؤلاء السكان. فالقوة لا تمتلك لاستهلاكها الخاص سوى ما يكفيها لمدة ١٥ يومًا من المؤن والماء والوقود. ولم يُحتسب تقديم مساعدة إلى المدنيين إذ إن القليل الذي سنعطيه سيؤخذ حتمًا مما هو مخصص لنا. وقد بذل الإسرائيليون قصاراهم لتدمير البنى التحتية للمواصلات لعزل جنوب لبنان كليًّا، ولن نتمكن من إعادة تزوّد المؤن. وبات علينا أن نصمد أطول مدة ممكنة ونساعد في الوقت نفسه السكان بأفضل ما يمكننا تقديمه إليهم.

وهذه، ويا للأسف، ليست المرّة الأولى تواجه اليونيفيل مشكلات اللاجئين. ومجزرة قانا عام ١٩٩٦ لا تزال بالتأكيد ماثلة في أذهاننا، ولا يمكننا كليًّا استبعاد ردّ فعل إسرائيلي مماثل في الأيام الآتية، في حين لا تتوافر لنا وسائل استضافة اللاجئين في شكل آمن تمامًا. وكثيرًا ما تبيّن أن الحماية التي يقدّمها العلم الأزرق ليست إلا وهمًا، فيما لا يمكن لملاجئ المواقع أن تؤوي إلا عناصر المراكز ليس إلّا. وسنضطر بالتالي إلى تجميع اللاجئين، إما في العراء وإما في غرف، جدرانها وأسقفها من الهشاشة بمكان فلا تحميهم من القذائف. وهكذا وجد جندي غاني في المركز ١-٢١ قذيفة إسرائيلية من عيار ١٥٥ ملم حطّت، في دقّة، على سريره بعدما اخترقت جدار المهجع من دون أن تنفجر! ويمكن، في سهولة، تصوّر المجزرة التي كان يمكن أن تقع لو أن الذخيرة انفجرت وسط المدنيين المتجمّعين في هذا المعسكر. وفُرض علينا بالتالي اتخاذ القرار بإقفال أبواب مراكزنا أمام الجميع ما عدا الجرحى طبعًا. وسيتطلّب الأمر الكثير من حسن التصرّف لنشرح لمن يقرع بابنا لماذا من الأفضل له الاحتماء في قبو المنزل في انتظار الوقت المناسب لمغادرة

المنطقة. وسنسعى دومًا إلى التعاون مع السلطات والأجهزة اللبنانية، إلا أنها شبه غائبة عن المنطقة ولا تمتلك في الغالب إلا وسائل تافهة. وبقي لدينا، في الحالات القصوى، إمكان إنشاء «ملاذات آمنة» أي مناطق معروفة من الجميع محدّدة، في وضوح، بأعلام زرق، وموضوعة تحت حماية الأمم المتحدة. وشرعنا في وضع لوائح بهذه الأماكن، ولكن يجب مرّة أخرى الاعتماد على حسن نية الأطراف المتحاربين واحترامهم الاتفاقات الدولية، ليصبح الأفراد الذين نستقبلهم في مأمن. ولا تمتلك اليونيفيل أسلحة ثقيلة للرد على الاعتداء وفرض احترام أماكن اللجوء هذه.

وسنبذل، في ظل عجزنا عن حماية السكان المحليين في المكان، كل ما في وسعنا لتسهيل حركتهم. وقد واكبنا قوافل آليات مُحمّلة بأكثر من طاقتها بالركّاب المنهكين وأنظارهم حينًا مُحطّمة، وأحيانًا تحدّق إلى الفضاءات التي باتت معادية. وقد أثقلوا أنفسهم بسقط متاع مؤلف من بعض الممتلكات الزهيدة ولكن القيّمة جدًّا في نظرهم: لأنها الشاهد الوحيد على منزلهم وأرضهم وعالمهم. وتتم هذه التنقلات وسط مخاطر كبيرة جدًّا. وسرعان ما ستترك تعاطفنا المجال لانشغالنا بضمان أمنهم بأفضل ما يمكن، إذ في مقدور القوافل أن تصبح، في أي وقت، هدفًا للطيران أو للمدفعية الإسرائيليين، وهو ما لن يتأخّر في الحدوث. وحاولنا عندذاك التفاوض مع الطرفين، «تساهال» وحزب الله، في شأن المراحل الزمنية التي يجب خلالها عدم حدوث أي عمل عسكري في قطاع معيّن. وهي آلية لن تعمل إلا بين بين. وبات يتم تحضير القوافل التي نواكبها والتعريف عنها، في وضوح، وتحديد خط سيرها وتعيين المواعيد. ولكن توجّبت مواجهة ما لا يمكن توقّعه مثل أولئك العناصر المسلحين، الذين لم يتلقّوا ربما التعليمات من رئيسهم، والذين يفتشون عن التغطية على مقربة من القافلة لإطلاق صواريخهم على إسرائيل. ولا يتأخر الردّ، ويجد المدنيون أنفسهم، وقد أُصيبوا بالذعر، وسط القصف، فيتسمّر بعضهم في أرضه في

شكل خطر، فيما يفتّش الآخرون عن ملجأ أو يسعون إلى الخروج في أسرع ما يمكن من المنطقة المعرّضة للقصف.

كذلك شكّلت هذه الهجرة صوب الشمال رهانًا سياسيًّا ترك السلطات اللبنانية في حيرة من أمرها حيال القرار الواجب اتخاذه. فقد طلبت منّا وزارة الداخلية، عبر الهاتف، تسهيل إخلاء هذه القرية أو تلك، فيما أبلغنا رئيس الحكومة فؤاد السنيورة أنه يعارض ذلك صراحة. أما ممثلو الطائفة الشيعية، أمل وحزب الله، فلا يريدون سماع شيء عن مثل تلك العمليات ويفضلون بقاء أبناء طائفتهم في أمكنتهم، أشبه بالرهائن، لأن وجودهم يصعّب العمليات الإسرائيلية لأنه يزيد من مخاطر الأضرار الجانبية المُضرّة دومًا إعلاميًّا. وهم يريدون أيضًا البرهان أن شعب جنوب لبنان يساند قادته ببقائه في أرضه. ولا يريدون أن يبدو إطلاقهم الصواريخ وما يستجلبه ذلك من ردّ، كأنه السبب في إفراغ منطقة المواجهة من سكانها، مسهمًا في إحداث فراغ يشكّل أحد الأهداف التي يبحث العدو عن تحقيقها. وكنت في الأيام الأولى للأزمة هذه مصرًّا على حيازة تأكيد خطّي من وزير الداخلية أحمد فتفت لكل طلب إخلاء قرية. ولمعرفتي بطريقة التفكير الملتوية غالبًا للصحافة المحلّية في هذا الجانب وذاك من الخط الأزرق، وجدت أن من الحكمة تغطية أنفسنا سياسيًّا. فمن دون هذه الاحتياطات، سيسهل بالتالي أكثر اتهامنا بالإسهام في إفراغ جنوب البلاد لمصلحة إسرائيل. غير أننا، وبعد ازدياد الوضع سوءًا، تناسينا هذا الإجراء الاحترازي في مواجهة الظروف الطارئة.

وسرعان ما وجد حذري تبريرًا له في النيات الجديدة التي أعرب عنها الإسرائيليون. فقد أبلغوني في الحقيقة أنهم قرروا إنشاء حزام بعمق يراوح بين ثلاثة كيلومترات وأربعة، على طول الخط الأزرق، أي في الأراضي اللبنانية، يريدون إفراغه من كلّ وجود بشري. وما إن يحققوا مرادهم حتى يُمنع أي يكن

من الدخول، راجلًا أو بالسيارة، إلى «منطقة الأمن الخاصة» هذه كما باتوا يسمّونها بالفعل. وستتعرّض الوحدات الإسرائيلية المكلفة مراقبة الخط الأزرق للمخالفين. وصُعقنا لدى إبلاغنا التفاصيل المتعلّقة بهذه المنطقة. فهي تضم قرى كثيرة ومساحات زراعية واسعة يتوجّب التخلي عنها، وعشرات آلاف الناس على أقل تقدير ممن ينبغي نقلهم. ولا يقتصر مثل هذا المشروع على انتهاك سيادة لبنان، المنتهكة كثيرًا أصلًا، وفي شكل أكثر شمولًا حقوق الإنسان، بل هو أيضًا غير قابل للتحقيق. وهو ما يدفع إلى التساؤل عمّن أمكنه أن يتصوّر، ولو في المجال العملي، مثل هذا المخطط غير الواقعي بمقدار ما هو شاذ. ولكن بدا أن المسؤولين الإسرائيليين يؤمنون به لأنهم شرعوا في حملة إعلامية لحمل المقيمين في المنطقة على مغادرتها. واستخدموا في ذلك مكبرات الصوت على طول الخط الأزرق، واخترقوا الإذاعات المحلية بل شبكات الهاتف، حيث حدّدت رسائل قصيرة متوعّدة تواريخ نهائية للرحيل لن يعود الجيش الإسرائيلي بعدها مسؤولًا عما يحدث. أبلغتنا القيادة الشمالية تفاصيل المشروع الإسرائيلي، فأرسلناه فورًا إلى السلطات اللبنانية التي أصبحت أكثر ارتيابًا حيال مسألة الإخلاءات. إلا أنها ستضطر، تحت الضغط، إلى الموافقة على الكثير منها. وما لبثتْ، بسبب الفقدان المتزايد للتنظيم، أن فقدتْ أي سيطرة على السكان، لتكتفي بما تملكه من وسائل ضئيلة لمواكبة المبادرات المحلّية، وهي تواصل في شكل منهجي طلب المساعدة من اليونيفيل.

أدركنا سريعًا يوم ١٤ تموز/يوليو هذا، وقد سقط في حيفا أول الصواريخ التي أطلقها حزب الله، وجرح ثمانية مدنيين، أن مواقعنا لن تُوفَّر، على رغم رفعها العلم الأزرق. وقد تعرّضت قاعدة الدوريات التابعة لمراقبي الهدنة[٢٠] في الخيام لقصفين «وشيكين»[٢١] رددت عليهما باحتجاج فوري لدى القيادة

(٢٠) وُضع مراقبو خط الهدنة بين إسرائيل ولبنان تحت القيادة العملانية لليونيفيل عند إنشاء هذه الأخيرة.

(٢١) عبارة تُستخدم للدلالة على سقوط قذيفة داخل دائرة تُعد خطرة حول موقع ما بحيث يمكن أن تصيب شظاياها العناصر أو البنى التحتية.

الشمالية. ولن يشكّل هذا، ويا للأسف، إلا بداية سلسلة طويلة من الشكاوى الرسمية التي لن تمنع تكرار مثل هذه الانتهاكات للاتفاقات القائمة، بما في ذلك «إصابات مباشرة»[٢٢] كانت، هذه المرة، قاتلة. وكان يمكن للموجودين في المركز أن يراقبوا على بعد بضعة كيلومترات إلى الجنوب الشرقي عناصر من وحدة «يَمان» من سلاح حرس الحدود الإسرائيلي، وقد دخلوا الجزء الشمالي من الغجر ترافقهم بولدوزرات كاتربيلار «دي-٩» القوية التي شرعت في تدمير مواقع مهجورة لحزب الله.

تزايد، في الجانب اللبناني، تدمير شبكات الطرق، فيما استهدفت عمليات القصف الدقيقة مساكن جديدة عُدَّت مشبوهة. وهكذا، عند أبواب هيئة أركان اليونيفيل في الناقورة، أصاب صاروخ أطلقته مروحية إحدى الفيلّات. وجاءت الحصيلة في صفوف المدنيين، أو أقله من نفترض أنهم مدنيون حتى إثبات العكس، قتيلًا وثمانية جرحى، خمسة بينهم في حال الخطر، سيتلقّون العلاج في المستشفى التابع للكتيبة الطبية الهندية قبل نقلهم إلى أحد مستشفيات صور. ومنذ ذلك اليوم وأجهزة القوة الطبيّة تدأب على العمل، سواء في مقر القيادة أو في قلب الكتائب. وسيحاولون بأفضل ما يمكنهم معالجة الحالات الطارئة والعمل بالارتباط مع الصليب الأحمر اللبناني كلّما أمكن ذلك، وتأمين عمليات الإجلاء إلى المستشفيات والمستوصفات التي لا تزال تعمل جنوب الليطاني. فهل عالجنا عناصر من ميليشيا حزب الله؟ هذا ممكن ومن الصعب قطعًا إثبات العكس. ولكن عندما يحتاج مدني جريح لا يحمل السلاح إلى العلاج، تفرض المبادئ الإنسانية التي تلتزمها الأمم المتحدة، خصوصًا، مساعدته، وأحيانًا على أساس مبدأ افتراض البراءة.

(٢٢) تعبير يُستخدم للدلالة على سقوط القذيفة في داخل الموقع.

١٥ تموز/يوليو – مأساة مروحين

تميّز الخامس عشر من تموز/يوليو بالمأساة الأولى من سلسلة طويلة من الأوضاع المشابهة التي لا تُحتمل والتي ستواكب تاريخ هذا النزاع. فمنذ الصباح الباكر جاءت مجموعة من سكان مروحين القلقين جدًّا إلى قاعدة دوريات «حين» التابعة لمراقبي الهدنة طلبًا للحماية. ولا يشرف على هذا المركز، الضيّق جدًّا، سوى أربعة مراقبين وهو لا يستطيع توفير أي ملجأ لمن يطلبونه فيعودون، بعد بعض التفسيرات، من حيث أتوا. بُعيد ذلك قامت مجموعة أخرى من سكّان القرية بمسعى مشابه لدى الموقع ١-٢١ التابع للكتيبة الغانية القريب من قاعدة الدوريات، وهو الذي وُجدت فيه القذيفة غير المنفجرة على السرير. ويقع هذا المركز على تلّة ولا يقدّم أي حماية من الرمايات الإسرائيلية المباشرة في ما عدا حصنه المركزي الذي احتُسبت مساحته لتؤوي مفرزته لا غير. أما بلدة مروحين فهي على عكسه تقع في المنحدر المعاكس للمواقع الإسرائيلية وتحتجب بالتالي عن أنظارهم. وتنتظم منازلها النموذجية، وطبقاتها العليا ذات الشرفات أو المغطاة بالقرميد الأحمر، حول بركة ماء كبيرة مكشوفة. وسيكون القرويون في الطبقات السفلى لمنازلهم أكثر أمانًا من جنودي في مراكزهم. فهموا حجّتنا وعادوا إلى بيوتهم. إلا أن ما لم يبلغونا إياه هو أنهم سمعوا على موجات الأثير حث الإسرائيليين لهم على مغادرة المنطقة. فتجاهل البعض منهم نصائحنا وتكوّموا، من جراء ذلك، في ميني باص وبيك أب، وانطلقوا صوب الشمال الغربي في اتجاه صور. وما إن اجتازوا شاما واقتربوا من البياضة، حتى استهدفت مروحية إسرائيلية السيارتين وأطلقت عليهما صواريخ عدة. غطت جثث ١٨ امرأة وطفلًا الأرض وسط حطام المعدن الصدئ والمطاط المحروق. أُبلغت اليونيفيل سريعًا، فكانت أول الواصلين إلى المكان، فقط لتشهد على الكارثة. جمع الممرضون الهنود وجنود الكتيبة اللوجستية البولندية ما أمكن من البقايا الحزينة، وقد تفحمت في غالبيتها، لنقلها إلى المستشفى

الحكومي في صور. وما إن انتهت المفرزة من مهمتها المروعة حتى تصدّى لها عند خروجها من المستشفى جمهور عدائي وغاضب. فقد عرف الناس ما حدث قبل ذلك ببضع ساعات وكيف أطلقت مروحية إسرائيلية النار قصدًا على سيارتين مدنيتين. إلا أنهم، وفي انفعالهم، حمّلوا القبعات الخضر مسؤولية هذه المأساة. ولم تتمكن الآليات البيض التي تحمل شعار الأمم المتحدة من التقدم إلا في بطء شديد، وانهمرت عليها الحجارة وأصيب جندي بولندي إصابة بالغة جدًّا في عينه. وستكون تلك المرّة الأخيرة، إلاّ في حالات الطوارئ الحقيقية، تمضي آلياتنا، بما في ذلك سيارات الإسعاف، لنقل جرحاهم إلى هذا المستشفى. ومن الآن فصاعدًا، سيتم النقل إلى الصليب الأحمر في داخل حرم ثكنة للجيش اللبناني عند مدخل صور.

دعا رئيس الوزراء اللبناني العاجز فؤاد السنيورة، عبثًا، إلى «وقف إطلاق نار فوري وشامل تحت رعاية الأمم المتحدة». وعدّت الجامعة العربية أن عملية السلام فارقت الحياة. وتواصل الهدم الذي تتسبب به الغارات الجوية الإسرائيلية على مجمل الأراضي اللبنانية. وقد استُهدفت الحدود اللبنانية – السورية خصوصًا لخفض ما أمكن من المساعدة اللوجستية التي تقدمها دمشق إلى حزب الله. ودُمّر جزء من مقر قيادة الأخير في الضاحية الجنوبية. ودكّت مدفعية السفن الإسرائيلية الساحل. واستهدفت في شكل خاص الرادارات الساحلية حيث سجّل الجيش اللبناني سقوط أول قتلاه. إلا أن هذه السفن الحربية التي جابت، حتى الآن في حرّية تامة، السواحل اللبنانية، باتت تتحاشى الاقتراب من العاصمة بعدما أصيبت البارجة «حانيت» في العشيّة إصابة جسيمة بصاروخ أطلقه حزب الله وهو من نوع «سي – ٨٠٢ نور» مصنوع في إيران. فهل قام حزب الله بذلك وحده أم بمساعدة من مستشاريه الإيرانيين؟ وقد قُتل أربعة بحارة إسرائيليين على رغم أن حشوة الصاروخ لم تنفجر. إنها إصابة في قلب الهدف واضحة للعين المجردة من أحياء بيروت الجنوبية، وقد استغلها

حسن نصرالله إعلاميًا أفضل استغلال، فأعلن مباشرة عبر شاشة المنار، تلفزيون حزب الله، نبأ الهجوم وعلّق عليه: «المفاجآت التي وعدتكم بها بدأت للتو. ففي هذه اللحظة، في البحر قبالة بيروت، السفينة الحربية التي هاجمت بُنانا التحتية وضربت منازل شعبنا ومدنيينا انظروا إليها تحترق. وهي ستغرق ويغرق معها عشرات الجنود الصهاينة الإسرائيليين». واللافت أكثر ما يكون في هذا النجاح العسكري هو عدم إشارة أي جهاز استخبارات إلى وجود صواريخ مضادة للسفن في ترسانة حزب الله.

ليست الأهداف كلّها التي اختارها الجيش الإسرائيلي ذات أهمية عسكرية، إذ دُمّر الكثير من المباني المدنية. فهل كانت كلّها تؤوي ميليشيات حزب الله؟ يصعب كثيرًا تأكيد ذلك. وقد استُهدفت في صفة خاصة منطقة الحوش الواقعة مباشرة شرق صور بعدما حُدّدت فيها مواقع عدّة لإطلاق الصواريخ. فمن هنا أُطلق جزء من القذائف الـ٢٣٥ التي سقطت في إسرائيل في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة حتى أن بعضها بلغ طبريّا. ويُضاف إليها أيضًا قصف بالهاونات. وتقيم في الحوش منذ العام ٢٠٠٠ عائلات موظفي اليونيفيل المدنيين «المهاجرين» من غير اللبنانيين. ويتم التحضير لإجلائهم لكن ذلك يواجه مشكلة أن بلوغ بيروت برًّا بات مستحيلًا. ويتوجّب بالتالي العثور على مركب خفيف الوزن يمكنه استخدام مرفأ صور.

وانتهى النهار أخيرًا بأول توغّل للقوات البرّية الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية، إذا استثنينا من ذلك الجزء المتنازع عليه من بلدة الغجر. وهو توغّل بلغ بضع مئات من الأمتار على مقربة من رأس الناقورة مع جرافة ترافقها دبابتان وآليتان خفيفتان. والهدف هو تدمير مركز لحزب الله. وستصبح عمليات كهذه أكثر فأكثر تكرارًا لتتحول من ثمّ عمليات منهجية. ويتوافق ذلك مع مشروع الإسرائيليين إقامة منطقة عازلة، خالية تمامًا من السكان، تمتد

على طول الحدود الشمالية للجليل. شرعوا في عمليات التنظيف وقد بدوا في الوقت الراهن متفائلين بمجرى خطتهم. وهو ما يدفعني إلى التفكير بالنبرة التي استخدمها الجنرال عودي آدم قائد المنطقة الشمالية في سياق مكالمة هاتفية أجريناها، نهاية الأمسية. وأعرف، بما أننا التقينا مرّات عدّة في مركزه في زفّات، أنه صريح ولكنه منفتح وموزون. وما سهّل أمر علاقتنا أنه تلميذ قديم في مدرستنا الحربية ويجمعنا ماض أكاديمي مشترك. ولن يتسنّى اللقاء إلا بعد نهاية النزاع.

١٦ تموز/يوليو – إخلاء مروحين

إنهال القصف بالمدفعية وبالدبابات على المناطق القريبة من الخط الأزرق المعروفة بإيوائها لمراكز لحزب الله. وأصبح الوضع في القرى المحيطة خطرًا جدًّا، وطلبت إلينا وزارة الداخلية إخلاء مروحين التي باتت أكثر فأكثر عرضة للتهديد. ولا يملك الكثيرون من السكان وسيلة نقل، لذا قمنا في الصباح الباكر بتنظيم قافلة تنطلق من الناقورة لتقلّهم إلى صور. وصل التشكيل، منتصف الصباح، وهو بقيادة ضابط «الاستخبارات» لديّ المقدّم كاستانيولي (فرنسا) يرافقه عنصر من الارتباط في الجيش اللبناني إلى قرية هادئة في شكل مستغرب. تبيّن أنّ المرشحين إلى الخروج هم حوالى الثلاثين، وهو عدد أقل كثيرًا من المتوقّع، فتولينا سريعًا نقلهم. وما إن خرجت أولى الآليات من القرية حتى أوقفتها، في عنف، رشقة من المدفعية أجبرتها على الانكفاء إلى الوراء. وأخذ كل واحد يفتش عن ملجأ بين المنازل فيما استمر القصف متقطّعًا على امتداد ساعات عدّة. وسقطت قذائف على بعد ١٥ مترًا من آلية الطليعة، وأخرى في منطقة تبعد ثلاثين مترًا حول الرتل. وجاء القصف من مركزين إسرائيليين يمكن ملاحظتهما في شكل ممتاز من مشارف القرية. فهما

يطلقان النار بالرؤية المباشرة، واتضح ما يُراد إفهامنا إياه وهو أن «تساهال» لا يطيق أن نساهم في تأمين حماية المدنيين، لأن المطلوب معاقبة لبنان كلّه على عمليّة الخطف المسؤول عنها حزب الله. أصيب القرويون بالذعر جراء تعرّضهم لهذا الانتهاك وأرادوا الهرب، ووجد مرافقونا العسكريون اللبنانيون صعوبة كبرى في إقناعهم بأن الأمر الوحيد المتاح راهنًا هو أن يبقوا محتمين. وأجهشت امرأة كبيرة في السن بالبكاء، لأنها اضطرت إلى ترك زوجها المعوّق في المنزل. وتمتّع العريف اللبناني محمود حمادة بما يكفي من الجرأة للمضي تحت النيران للإتيان بالعجوز إلى جانب امرأته في مكان أكثر أمنًا. وفي النهاية، أمكن القافلة التي ازداد عددها بالوافدين الجدد، أن تتوجه في ساعات بعد الظهر الأخيرة، إلى صور. وأجلت في طريقها نحو مئة من سكّان البستان. وهكذا أُجبر ثلاثمئة شخص على التخلي عن السقف الذي يؤويهم. فلا لبس في موقف الإسرائيليين الذين لا ينوون تيسير الأمور حتى لو كانت إنسانية بحتًا. وسيؤكّدون بالتالي، في مناسبات عدّة، هذه الترتيبات التي أقل ما يقال فيها إنها جديرة بالنقد.

أثار هذا الإخلاء، الذي شكّل مقدّمة للكثير غيره، قلق حزب الله الذي خشي أن تفلت الأمور من يديه ويُعدَّ المسؤول عن هذا النزف السكاني اليائس صوب شمال الليطاني. فهو يريد أن يطرح نفسه المدافع عن سكان جنوب لبنان ويسعى في الوقت نفسه إلى إبقائهم في مناطقهم. وهدّد نصرالله باستخدام «كل الوسائل ضد إسرائيل» أي إطلاق الصواريخ إلى مناطق أكثر بعدًا في عمق البلاد.

أصبحت أعلى مراتب الأمم المتحدة على السمع. وتلقيت خلال النهار اتصالًا هاتفيًا من الأمين العام للأمم المتحدة السيّد كوفي أنان الذي لم يسعه إلا أن يأسف للأحداث الجارية من دون أن يتمكن من توقّع ما سيحمله المستقبل،

وقد يمضي أسبوعان من النزاع قبل التوصل إلى وقف للنار. وكان لطفًا منه أن يحدّثني بالفرنسية عوضًا عن الإنكليزية التي هي لغة العمل المعتمدة لدينا. وأعرب، بالنبرة الهادئة دومًا والودّية التي أعرفها عنه، عن قلقه حيال معنوياتنا، فطمأنته، ثم تمنّى لنا جميعًا الحظ الطيّب قبل أن يقفل السماعة. وانكبّ أيضًا ممثله في بيروت السيد غير بيدرسون (النروج) على مساعدتنا، فدعا رسميًّا إلى وقف أعمال العداء وحماية المدنيين وإطلاق الجنديين الإسرائيليين. وصاغت دول مجموعة الثماني، من جهتها، أمنياتها ورغباتها، مقترحة إرسال قوة فصل إلى جنوب لبنان. فهل يعتقدون ذلك فعلًا في مواجهة التصميم الإسرائيلي والدعم الأميركي؟ الأمر غير مرجّح كثيرًا، لكنهم يحتاجون بكل الوسائل إلى محاولة الحد من التصعيد. ويشهد اقتراحهم على إرادة طيّبة أكيدة ولو أنه لا يزال غير مقبول من جميع الأطراف.

أخذ الموقف يتصلّب شيئًا فشيئًا. فالإسرائيليون لا يريدون لنا أن نتحرّك من تلقاء أنفسنا في منطقة عملياتنا، سواء للقيام بالدوريات أو بالتحرّكات اللوجستية أو الإجلاءات. وقد حاولنا في الوقت الراهن المحافظة، قدر الإمكان، على حرية تحرّكنا. غير أن ذلك أخذ يصبح أكثر فأكثر مرهونًا بالحظ. فعملية الانتقال التي كانت تتطلّب في الماضي ساعة تستغرق منا الآن نصف نهار. ويجبرنا الدمار على القيام بتحويلات، وقصف المدفعية على التوقف في انتظار الهدوء. ويريد «تساهال» بذلك السيطرة ما أمكن على كل نشاط في المنطقة من أجل التصدي لتحركات حزب الله الذي استمرّت صواريخه في الانطلاق في اتجاه الجنوب إلى ما هو أبعد من الخط الأزرق. وسعى بعض عناصره، على غرار ما فعلوا في مناسبات سابقة، إلى القيام باستعداداتهم على مقربة من مواقع اليونيفيل، أملًا منهم في أن يتردد الخصم في الردّ على هذه المواقع، خوفًا من إصابات ممثلي الأمم المتحدة. وسنرى سريعًا جدًّا أن لا أساس لذلك كلّه، وأن المدفعية، بل وحتى الطيران، لن يتردّدا في التعامل مع أهداف قريبة

جدًّا من مراكزنا، لتشكّل خطرًا حقيقيًّا جدًّا على رجالي. ولكن هل يمكن فعلًا الحقد على الإسرائيليين لمخاطرتهم بإنزال أضرار جانبية فادحة بجنود السلام بعدما أصبحوا عرضة لعلميات القصف التي قد تكون كبّدتهم خسائر؟ أما نحن فسنمضي المزيد والمزيد من الوقت في التحصينات.

١٧ تموز/يوليو – أوّل قتلى اليونيفيل

يشكّل موظفونا المدنيون المهاجرون جزءًا من الأشخاص المألوفين في وحداتنا. فهم يتولون جزءًا كبيرًا من الدعم اللوجستي للقوة، ويؤمّنون الربط اللاسلكي والهاتفي بالخارج، ويعملون على صيانة عدد كبير من المعدات وتصليحها، ولا يُقدّر تفانيهم بثمن. والنيجيري أوغوستان بيالونوو واحد منهم، وهو صاحب ابتسامة دائمة البشاشة في جهاز المشتريات الذي يعمل فيه. ويقيم منذ سنوات مع زوجته مودوبيولا في الحوش، المدينة التي تؤوي عددًا كبيرًا من عائلاتنا. غير أن المنطقة أصبحت مضطربة لاحتوائها عددًا من مراكز إطلاق النار التابعة لحزب الله. ولخوفنا من عمليات الردّ، أخطرنا الإسرائيليين بتجمّع رعايانا في هذه المنطقة.

وحوالى الثامنة من مساء السابع عشر من تموز/يوليو هذا، أبلغنا أحد الجيران، الذين هم من جماعتنا، أن قنبلتين جويتين سقطتا على الحي. وقد أصابتا أحد المباني بأضرار، ولحسن الحظ من دون سقوط ضحايا، إلا أن الفيلا التي يقيم فيها الزوجان بايلونوو تعرّضت لإصابة مباشرة، وانهار المنزل مثل قصر من الكرتون، كتلة تافهة من حجارة الربط، وقد اجتاحها الصمت الآن. سيارة أوغوستان متوقفة في المرأب المجاور، والزوجان لا يردّان على نداءاتنا على شبكة الأمن اللاسلكية، ولم يشاهدهما أحد. اعترانا القلق الشديد، وعلينا مهما يكلّف الأمر العثور عليهما، ومساعدتهما، ومع بعض الحظ إسعافهما. سريعًا،

أصدرت الأمر إلى الكتيبة الصينية، وهي وحدة متخصصة في الهندسة، بإرسال معدات ثقيلة إلى المكان للتنقيب في الأنقاض. لكن العملية تَعِدُ، ولسوء الحظ، بأن تكون صعبة: فمنقّبونا متحصنون في الحنّية على بعد نحو عشرة كيلومترات جنوب صور، وعليهم سلوك محور ساحلي مقطوع في أماكن عدّة. فقد أحدثت القنابل التي ألقاها الإسرائيليون فجوات بعمق ثلاثة أمتار أو أربعة وبقطر ١٥ مترًا يستحيل ردمها سريعًا. ويتوجب الالتفاف من حولها وفتح طرق بعيدة الاحتمال عبر حقول الليمون والموز. وجّهتُ رسالة إلى الإسرائيليين أطلب فيها تجنُّب الطريق الساحلية ما يكفي من الوقت لبلوغ المكان، وتحرّك الطابور تحت جنح الليل وهو يدرك العراقيل التي عليه تجاوزها. وبلغ بعد بضعة كيلومترات وحسب أول انقطاع، وهو جسر مدّمر فوق قناة، توجّب بالفعل الدوران من حوله في صعوبة قبل العودة إلى الطريق. ولم تكد القافلة تبدأ بتقدّمها، حتى أسقط الطيران الإسرائيلي قنبلة أخرى على بعد بضع مئات من الأمتار أمام الآلية الأولى. وها إن القافلة تتوقف كلّيًا بين هذه الفجوة الجديدة والجسر المدمّر، ولم يعد أمامها هذه المرّة أي خيار، فاضطرت إلى العودة أدراجها إلى مركزها. ومن الواضح أن الجيش الإسرائيلي لا يريدنا التحرّك في منطقة عملياتنا، أيًّا يكن السبب. وبحثنا، في موازاة ذلك، عن خطوط سير أخرى أكثر صوب الشرق، ولكن تبيّن أن المعلومات التي وافتنا بها هذه المراكز جاءت كلّها سلبية: كل المسالك المؤدية إلى صور من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية مقطوعة. بات من الوارد تشغيل جرافاتنا التي لا يمكن تحريكها من دون ناقلاتها الضخمة. ولم يعد أمامنا سوى البحث المباشر عن هذا النوع من المعدات في صور. وهي المهمة التي فوضت أمرها إلى مفرزتي الصغيرة الموجودة منذ بدء النزاع مع عائلات مهاجرينا في صور الفينيقية القديمة. فشرعت، بدورها، في التحرّك. وأعطيت الأوامر لبعض من رجالنا في موقع المأساة بالسهر الدائم حول الركام. طلع النهار وتضاءل الأمل فيما استمر الانتظار الطويل. تعثّرت النجدة أمام العراقيل لكنها لن تتراجع.

١٨ تموز/يوليو - بعد اللاجئين، المُرحَّلون

شرعت بلدان عدة، بينها فرنسا، منذ الليلة الفائتة في إجلاء رعاياها بحرًا من بيروت. وتضاعفت، في منطقتنا، طوابير السيارات المدنية المتوجهة صوب الشمال مع التزايد الحاد للقصف المدفعي والغارات الجوية. وهذا الدفق يخرج في معظم الأحيان عن أي انضباط، إذ يحاول كل واحد اجتياز الليطاني، في أسرع ما يمكن، أملًا في أن يكون الوضع أكثر هدوءًا شمال النهر، وهو ما سيتبين في الغالب، ويا للأسف، أنه خاطئ. وتتعلّق أحيانًا بعض السيارات في مؤخر واحدة من قوافلنا. ويأمل ركابها بهذا في الاستفادة من الحماية المؤكدة بلحاقها بنا. وهو ما سيحدث أحيانًا، غير أن الإسرائيليين أبلغوني أنهم لن يقبلوا مثل هذه الممارسات لأن وحدها القوافل التي يبرمجونها ويسمحون بها يجب أن تتوافر فيها شروط الأمن اللازمة. وقد رفضت في الوقت الراهن هذا الإملاء، ولكن إلى أي مدى سأتمكن من الصمود؟

اللاجئون الذين هم من اللبنانيين الهاربين من مناطق القتال ويبقون في لبنان يشكّلون حالًا في ذاتها، ولكن توجّب علينا أيضًا التعامل مع حالات الرعايا الأجانب الذين ينبغي إخلاؤهم. وقد اتصلوا، في معظمهم، كل بسفارته أو قنصليته، وطلبوا بالتأكيد إعادتهم إلى بلدانهم. غير أن شبكات الطرق باتت مقطوعة الآن مع بيروت، ولا يملك الكثير من السفارات الأجنبية الإمكانات، أو الإرادة، في استعادة مواطنيها. وسيكون على اليونيفيل التكفّل بالأمر. ونحن، على أي حال، لو لم نفعل ذلك، لجاءت الاتصالات الهاتفية الكثيرة من الدبلوماسيين الموجودين في بيروت لتذكّرنا بواجبنا وأحيانًا بطريقة غير لائقة. وعرّف بعض هؤلاء المهاجرين عن أنفسهم بمجيئهم إلى مركز اليونيفيل الأقرب إلى محل إقامتهم. وتوجّب تحديد أماكن آخرين قبل تنظيم مهمة لاستعادتهم. وهذا الخيار الثاني أكثر تعقيدًا. إلا أننا شرعنا، بطريقة أو أخرى،

في تجميع المرشحين إلى الرحيل في صور في مجمّع «الاستراحة» الفندقي، درّة السياحة المحلية، بغرفة س ذات الشرفات المطلة على حوض السباحة والبحر. وأعلنّا هذا المكان المُصادَر «ملجأً آمنًا» ووفرنا له الحماية بمفرزة مسلحة يدعمها طاقم طبي وفريق إداري. كذلك جاءنا الدعم من أحد عناصر الجيش اللبناني. ولم يمنع هذا حزب الله من إطلاق صواريخ من الشاطئ. فقدّمتُ احتجاجًا جديدًا إلى السلطات اللبنانية... من أجل الشكل، إذ لم يراودنا أي وهم في شأن النتيجة، خصوصًا إن حزب الله أعلن جيّدًا، بصوت حليفه المرشد الأعلى للثورة الإيرانية علي خامنئي، أنه لن يلقي سلاحه أبدًا.

تم التدقيق في وثائق سفر كل من المرشحين للرحيل، لأننا لا نستطيع أن نخرج سوى الأجانب من الأراضي اللبنانية. وسيتم إصعادهم إلى باخرة، لا تزال افتراضية، وجهتها قبرص التي رفضت رفضًا قاطعًا استقبال أي لبناني من ضمن هذه المجموعات. وإذا أراد أي من هؤلاء اللبنانيين مغادرة البلاد، عليه اتباع إجراءات وسبل أخرى. وطُرحت عندذاك حال اللبنانيين الذين لديهم جنسية مزدوجة والتي توجّب إدارتها، في حنكة، ولكن أيضًا في صرامة تامة. فهم يمتلكون جواز سفر أجنبيًّا إضافة إلى جوازهم اللبناني ويحق لهم بالتالي الرحيل. لكنهم حضروا في الغالب وبرفقتهم أهاليهم الذين لا يحملون سوى بطاقة هويتهم اللبنانية. وهي لا تكفي. واضطررنا حينذاك إلى الغربلة وعدم قبول إلا من يحملون وثيقة أجنبية، الأمر الذي أدى إلى نقاشات طويلة ومضنية.

ويضاف إلى هؤلاء الرعايا الأجانب مجموع أولئك المتعلّقين مباشرة بالأمم المتحدة: أي عائلات موظفينا المدنيين غير اللبنانيين، وموظفينا المدنيين غير اللبنانيين ممن يمكن الاستغناء عنهم، وأخيرًا عائلات مراقبي الهدنة. وعلى رغم أن اسم اليونيفيل (قوات الأمم المتحدة الموقتة في لبنان) يحتوي كلمة

«قوات» فإنها قبل كل شيء بعثة للأمم المتحدة، مما يعني أن التركيبة العسكرية فيها هي السائدة، لكنها تضم أيضًا، لدعمها، طاقمًا من المدنيين الموظفين في المنظمة الدولية. ويمكن عائلات هؤلاء أن ترافقهم عندما تُعدُّ الظروف الأمنية مقبولة. وفي الواقع، إذا كانت إقامة العسكريين قصيرة نسبيًّا، تراوح ما بين أربعة أشهر وسنة، بحسب المفارز، فإن مدني الأمم المتحدة يبقى هو أيضًا في مركزه سنوات عدة. وحتى الآن لم يمنع الوضع، المائل إلى الهدوء، وجود هؤلاء العائلات من دون أن يُسمح لها مع ذلك بالإقامة في منطقة العمليات. ويقيم معظمها في منطقة صور، وبعضها في بيروت. ونظرًا إلى عزلتنا، فإن ممثليتنا الدائمة في العاصمة اللبنانية تهتم بهذه الأخيرة.

إنّ وضع الموظفين المدنيين الذين يرون أن من غير الممكن الاستغناء عنهم شائك جدًّا. ومن الواضح أننا نحتاج في زمن الأزمة إلى العدد الأقصى من الناس، خصوصًا أن من غير الوارد تحديد ساعات العمل بالتوقيت الرسمي لفتح المكاتب ومحطات اللاسلكي وغيرها من المرائب والمشاغل. ولكن من المفترض بي، بمساعدة من رؤساء المكاتب والأجهزة، تقويم من يُعدُّ لا غنى عنه، ويجب بالتالي أن يبقى، ومن يمكنه ترك البعثة، بهدف حماية أكبر عدد ممكن من العناصر من الخطر. وأمكننا، على رغم صعوبة الخيارات، تخفيف عدد الموظفين بضعة عناصر. وعلى الأقل، يمكن للراحلين في الترانزيت إلى قبرص الاهتمام بالعائلات ومساعدة الأجانب المرحّلين الآخرين. وعلى سبيل الطرفة، فإن على هؤلاء الأشخاص، الذين عُدُّوا «غير ضروريين» العودة إلى أماكن سكنهم كل في بلاده، وانتظار دعوتهم إلى الالتحاق من جديد ببعثتهم. وسيحق لهم بتعويض يومي، أعلى في وضوح، من تعويض المخاطر الذي يتلقاه من بقوا في أماكنهم. في ذلك ما يكفي لتشجيع المواهب!

واضطررنا في المقابل إلى إجلاء موظفين مدنيين من خارج الأمم المتحدة ممن لا يمكننا الاستغناء عنهم. ويتعلّق الأمر بميكانيكيي شركة «باتريا» الفنلندية المكلفين صيانة آليات نقل الجند المصفحة الأربعين من نوع «سيسو» الموزعة على الكتائب. فوجودهم حاسم لأن الوضع يجبرنا في شكل دائم على استخدام المعدات الفنلندية التي تملكها الأمم المتحدة. غير أن العقد الذي يربط اختصاصيي «باتريا» باليونيفيل ينص على ضرورة ترحيلهم لحظة لا يعود أمنهم مضمونًا. وهذه بقايا المفهوم القديم للحفاظ على السلام والذي ينص الفصل الثالث لميثاق الأمم المتحدة بموجبه على أن الأمن الذي يلتزم الأطراف المعنيون توفيره لجنود السلام يكفي لحمايتهم. وهذه مثالية سياسية من غير السديد تحدّيها لعدم المسّ بالإجماع، الهش كثيرًا أحيانًا، والموجود بين الدول الأعضاء في المنظمة الدولية. وعلى كل حال، فإن هؤلاء الأشخاص سيغادروننا في وقت نحتاج، أشد ما يكون، إليهم. ولم يبق إلا ميكانيكي لبناني واحد سيستمرّ وفيًّا لمركزه طوال مدة النزاع، على رغم مشاغله العائلية الخاصة، وسيعطي من دون حساب لتصليح العدد الأقصى من الآليات.

وفي النهاية، تألّفت آخر مجموعة ممن يتوجّب إجلاؤهم من بضع عائلات مراقبي الهدنة تقيم جميعًا في صور. وتختلف وضعية المراقب، في الأمم المتحدة، اختلافًا كبيرًا عن وضعية العسكري الذي يقيم في وحدة قائمة. إذ يتحتّم على العسكري أن يأتي وحده من دون عائلته ويعيش في المركز، فيما المراقب مستقل تمامًا من الناحية اللوجستية ويقيم خارج مقار القوة الدولية. وهو يقضي أيامًا عدة يعمل في قاعدة الدورية التابع لها، ويستفيد من ثم بأيام في المنزل لاستعادة قواه. وعلى رغم أن من غير المسموح عادة لعائلات المراقبين بمرافقتهم في مثل هذه الإقامة، توصّل هؤلاء إلى ترتيبات مع هيئة الأركان النيويوركية. فقد خشيت الأخيرة النقص في المتطوعين بسبب ظروف الحياة والعمل التي تُعدُّ صارمة جدًّا، وتقبّلت مجيء العائلة المباشرة. ويتم ذلك، نظريًّا،

على المسؤولية الكاملة لرب العائلة الذي يتوجب عليه تحمّل نفقات الإجلاء في حال الأزمة. وافتُرض أن تكون هذه حال المراقبين الموضوعين تحت سيطرتي العملانية سوى أن بلوغ مطار بيروت بات مستحيلًا. ولن يتمتع هؤلاء الضباط، وعائلاتهم وحدها، وهي في خطر، بالصفاء اللازم للقيام بمهمتهم في معاقلهم في مكان ما من أمكنة الخط الأزرق. ومن حسن الحظ أنني قمت بالتخطيط لهذا الاحتمال منذ وقت طويل، وستتولّى اليونيفيل العملية على رغم أن هذه المشكلة تقع ضمن مسؤوليات قيادة فريق مراقبة الهدنة المتمركزة في القدس في مكان بعيد جدًّا من هنا.

أعرف في الوقت الراهن أن القيادة العامة في نيويورك في صدد البحث عن سفينة لتأمين الإجلاء إلى قبرص، حيث يمكن إيجاد طائرات مدنية للرحلات البعيدة. ولا أمتلك أي فكرة عن موعد العملية، ولكن عليّ إبقاء الذين ينتظرون إجلائهم مستقبلًا في أفضل الظروف الأمنية الممكنة. فالرعايا الأجانب غير المرتبطين بالأمم المتحدة متجمعون بالفعل في الاستراحة التي تكتظ بمن فيها. والحماية من إطلاق النار مقبولة، وقد شُغلت كل الأماكن المناسبة. فقرّرت عندذاك إبقاء جميع عائلات موظفي اليونيفيل المدنيين وعائلات مراقبي الهدنة في أماكن إقامتها والاحتماء في الأقبية. وأراد الكثير من هذه العائلات، في ردّ فعل أولي، الذهاب إلى مقر قيادة القوة في الناقورة. غير أنني عددتُ الأمر غير معقول، على رغم الآراء المعاكسة، لأننا لا نملك في الأساس ملاجئ نوفّرها لهم، ولأن المجيء إلى الناقورة يتطلّب، ثانيًا، الانتقال بالسيارات في خط سير خطير يبلغ نحو ثلاثين كيلومترًا، هو مقطوع بالفعل في أماكن عدةّ. ولأنني، أخيرًا، غير متأكد لدى وصول الباخرة إلى صور من تمكّن العائلات من بلوغ موقع السفر على الوقت. وفضّلت إذًا بقاءها في صور حيث توجد مفرزتي التي تبقى على اتصال دائم معها.

تواصل إطلاق النار بين هذا الفريق وذاك بمعدّل مرتفع. ففي هذا اليوم وحده سجّلت المراكز سقوط نحو ١٥ قذيفة «قريبة» وقذيفة «مباشرة» هي ذاك الضيف غير المرغوب فيه الذي حلّ في المركز الغاني ١-٢١. وأحصيت ١٣٠ حركة جوّية فوق منطقتنا. وشاهدنا في بعض الأماكن توغلات برّية إسرائيلية شمال الخط الأزرق، لكنها لا تزال ذات عمق صغير. وقد حاولت الكتيبة الـ٢٩٩ «هيريف» التقدم في اتجاه مروحين. وحاولنا، على رغم ذلك، مواصلة تحرّكاتنا إن لمصلحة السكان: الإخلاءات الطبّية، وتموين اللاجئين أو مواكبتهم؛ وإن لحاجاتنا العملانية أو اللوجستية الخاصة. وقد طلب إلينا الجيش الإسرائيلي التجوّل فحسب بناقلات جندنا المصفحة، غير أنني لا أملك إلا أربعين منها لأفراد القوة الألفين. وكيف يمكن التزوّد بمياه الشرب أو المحروقات من دون استخدام شاحنة صهريج؟ توجد الصفائح طبعًا، غير أنها يجب أن تتوافر بأعداد كافية. سمحت لنا القيادة الشمالية الإسرائيلية مع ذلك، بحلمها الكبير، بالانتقال على الطريق الساحلية من الناقورة إلى صور بمجموعة من أربع آليات خفيفة على الأقل! وهي تعرف مع ذلك أن الطيران حدّ في شكل كبير من إمكان سلوك هذه الطريق. وأصرّت، على واقع أن أي حركة نقوم بها هي من ثمار مبادرتي وحدي، ولا يمكن تحميلها مسؤولية أي حادث. ومن له أذنان تسمعان فليسمع.

بات لديّ انطباع أن النزاع دخل في الروتين. غير أن حزب الله سجّل في هذا اليوم، الثامن عشر من تموز/يوليو، رقمًا قياسيًّا جديدًا بإطلاقه ٣٨٤ صاروخًا وقذيفة هاون في اتجاه إسرائيل، فيما تلقّت مراكزنا ٧ قذائف «قريبة»، وهو نوع الحوادث الذي أصبح يقع يوميًّا. ولم تؤثّر احتجاجاتي الرسمية والمنهجية بالإسرائيليين. واستمر نزوح المدنيين المقيمين في منطقة عملياتنا صوب الشمال. ولمواكبة ذلك بأفضل تنسيق ممكن لجهودنا مع جهود القلة المتبقية من السلطات اللبنانية العاملة، أنشأنا في مرجعيون خلية تنسيق لدى هيئة أركان

القوة الأمنية المشتركة. ويتعلّق الأمر، من الناحية الرسمية، بقوة مشتركة من ألف عنصر (٥٠٠ من قوى الأمن الداخلي و٥٠٠ من الجيش اللبناني) أرسلتها الحكومة على أثر الانسحاب الإسرائيلي في أيار/مايو ٢٠٠٠. وتقضي مهمتها بالسهر على الأمن في منطقة هي إلى حد كبير منطقة عمليات اليونيفيل. غير أن سلطات بيروت لا تسمح لها مع ذلك بالاقتراب من الخط الأزرق.

أمكن توزيع بعض المواد الغذائية التي تم الحصول عليها في صور على القرى، ولكن بكميات غير كافية في شكل كبير في منطقة لا يزال يختبئ فيها بضع مئات الآلاف من المدنيين. وأبلغتني نيويورك أن الباخرة المستأجرة لإجلاء الرعايا الأجانب يمكن أن تصل غدًا إلى صور. وهي ستنطلق من قبرص التي أصبحت بذلك قاعدتنا الخلفية الحقيقية بفضل تفاني بعثة أخرى للأمم المتحدة وهي «يونفيسيب»[٢٣] الموجودة في قبرص منذ العام ١٩٦٤. وستستقبل هذه البعثة مفرزة إدارية صغيرة مُرسلة من الناقورة وتقدّم إلينا العون الكبير في المساعدة على حل الكمّ الكبير من مشكلاتنا المتعلقة باللاجئين أو الإخلاءات الطبية والحاجات الملحة لتوفير كل أنواع المؤن. وهذا كلّه بالتأكيد بحسب قدراتنا على الحركة.

١٩ تموز/يوليو – عمليات إطلاق الصواريخ لا تتراجع

استمرّت عمليات التوغل الإسرائيلية في الأراضي اللبنانية في التوسّع تدريجًا مع بقائها أقرب ما يكون إلى الخط الأزرق. فقد سمحت الحكومة الأمنية الإسرائيلية بمواصلة العملية في لبنان «من دون حدود زمنية» فيما أعلن الجنرال عودي آدم أن «ما من شيء يمكن للعسكر وحدهم حلّه. فالأمر يتطلب

(٢٣) قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في قبرص.

حلًّا سياسيًّا». وفي هذا بعد نظر جيّد لقائد المنطقة الشمالية. وردّ حزب الله أن في وسعه إطلاق النار على إسرائيل «على مدى أشهر». وقد أحصينا إطلاق ٣٥٠ صاروخًا في اتجاه الجنوب في وتيرة مستمرّة على رغم عمليات القصف الإسرائيلية. وأُسقط بالتالي ٢٣ طنًّا من القنابل والصواريخ على عرين حزب الله في الضاحية الجنوبية لبيروت، من دون أن يفضي ذلك إلى نتيجة، غير تدمير مبانٍ سبق، بلا شك، أن أخليت. أما في جنوب لبنان، فأعيد استخدام الكثير من المواقع بعد ساعات قليلة على اعتناء الجيش الإسرائيلي بقصفها. فقد شيّد حزب الله، منذ الانسحاب الإسرائيلي من لبنان عام ٢٠٠٠ الكثير من الملاجئ الخرسانية المدفونة في الأرض واستخدمها بالتالي لتخزين الصواريخ فيها. وقد حدث ذلك، في معظم الأحيان، في غفلة عن اليونيفيل. أما السلطات اللبنانية فلا يعقل أنها لا تعرف بها. وتعمل قوة الأمم المتحدة بحسب الانتداب الذي أناطه بها القرار ٤٢٥ ولا تسمح لها قواعد الاشتباك باستخدام أسلحتها إلا للدفاع عن عناصرها ومنشآتهم. وهكذا عندما تجد إحدى دورياتي، في الأزمنة العادية، أن رجال حزب الله قطعوا عليها الطريق، تُمنع من استخدام السلاح لمواصلة مهمتها، إلا في حال الدفاع المشروع عن النفس. وكذلك يستحيل عليها، إذا استمرّت الميليشيات في رفضها، الشروع في حوار معها، لأن الأمم المتحدة تعدُّ الميليشيا تنظيمًا مسلحًا غير شرعي، والتعاطي معها يعني الاعتراف بها. ومع بقاء الدورية في مكانها يعود إليّ الطلب من السلطات الحكومية اللبنانية التدخل لدى حزب الله. ويُحترم هذا المبدأ في شكل منهجي، ولكن تُلغى الدورية، في أي حال من الأحوال، إذ يجب تنفيذها بالكامل، مهما يحدث من تأخير، تحت طائلة إرسال تقرير إلى نيويورك التي ستشير عندذاك بالإصبع إلى لبنان كما لو أنه تلميذ سيئ. ويُحلّ، عادة، الإشكال في غضون ساعات قليلة، ولكن حدث أن تطلّب الأمر أكثر من يوم، أي الوقت الكافي ليتمكن حزب الله من إخفاء نشاطاته عن عيون القبّعات الزرق.

يشكّل عدم التحيّز أحد أهم مبادئ عمل قوة حفظ السلام الدولية، ويعود جزء من صدقية القوة إلى احترام هذا المبدأ. ونحن عرفنا بالتأكيد الكثير من مواقع حزب الله في منطقة عملياتنا، وأُبلغت نيويورك بتطوّر هذه المنشآت من دون توخي الكثير من الدقّة مع ذلك. فمبنى المقر العام للأم المتحدة يحمل جيّدًا الاسم الذي يُطلق عليه وهو «البيت الزجاجي». فكل شيء فيه شفاف من حيث المبدأ، ولا يوجد ما يخفى على الدول الأعضاء. غير أن لذلك مساوئه. إذ يمكن، مثلًا، للبعثة الإسرائيلية في الأمم المتحدة أن تطلع في سهولة على التقارير الواردة من الناقورة. وإذا ذُكرت فيها مواقع حزب الله، فسيمكنها بالتالي إيصال هذه المعلومات إلى تل أبيب التي يصبح في وسعها أن تستغل أي فرصة متاحة لتدميرها. وبالتالي سيصبح عدم انحيازنا موضع شك. كذلك قد ينتج عن ذلك مقتل أشخاص. من هنا اعتمادنا الحيطة في المعلومات التي نوصلها. وكما أننا نتحفّظ عن معلوماتنا الدقيقة المتعلقة بحزب الله، نتبنى كذلك الموقف نفسه حيال شركائنا اللبنانيين الذين تهمهم معرفة تجهيزات الجيش الإسرائيلي ونشاطاته. والهدف هو تمرير ما يمكنه أن يسهم في تطبيق الانتداب من دون أن يشكّل خطرًا كبيرًا على أي من الطرفين المعنيين.

وتبيّن في حالات كثيرة أن لهذه الاحتياطات ما يبرّرها، على رغم نوعية الاتصالات المحمية التي تربطنا بنيويورك. ونحن نعرف أننا عرضة للتنصت علينا كثيرًا، وقد أمكننا في الغالب إثبات ذلك. فعلى الأمين العام، ما إن يصل انتدابنا إلى نهايته، أن يطلب من مجلس الأمن تجديده. ويرفع إلى الدول الأعضاء لدعم طلبه حصيلة نشاطات القوّة. ويُنجز هذا التقرير انطلاقًا من مشروع اقترحه فيأخذه فرع عمليات الحفاظ على السلام. وكما لو مصادفة، وفي شكل منتظم، كلّ مرّة يُرسل هذا التقرير، وهو مع ذلك مُشفّر، إلى مقر القيادة العامة، أتلقى في الأيام التي تلي رسالة من الجيش الإسرائيلي يقدّم إلي فيها اقتراحات عن طريقة كتابة الوثيقة، مع الأمل في أنني، بالتالي، سأعدلها.

ولا تتم بالتأكيد الإشارة إلى المشروع الذي أرسلته. فمن الناحية الرسمية يعرف «تساهال» أنني في صدد التحضير لتقريري الدوري ويقترح مساعدتي عن طريق إبراز بعض النقاط المحدّدة التي تهمه كثيرًا وتعرضه من وجهة نظرها!

اهتمّ الإسرائيليون أكثر فأكثر بالقسم الأوسط من قطاع العمليات، أي بنت جبيل. وتشتهر هذه البلدة الصغيرة بأنها أحد مراتع حزب الله الأهم في المنطقة، إلى جانب قانا التعسة الذكر. وبين هذا المركز السكني والخط الأزرق يحتل أربعة مراقبين قاعدة دورية مراقبة الهدنة التي تُسمى قاعدة دورية الراس، نسبة إلى قرية مارون الراس التي تحدّها جنوبًا. تضاعف عنف القصف الإسرائيلي دعمًا لانطلاق عمل برّي تقوم به وحدات القوات الخاصة «ماغلان» ودبابات الكتيبة الثانية والثمانين. وهي واحدة من المرات الأولى التي نشهد فيها على تبادل لإطلاق النار المباشر بين الجيش الإسرائيلي وحزب الله. وقد انخرطت فيه المروحيات الهجومية. انتاب الذعر نحو أربعين قرويًّا طردهم الدمار، فتقدموا إلى قاعدة دورية الراس بحثًا عن ملجأ. ولم يستطع مَن في المركز الرفض في مثل هذا الوضع. وتكوّم الجميع، بمن فيهم المراقبون في الحصن الخراساني الموجود تحت المركز تمامًا، في مساحة ضيقة لا تحتوي من المؤن والماء إلا ما يكفي عناصرها الدائمين الأربعة. وسقطت، بعد الظهر، قذائف مدفعية عدة في الجوار، وأدت ثلاث رمايات من مدفع إحدى الدبابات إلى تدمير جزء من البنى التحتية للمركز نفسه وحطّمت خزان مياهه. وهذه ليست مصادفة. فإذا لم يكن في الإمكان ضمان دقة القصف المدفعي بنسبة مئة في المئة واحتمال أن تسقط طلقات، تُسمى بالشاذة، بعيدة نسبيًّا عن الهدف، فهذه ليست حال إطلاق النار بمدفع الدبابة. فهذا السلاح يُستخدم تقريبًا كالبندقية، إذ يجب في الحقيقة تسديد شبكة المنظار على الهدف لإصابته. ولا يمكن لهذه القذائف الثلاث من عيار ١٢٠ ملم التي أطلقتها دبابات الميركافا إلا أن تكون نتيجة خيار مقصود. ومرّة أخرى يتعلّق الأمر برسالة لردعنا عن استقبال المدنيين

في فنائنا، ومن باب أولى في ملاجئنا. وبعد ثلاثة أيام تمكن ضيوفنا، بفضل فسحة من الهدوء، من مغادرة المكان الذي باتت الإقامة فيه شبه مستحيلة. ومنذ تلك اللحظة لن تتعرّض قاعدة دوريات الراس لمضايقات. وربّما تمّ ذلك لعدم بقاء الكثير لتدميره على السطح.

وستتجدّد عمليات إطلاق النار المشابهة، التي تتطلب دقة في التصويب، في الأيام التالية. وستستهدف خصوصًا خزانات مياه المراكز، وهي غير محمية وغير مخفية. بل هي على العكس ماثلة في وضوح للعيان، لأنها موضوعة في أمكنة مرتفعة لتسهيل مد الشبكة المحلية بواسطة الجاذبية. ونادرة جدًّا هي المواقع التي تمتلك مصدر المياه الخاص الذي يمكنها التزوّد منه مباشرة. وأمل الإسرائيليون، بتدمير الخزانات وتصعيب الإمدادات، في إجبار رجالي على الإخلاء. فنحن في المدة الأشد حرارة في السنة. ويمضي جنود السلام ساعات طويلة مسجونين تحت الباطون وبالتأكيد من دون أي أجهزة تكييف. وسيصمدون حتى لو أنهم في الكتيبة الهندية، خصوصًا، وسيمضون جميعهم الأسبوع الأخير من النزاع بلتر واحد من الماء في النهار لكل رجل. وهذا رقم قياسي في هذا الفصل. ولن يبقى في الكثير من المراكز، مع انتهاء النزاع، إلا ما يكفي للبقاء يومًا أو يومين. ولماذا لم تسع اليونيفيل إلى حماية احتياطيها الذي لا غنى عنه للبقاء والاستمرار؟ فدومًا لأنها، ومنذ إنشائها، قوة حفظ سلام تتصرف بموجب هذا الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة الذي يشترط التعاون التام والكامل من الأطراف المعنيين الذين يتعهدون طوعًا تطبيق شروط القرار بل وحتى ضمان أمننا، على عكس القرار الموضوع تحت الفصل السابع الذي يفرض المجتمع الدولي تطبيقه على المتنازعين. فنشاطاتنا تتم على مرأى ومسمع من الجميع، إذ يمكن فهم أي إجراء خاص نتخذه على أنه من الإجراءات التي تشكّل تحدّيًا لشركائنا اللبنانيين والإسرائيليين. ويجب عندذاك إيجاد المبرّر. فليس من «الصحيّ سياسيًّا» تصوّر أن الوضع يمكن

أن يسوء. أهي مثالية، أم ثقة بالنفس مبالغ فيها، أو البحث عن وضع يجبر كل واحد على احترام تعهداته؟ إنه، بلا شك، قليل من الأمور الثلاثة. وهذا لا يمنع أن الهم الرئيس يبقى حماية الرجال، من هنا وجود حصن في كل موقع.

لم يتغيّر شيء منذ إنشاء القوة عام ١٩٧٨. ويدرك الإسرائيليون ذلك جيدًا وهم الذين دأبوا منذ ٢٨ عامًا على مراقبتنا، كل يوم بيومه، ويبحثون عن الاستفادة من كل نقاط ضعفنا لحملنا على الخضوع. ولن تنقصهم المخيّلة للقيام بذلك في الأيام التي تلي.

٢٠ تموز/يوليو – الإجلاء إلى قبرص

تمكنت الشعبة اللوجستية في المقر العام للأمم المتحدة من العثور على باخرة توافق على تولّي الرعايا الأجانب في صور ونقلهم إلى لارنكا. وهكذا يعود هذا المرفأ القبرصي إلى ساعات الحرب الأهلية اللبنانية (١٩٧٥ - ١٩٩٠) عندما أصبح، على مدى سنوات كثيرة، نقطة الوصول الأولى للعائلات الهاربة من المعارك. واضطرت نيويورك إلى التفاوض مع الإسرائيليين على روزنامة عملية الإجلاء، بعدما وجدت بلاد الأرز نفسها معزولة تمامًا على أثر واقع فرض إسرائيل حصارًا بحريًا وجويًّا صارمًا جدًّا. وبات لا يمكن لأي سفينة بلوغ أي مرفأ لبناني من دون ضوء أخضر من الإسرائيليين الذين حدّدوا منطقة بعرض أميال عدة يُمنع فيها وجود أي سفينة تحت طائلة اعتراضها، لا بل تدميرها. وعندما يُسمح لسفينة بالمرور، يتم الأمر تحت الإشراف المباشر للبحرية الإسرائيلية، وفي النهار فحسب، وخلال فسحة زمنية صارمة، مع توقيت ساعة دخول المنطقة ونقطة محدّدة تقدّم نفسها فيها، على أن تبحر من ثمّ في ممر لا يمكنها أن تحيد عنه يوصلها إلى المرفأ المقصود. ويتوجب عليها أن تعود، متى انتهت من أعمالها، بموجب المتطلبات نفسها، وتبلغ قبل الساعة

المحددة، دائما نهارًا، نقطة الخروج من منطقة الحصار. فتدخل بعد ذلك المياه الحرّة.

ولا تترك المواعيد والمسالك المفروضة سوى القليل من الوقت لتخصيصه لعمليات الصعود إلى الباخرة التي عكفتُ على إعدادها منذ العشيّة. ولم يمنحنا أي من الأطراف هدأة، ومن الأفضل لنا توقّع الأسوأ. وتشكّل استراحة صور نقطة التجمع التي سننقل منها بآلياتنا المصفحة المرشحين إلى الرحيل مجموعة تلو الأخرى. أشرف الجيش اللبناني على الطريق بين المجمّع الفندقي والمرفأ، التي تجتاز المدينة القديمة ويجب أن تبقى مفتوحة طول وقت الإجلاء. وتفاديًا لزحمة السير مُنعت كل السيارات الخاصة من التوجه مباشرة إلى الأرصفة الضيقة جدًا ولا تسمح باستيعاب العدد الكبير من السيارات التي تقرّر أن تبقى متوقفة في الاستراحة.

أطلت باخرتنا «سيريناد» قبالة صور في بداية الصباح، وعلى متنها مفرزة من رفاقنا في قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام في قبرص التي تقضي مهمتها بتسهيل استقبال الأشخاص وكذلك إنزالهم في قبرص. وصلت هذه السفينة، وهي كناية عن ناقلة صغيرة للركاب، إلى مرفأ لا تعرفه. ومن المؤكد أنها لن تعثر فيه على قبطان يقود إرساءها، ناهيك باستمرار عمليات إطلاق النار في المنطقة. واختار القبطان، عن حذر، البقاء خارج الحوض واستخدام مراكب إنزاله لنقل الركاب. وسارع إلى وضع مركبيه الوحيدين الأكثر سعة، في الماء. وبدأت عمليات الدوران على الفور. فبعد التدقيق في هويات مجموعات الرعايا الأجانب في الاستراحة الذين يتناسب عددهم مع مقدرة الزورقين على الاستيعاب، نقلوا إلى المرفأ حيث أصعدوا في أسرع ما يمكن. وحرصنا قدر الإمكان على عدم تعريضهم لأن المخاطر مستمرّة. أطلقت صواريخ من مكان قريب استدعت الردّ المؤكّد. وشكّلت لحظة الإبحار هذه تحريرًا، إن

بالنسبة إلى القبعات الزرق، وإن بالنسبة إلى المستفيدين من هذه الرحلة، إلى سماوات أكثر رحمة بعدما عاشوا أسبوعًا من الرعب مختبئين مع عائلاتهم في الأقبية أو في ضيافة الاستراحة، يقتصدون المؤن والماء، ويعيشون شكوكًا مؤلمة في شأن سفر بقي، طويلًا، مسألة افتراضية. ومن حسن الحظ أن معظمهم امتلك أجهزة لاسلكي للبقاء على اتصال معنا. وبرهنت مفرزة اليونيفيل التي ساعدتهم في مكان وجودهم منذ البداية، مرات عدة، على أنها تستطيع مواجهة الحالات الطارئة. ولكن يصعب تحمّل مثل هذه الأوقات الضاغطة، فتنهار أحيانًا أعصاب من نتولّى حمايتهم مع اقتراب الخلاص. ومع ذلك عرف جميع الموجودين منّا هناك، أيًّا تكن وظيفتهم أو جنسيتهم، كيف يظهرون القدر الأكبر من الإنسانية. فقد أصبح جنودنا رجالًا مراعين وخدومين، يساعدون الأمهات اللواتي على أهبة الانطلاق، فيلاطفون الأولاد أو يحملونهم. وذلك كلّه وهم يظهرون القدر الأكبر من الهدوء على رغم أنهم باقون هنا ولا يعرفون ما يخبئه لهم الغد. عملت آلية الدوران بأفضل ما يمكن، في انتظام ومن دون عوائق، إلى أن تعطّل أحد الزورقين بما لا يمكن تصليحه. وما من وسيلة لاستبدال أي مركب يرسو في المرفأ به. تصاعد التوتر، وانخفضت وتيرة نقل الركاب في شكل ملموس جدًا. أصيب الأشخاص المنتظرون بالقلق، وفقد بعضهم الأمل، فيما تتصاعد أمام أبصارهم أعمدة الدخان من الحوش، مكان الإقامة القديم للكثيرين ممن غادروها منذ مدة وجيزة. فالجيش الإسرائيلي يواصل قصفه.

نجحنا أخيرًا في نقل الجميع قبل هبوط الليل. اطمأن القبطان بعض الشيء، بعدما أخذ ينفد صبره، وأمل في بلوغ نقطة الخروج التي فرضتها إسرائيل قبل الساعة المشؤومة. فمعه على المتن ٩٥٠ شخصًا وقد خففت عنهم مغادرة منطقة الاضطراب هذه، لكنهم قلقون أيضًا على أزواج بقوا في أماكنهم وعلى الممتلكات التي اضطروا إلى التخلي عنها. وحوّل تنوّع الركاب الباخرة ما يشبه سفينة نوح: الكثيرون من اللبنانيين ممن يحملون جنسيات

مزدوجة أوروبية، أفريقية، أميركية أو كندية؛ ومن ثم أجانب حقيقيون ممن أقاموا طويلًا في جنوب لبنان أو ممن هم في إقامة مهنية تمتد من بضعة أشهر إلى بضع سنوات؛ وفرنسيون لم يتمكنوا من بلوغ بيروت فاستقبلهم وأخذهم على عاتقه مواطن لهم من ذوي القبعات الخضر بصفته عميلًا قنصليًّا؛ بعض البريطانيين ممن فوجئوا بإنكليزيتنا الأمم المتحدية التي لا تمت بصلة أحيانًا إلى لغة شكسبير؛ الكثيرون من رعايا بلدان جنوب أوروبا المتوسطية؛ وبالطبع عائلات الأمم المتحدة وموظفوها وهم في النهاية غير كثيرين.

رحلوا. وبقينا مع الوقائع على الأرض ومع نصرالله الذي أعلن أنه لا ينوي أن يطلق أسيريه الإسرائيليين من دون شروط. ولما تبلّغتُ أخيرًا أن الجميع وصلوا في اليوم التالي إلى ميناء الأمان شعرت الارتياح والفرح. نجحت المهمّة، أقلّه بالنسبة إلى عملية الإجلاء هذه التي ليست في النهاية سوى فصل بلغ نهاية سعيدة فيما لا يزال أمامنا الكثير لنفعله.

تلقيت بعد وقت، رسالة مؤثرة جداً، من جملة الرسائل الإلكترونية التي بلغتني، وقّعتها سيّدة أميركية. فقد وجدت نفسها وحدها في صور مع أولادها الثلاثة عندما اندلعت الحرب. اضطربت ولم تعرف ما تفعل خصوصًا أنها لا تملك سيارة، فطلبت المساعدة من قنصليتها في بيروت التي أجابتها أن عليها أن تتدبّر بنفسها وبوسائلها الخاصة الوصول إلى السفارة. ومع استحالة ذلك، جاءت لتضع نفسها تحت حمايتنا. وأمكننا أن نرحّلهم أربعتهم بحرًا وبلغوا الولايات المتحدة سالمين. وبوصولها كتبت إلي المرأة لتشكرنا، واصفة رحلتها، ومشدّدة على لطافة جماعة فريق حفظ السلام في قبرص، وناقلة إلينا أخبار أولادها. عاملتنا بعض الشيء، وبكثير من الطبيعية، كأننا عائلتها. وانتهت إلى هذا الاعتراف المؤثر. قالت لي: لو وجدت هوية أمم متحدية لاخترتها طائعة مختارة بدلًا من جنسيتي الأميركية. إنها علامة تقدير جيّدة سارعتُ إلى

تعميمها على أنها هدية مُستحقة. توجد في وضع مضطرب كهذا كلمات توفّر من الطاقة والزخم أكثر مما يبدو. Thanks a lot! (شكرًا جزيلًا – وردت في النص بالإنكليزية).

٢١ تموز/يوليو – بعد مكبّرات الصوت، المناشير

استمرّت حركة المدنيين في اتجاه الشمال. وكثيرون هم الذين سعوا إلى اجتياز الليطاني على أمل الوصول إلى مكان آمن. وهو أمل أثبت أنه افتراضي لأن جنوب لبنان ليس الوحيد الذي يدفع تكاليف المواجهات. ففي بيروت، على سبيل المثال، أصيبت حتى ثكن الجيش اللبناني إصابات بالغة، في حين قام العسكريون بكل شيء للإفهام أنهم ليسوا إلى جانب حزب الله. ولم يثبط الجيش الإسرائيلي هذا النزوح بل على العكس تلقّى الكثير من القرى المحاذية للخط الأزرق مناشير ألقتها الطائرات التي تحمل نجمة داود تطلب إلى السكان مغادرة المنطقة واجتياز الليطاني تحت طائلة التعرّض لأضرار العمليات الجارية. وهنا يذهب الإسرائيليون إلى ما هو أبعد كثيرًا من حثّهم السابق الذي اكتفوا فيه بالطلب إلى سكان المنطقة الأمنية الخاصة المستقبلية وحدهم إخلاء المكان. فهم يحبّذون كل ما من شأنه خفض عدد السكان في الداخل وعند تخوم خطّهم الوقائي المستقبلي. ولعدم تثبيط عزيمة الذين يودّون المغادرة تركوا لهم الحرّية النسبية في الحركة على الطرق التي لا يزال في الإمكان استخدامها. بل هم طلبوا إليّ تحديد محاور الإخلاء الرئيسة وطرحها من أجل تسريع العملية. لكنهم تصلّبوا في ما يتعلّق بكل تحرّك للآليات صوب الجنوب، وأبلغونا أن هذه الأخيرة ستشكّل أهدافًا لأنهم يرتابون في شكل منهجي في إمكان تموينها حزب الله.

شرعت وحدات إسرائيلية صغيرة تعمل بشكل شبه مستمر في الأراضي اللبنانية محاولة التقدم شمالًا في المنطقة العازلة التي تريد إقامتها، وأيضًا لدعم وحدات الهندسة التي تدمّر مواقع تخلّى عنها حزب الله. واستخدم بعضها الكلاب لشم الأفخاخ أو أي وجود بشري. وارتسم محوران للجهد، أحدهما في الغرب يمرّ بمروحين لينحرف من ثمّ على الأرجح صوب الشمال الغربي والبياضة بهدف عزل منطقة الناقورة. والآخر أبعد إلى الشرق انطلاقًا من قاعدة دوريات الراس في محاولة لمحاصرة بنت جبيل والسيطرة عليها. وانضم مظلّيو الكتيبة الـ١٠١ ووحدة القوات الخاصة «إيغوز» إلى وحدة «ماغلان». فالجزء الشرقي من الخط الأزرق بين خط نقطة التقاطع الثلاثية[٢٤] وجبل حرمون، هادئ جدًا نسبيًا. وعند هذه المرحلة من النزاع، رأى الجنرال غانتز، وهو الآن رئيس أركان جيش البرّ، أن «العملية معقّدة وصعبة ولكن مُحفّزة».

على المحور الغربي أصيب المركز ١-٢١ القريب من مروحين بقذيفة أطلقت من المركز الإسرائيلي «و٤١١» الذي تلقّى أولى قذائف حزب الله في النزاع. وربما شعر «تساهال» ببعض الندم فأذاع على الفور بيانًا صحافيًا يوضح أن صاروخًا من صواريخ حزب الله أصاب موقع الأمم المتحدة. ولكن تبيّن، بعد الكشف الذي قمنا به، أن الأمر يتعلّق بقذيفة مدفعية من عيار ١٥٥ ملم، وهو نوع الذخائر الذي لا يملكه حزب الله. ومن الواضح أن احتجاجي الرسمي الذي تبع ذلك لن يغيّر شيئًا، وستقع حوادث أخرى من هذا النوع. فكل شيء جيّد للجيش الإسرائيلي إذا كان يخدم قضيته، بما في ذلك البيانات الخاطئة. غير أن الفشل كان من نصيبه هذه المرّة.

(٢٤) نقاط التقاء خط الحدود بين لبنان وإسرائيل وسورية.

ورفض حزب الله، من جهته، خطة للأمم المتحدة تقترح وقفًا فوريًا لأعمال العداء وتحرير الرهينتين. غير أن السكان المحليين هم الذين سيكونون الضحية الكبرى لأعمال هذا الطرف وذاك: فقد قُتل ٧١ مدنيًا في صور في هذا النهار فقط. وأدركت وزارة الداخلية الأمر تمام الإدراك وطلبت الينا تسهيل إخلاء يارين وأم التوت وزلوطية والبستان.

ها قد مرت عشرة أيام على بدء النزاع ولم تتلقَّ اليونيفيل أي تموين من الخارج. فنحن نعيش على اكتفائنا الذاتي الأساس الذي يكفينا ١٥ يومًا، وقد استهلكنا ثلثيه حتى الآن. وعلينا أن نفكّر جدّيًا في المضي إلى ما هو أبعد من المهل الزمنية المخطط لها قبل أن نتمكن من إعادة التموين. وعمدنا، بالتأكيد، منذ البداية، إلى خفض كبير في استهلاكنا من الغذاء والماء والمحروقات. غير أن علينا القيام بما هو أفضل والتحضير بالأخص للمستقبل. وتبين أن الضابط اللوجستي عندي ذو طبيعة متهوّرة بالأحرى ويعيش على أمل أن الأمور ستترتب في النهاية. لكن ثقته بالمستقبل لا تكفيني فطلبت الاطلاع يوميًا على الوضع اللوجستي الدقيق، ليس في شكل عام بل في كل مركز تقريبًا، مع تقدير لعدد الأيام التي يمكننا بعد أن نصمد فيها.

أخذت التنقلات تتعقّد أكثر فأكثر ولم يعد في الإمكان تموين كل المواقع بالسهولة نفسها. وبدت عندذاك الناقورة وكتيبتها اللوجستية البولندية، بالنسبة إلى البعض منها المعزولة أكثر من غيرها، بعيدتين جدًا. وأصبح الجيش الإسرائيلي أكثر فأكثر تردّدًا في منحنا نوافذ للحركة وانتهيت إلى الكف عن الطلب. غير أننا نتدخّل أحيانًا في بعض من أعماله، الأمر الذي يثير امتعاضه الكبير، فيُعلمنا ذلك بعبارات... متفجّرة. وإذا كان الغذاء مشكلة أقل إثارة نسبيًا للقلق لأن لدى كل مركز في الغالب مخزونًا أكبر بكثير من العدد المطلوب، فإن حال الماء والمحروقات ليست كذلك. فالكميات محدودة لأن

التموين يتم عادة بواسطة شاحنات الصهاريج. وقد دمّر الإسرائيليون بالفعل الكثير من خزانات مياه المراكز ولم يتبقَّ في الغالب إلا مخزون المياه المعبّأة في الزجاجات والذي يتناقص سريعًا في موسم الصيف هذا. فحتى الآن تم توفير مستودعات المحروقات، بيد أن كل المراكز تؤمن طاقاتها الخاصة بواسطة مولداتها التي تعمل في شكل دائم أقلّه لتشغيل محطات اللاسلكي. وخفضنا الاستهلاك إلى الحد الأقصى. لم يعد من الوارد استخدام مكيفات الهواء، فيما الحصون محرومة إياها على أي حال، ولم تعد إضاءة المحيط واردة ليلًا، ولم يعد العلم الأزرق بالتالي مرئيًّا لكن ذلك لن يزيد الوضع سوءًا نظرًا إلى الأهمية التي يعلّقها الأطراف عليه.

عرفتُ أن فرنسا أوفدت سفينة مراكب الإنزال «سيروكو» إلى قبالة بيروت لإجلاء رعاياها. وربّما أمكنها مساعدتنا في إعادة التموين. ولم يعد ممكنًا الاعتماد على المنشآت المرفأية في صور، لكن الناقورة تمتلك مرفأ صغيرًا للصيد يمكنه استقبال المراكب التي تحملها «سيروكو». أجريتُ اتصالًا هاتفيًّا مباشرًا بهيئة أركان الجيوش في باريس للتأكد في صفة شبه رسمية من إمكان القيام بعملية من هذا النوع. أتى الجواب، ولفرحتي الكبرى، إيجابيًّا وبادرتُ باقتراح هذا الحلّ على المقر العام للأمم المتحدة الذي لم يتبقَّ أمامه سوى ترجمة حاجاتي طلبًا رسميًّا موجّهًا إلى الحكومة الفرنسية. وسيسير كل شيء بعد ذلك سريعًا. وسبق في ليلة ٢٢ - ٢٣ تموز/يوليو أن أجلي جندي فرنسي لتجرى له جراحة مستعجلة لإصابته بالفتق. اقتربت مروحية وقد أطفأت كل أنوارها من معسكرنا بحرًا، وهي تحلّق على مستوى الموج. جاءت من «سيروكو» وحطّت على منصّة المفرزة الجوية الإيطالية وحمّلت المريض ومحرّكها لا يزال دائرًا ثم عادت إلى سفينتها كما جاءت. وقد حدث ذلك كلّه في مجال جوّي فوق شاطئ يستمر فيه إطلاق النار. وعرفت في وقت مبكر من صباح اليوم التالي أن الجندي خضع للجراحة وهو في حال جيدة. فالاستفادة من سفينة، ولو بعيدة،

يمكنها أن تمدنا بالدعم في مهلة قصيرة جدًّا فيه ما يريح خصوصًا أننا أخذنا نشعر أكثر فأكثر بعزلتنا. أما نحن فإن ساحرات العقول المؤذنة بإجلائنا لم تغنِّ بعد.

٢٢ تموز/يوليو - إفراغ جنوب لبنان مستمر

يعمل الإسرائيليون الآن، على محوري الاختراق الرئيسين، على البقاء في شكل مستمر شمال الخط الأزرق. فمن الغرب بلغت الكتيبة الـ٢٩٩ مروحين، وفي الشرق أمسك لواء المظليين الخامس والثلاثون بمارون الرأس التي كلّفت حزب الله نحو عشرين قتيلًا. وهم، في سعيهم المستمر إلى التقدم، يواصلون نهارًا استخدام وسائل الهندسة من متفجرات وجرافات لتدمير مواقع حزب الله التي حاصروها وتجاوزوها. أما في الليل فإنهم يخففون إلى الحد الأقصى من ترتيباتهم حتى لا يقعوا ضحايا العودة الهجومية للميليشيات. فهم لا يعرفون طبيعة الأرض جيدًا ويريدون التخفيف من المخاطر. ومع فجر اليوم التالي تنضم وسائل إضافية إلى الموجودين في الخط الأول في محاولة للمضي قدمًا.

أما حزب الله فيزيد، من جهته، يومًا بعد يوم في غاراته الإنهاكية. فيما يعود ليلًا إلى المواقع التي اضطر إلى التخلي عنها من قبل حيث يتمكن حتى من استئناف إطلاق الصواريخ بما ينال من معنويات عدوّه. وقد بدأ هذا الأخير أيضًا بإشعال قطاعات أخرى من الخط الأزرق. وهي حال منطقة الخيام التي تقع مباشرة شمال المطلّة وتفتح الطريق في اتجاه مرجعيون المدينة الثانية في منطقة العلميات بعد صور. وتعرّضت قاعدة مراقبي الهدنة في سياق النهار لتسع عمليات إطلاق نار «قريب» أعقبها كلّها احتجاج لا جدوى منه رفعتُه إلى الجيش الإسرائيلي. وتمهّد عمليات إطلاق النار هذه، في وضوح، لاختراق إسرائيلي جديد في هذه المنطقة. وقد أصبحت مراكز عدة لليونيفيل معزولة بالفعل في منطقة تسيطر عليها إسرائيل في شكل دائم، الأمر الذي ولّد أحجية جديدة عن سبل تأمين تموينها.

حاول الأمين العام، عبثًا، التفاوض على وقف للنار مدته ٤٨ ساعة لإجلاء من يرغبون في ذلك في منطقة المواجهات. أما السلطات اللبنانية فلا تزال منقسمة جدًا حيال الموقف الذي يجب تبنّيه بشأن رغبة سكان جنوب لبنان في المغادرة. فقد تمسّك فؤاد السنيورة بموقفه: من غير الوارد تسهيل العمليات الإسرائيلية بالسماح بالمغادرة. غير أن الموقف أصبح لا يُطاق في الكثير من الأماكن واضطر إلى الموافقة على إجلاء الأكثر عرضة: الجرحى والمرضى والمتقدمين في السن. وطلب إلي تولي المهمة. وذهب وزير الداخلية، تحت ضغط الأحداث، إلى أبعد من ذلك وطلب إلي إجلاء الراغبين من قرى الطيري وميس الجبل وحولا ويارون وتبنين وشقرا، وهم آلاف عدة من الأشخاص يقيمون، مع ذلك، خارج المنطقة الأمنية الخاصة المستقبلية التي حدّدتها إسرائيل. وقد شجّعهم في رغبتهم إسقاط المناشير الإسرائيلية، كما في تبنين التي انهالت عليها الأوراق الصغيرة الاستفزازية في نوع خاص والمهينة في حق حسن نصرالله. وساعدنا في سياق هذا النهار أكثر من ٦٠٠ سيارة مدنية في محاولة شق طريقها نحو الشمال. غير أن جميع الناس لا يملكون سيارات أو لا يمكنهم الإفادة من تعاطف جار لهم. واضطر البعض منهم إلى البقاء. وهكذا جاء ٦٩ شخصًا طلبًا للملجأ في المركز الغاني ٨-١٨ القريب من خربة سلم. وتشاء المصادفات أن يكون هذا الفصيل هو الذي توجّب عليه حلّ مثل هذا النوع من الحوادث خلال مناورة Dare Not (إياك أن تجرؤ) التي أجريت تمامًا قبل بدء أعمال العداء. وللموقف المختلف ردّ فعل مختلف: موّنّا الطالبين وحاولنا إيواءهم. وقد أعطي الإسرائيليون بالتأكيد علمًا فوريًا بهذه المبادرة الإنسانية. وسيعود ضيوفنا أخيرًا، في اليوم التالي، إلى منازلهم. وكذلك فضّل القرويون البقاء في أماكنهم على التخلّي عن ممتلكاتهم. وسمحت لنا وصلة تمكّنّا من شقّها في صور من جلب الطحين لهم وتحسين الحياة الطبيعية التي صار من الصعب أكثر فأكثر توفيرها.

ولا يكفي أننا اضطررنا إلى إدارة المدنيين، إذ توجّب علينا الآن الاهتمام أيضًا بالجنود اللبنانيين. فقد طلبت إلينا وزارة الداخلية مواكبة ١٥٠ عنصرًا من القوة الأمنية المشتركة يريدون الانسحاب إلى بنت جبيل وتبنين. فالإسرائيليون موجودون في مارون الراس، ومن الواضح أن هدفهم المقبل هو مكان تمركز هذه المفرزة اللبنانية. وتريد السلطات اللبنانية النأي بنفسها ما أمكن عن نشاطات حزب الله والمحافظة على الانطباع أن هذا النزاع فُرض عليها وأنها لا ترغب في استمراره. غير أنها لا تريد مع ذلك التنكّر لحزب الله. وهو موقف يصعب التمسّك به ويشكّل السبب الذي يدفعها إلى تفضيل البحث عن ضمان دولي لنقل آلياتها العسكرية وجنودها المسلحين. فقد تكبّدت القوات المسلحة اللبنانية خسائر ودمارًا تقصّد الإسرائيليون إلحاقهما بها، وهي تريد تفادي تكرار ذلك. وتبحث بالتالي عن إظهار الاستكانة وغياب أي تواطؤ ظاهر. سوى أن هذا الموقف لن يمنع لاحقًا انتشار النظرية التالية: إذا تمكّن حزب الله من إصابة سفينة حربية إسرائيلية في البحر بصاروخ فإن ذلك ربما بفضل تعاون الرادارات الساحلية التابعة للبحرية اللبنانية. وبعد تحضير هو من الأكثر صعوبة وبعد الكثير من المواربات، سيلتحق الجنود اللبنانيون وعناصر قوى الأمن الداخلي أخيرًا، بمواكبة من اليونيفيل، بمقرهم الجديد، لكنه مقرّ موقت لأنهم سيواصلون بعد ذلك ببضعة أيام هجرتهم صوب الشمال.

٢٣ تموز/يوليو - إخلاء قاعدة دوريات الراس

أبقى الإسرائيليون ضغطهم على مجمل الخط الأزرق على رغم أنهم لا يتقدمون إلا ببطء شديد. ويتركّز الجهد في نوع خاص على الوسط، في مارون الراس حيث راقبنا عشر دبابات ميركافا ونحو عشرين ناقلة جند. وهم يسعون إلى مواصلة تقدّمهم في اتجاه بنت جبيل بعدما استدعوا الآن الكتيبة الـ٥١

من لواء غولاني الشهير، أو لواء المشاة الأول وهو لواء الدروز. واصطدمت هذه العملية التي أطلق عليها اسم «النسيج الفولاذي ١» بمقاومة ميليشيات حزب الله القوية التي شكّلت أوكارًا للمقاومة وتمركزت في المنازل المهجورة. وواصل المغيرون أيضًا أعمالهم في العمق وانقضت طائراتهم اليوم على تبنين الواقعة على بعد تسعة كيلومترات شمال بنت جبيل على المحور الجنوبي الشمالي الوحيد للنصف الغربي من منطقة عملياتنا. وتقوم الطائرات بقصف يستهدف مساكن حُدّدت بالتأكيد منذ زمن بعيد. وقد دُمّرت فيلّا رئيس بلدية المدينة، السيد فواز، فيما سقط صاروخان داخل المركز الغاني ٦-٤٣، دمّرا الكثير من البيوت الجاهزة فيه ولم يتسببا، لحسن الحظ، بسقوط ضحايا. وتكرّر الحادث المؤسف في المركز الهندي ٩-٦٣ القريب من العديسة الذي تلقى مباشرة ثلاث قذائف إسرائيلية من عيار ١٥٥ ملم. وأصيبت المنشآت الحياتية بنكبة وخيمة، ولكن لم يسقط هنا أيضًا أي ضحية، على رغم أن أحد الحراس عاش وصول هذه القذائف من قمة برج مراقبته، وقد مزّقت الشظايا جدرانه إلا أنه نزل عنه سليمًا ولكن مشوّشًا بعض الشيء.

أصبحت قاعدة الدورية التابعة لمراقبي الهدنة في مارون الراس في قلب المعمعة. ومن حسن الحظ أن المدنيين الذين لجأوا إليها قبل خمسة أيام غادروها إلى أماكن أكثر أمنًا. ولم يتبقَّ بالتالي سوى المراقبين الأربعة الذين لم يعد لديهم سوى حصنهم بعدما دمّرت الدبابات الإسرائيلية معظم البنى الخارجية. ولكن أمكنهم العيش فيه بطريقة أو بأخرى وبقوا على اتصال مع القيادة العامة في الناقورة. وواصلوا، في أوقات الهدوء، عمليات المراقبة لإبقائنا على اطلاع على ما يحدث. وبقيت مولدات الكهرباء تعمل لكنها تطلّبت طبعًا إعادة تزويدها بالوقود في شكل منتظم. وكان أن أصيب النقيب روبرتو بونزو (إيطاليا) إصابة بالغة في إحدى عمليات التعبئة هذه. إذ اضطر إلى الخروج لوجود الفيول والمجموعة المولدة للكهرباء في الخارج وتلقى رصاصة مجهولة

المصدر في بطنه. أُبلغنا الأمر على الفور على رغم التشويش الإسرائيلي المتكرّر على موجاتنا. وعلى الفور توجهت سيارة إسعاف مصفحة تابعة لليونيفيل وفريق من الصليب الأحمر اللبناني صوب القاعدة. لكن حال الطرق لا تسمح بالحكم المسبق على المدة الضرورية لوصول فريقي الإنقاذ إلى مكان المأساة. وأفادت قاعدة الراس أن حال الجريح تتدهور سريعًا جدًّا وأُجبرنا على توقّع الأسوأ. وتقع القاعدة على مسافة كيلومتر واحد فقط شمال السياج الذي يفصل بين لبنان وإسرائيل وربما لدى الإسرائيليين الوسائل للتدخّل في شكل أسرع على رغم العملية الجارية. طلبتُ على الفور إجراء اتصال بالقيادة الشمالية وشرحت لها الوضع وطلبت إخلاء جريحنا على الفور إلى جهتها ومعالجته في إسرائيل. ومن حسن الحظ أن الاتصال تم على الفور وأعطى الجنرال عودي آدم الضوء الأخضر. فأكّدت عندذاك هذه الموافقة بالاتصال برئيس أركان فريق مراقبي الهدنة في القدس الجنرال كلايف ليلي (نيوزيلندا). وهو سيقوم من جهته بما هو ضروري ليتم تعهّد ضابطه، كما يجب، ما إن يصل إلى إسرائيل. وأمرت المراقبين، في اتصال جديد بقاعدة دورية الراس، بنقل جريحهم في أسرع ما يمكن إلى الجانب الآخر من السياج الإسرائيلي حيث يتم انتظارهم. والسياج عادة متواصل من دون أي فتحة، ولكن يمكننا الآن الاستفادة من تلك التي قامت بها القوات الإسرائيلية لدخول لبنان. ويمتلك المراقبون غير المسلحين سيارة واحدة فطلبت إليهم أن يذهبوا جميعهم إلى إسرائيل. وهناك في الواقع الجريح والسائق وشخص ثالث يؤدي دور القائد ومن غير الوراد ترك العنصر الرابع وحيدًا في قاعدة الدورية. حُمّل المراقب الجريح سريعًا في البيك-أب الذي اندفع من دون تأخير في المنحدر الحصوي المؤدي إلى إسرائيل. واستُقبلوا عند السياج حيث تولى الجنود الإسرائيليون الجريح على الفور. وها إن مروحية تنتظر، على مسافة ما، على رغم إطلاق النار، لتُقله على الفور إلى مستشفى رامبام في حيفا حيث خضع للجراحة على عجل. وأخبرنا الإسرائيليون

في اليوم التالي أن حال الضابط الإيطالي مستقرّة وقد تم تفادي الأسوأ، على ما يبدو. شكرًا لهم على هذه الحال، وهي واحدة من الحالات النادرة التي أثبتوا فيها إنسانيتهم. وأنا متأكد من أن للجنرال عودي آدم دورًا كبيرًا في هذا. والعقبة الوحيدة هي الاضطرار إلى إخلاء قاعدة دوريات الراس التي لن تمكن العودة إليها. ولن يسمح الوضع بإعادة التمركز في ركام، على رغم محاولات عدة بذلها في اليوم التالي الضباط الناجون الثلاثة.

أمكن لنيويورك متابعة هذه التطورات في شكل شبه مباشر لأن الاتصال بالمقر العام سهل ودائم. فلدينا وسائل اتصال مسهبة: لاسلكي عادي ومُشفّر؛ هواتف تعمل عبر الأقمار الصناعية؛ خدمة الرسائل. حتى أننا نلتزم طقوس عقد الاجتماعات عبر الفيديو كلّما أمكننا ذلك. وعندما تكون ساعات بعض الظهر هادئة نسبيًا، أي حوالى الخامسة بحسب ما يفرض فارق التوقيت الزمني، نشاهد على الشاشة محاورينا العالميين في مانهاتن ويمكننا بهذه الطريقة التواصل في شكل أكثر سهولة بكثير. ونحن نشعر من ثمّ، خلال الحديث، أننا نغيّر بعض الشيء في محيطنا. إلا أننا سرعان ما نعود إلى واقع مهمتنا بعد الـ«Good Luck» (حظًّا سعيدًا) والـ«take care» (انتبهوا إلى أنفسكم) الختامية. ولكن يتملّكنا شعور بوجود من يساندنا ويساعدنا. ونحن على اتصال يومي بأعلى سلطات فريق إدارة علميات السلام، وطبعًا برئيسه جان ماري غويهينو (فرنسا)، ولكن أيضًا بمستشاره العسكري الفريق في الجيش راندير كومار ميهتا (الهند). ويفضّل هذا الأخير الاتصال بي في آخر نهار العمل النيويوركي ليتمكن من إطلاعي على التطورات والاتجاهات التي قد تنتج عنها توجهات جديدة وتوصيات لليونيفيل. ومن سوء الحظ أن سبع ساعات من الفارق الزمني تجعل نهاية بعد ظهره في نيويورك تصادف منتصف ليلي في الناقورة، مما يعني أنني أفيق دومًا من نومي الأول للرد على محدّثي. وبما أن الليالي قصيرة بالفعل، وأحيانًا مضطربة، أعترف بأنني لست دومًا من أكثر

الناس تقبّلًا ولا في أفضل مزاج ممكن! وقررت، صباح أحد الأيام، الاتصال به منذ بداية يومنا لأطلعه على أحداث الليل. كان الوقت عندذاك في الحقيقة مبكرًا جدًّا في نيويورك! وأعطت الغمزة مفعولها: وانتهينا إلى العثور على مواقيت تناسب كلينا.

استمرت الهجرة اللبنانية صوب الشمال، وبدا أن سكان قرى الجزء الشرقي من منطقتنا يستبقون التحركات الإسرائيلية المقبلة. راقبنا أكثر من ثلاثمئة سيارة تغادر مناطق الخيام ومرجعيون في محاولة لعبور الليطاني. وبقي آخرون في أماكنهم، على رغم الخطر أو لأنهم لم يعثروا على وسيلة نقل. وقمنا، كلما أمكننا ذلك، بتزويدهم بالماء أو حتى الخبز كما في الجبّين. وبين قوافل اللاجئين والطرق المقطوعة والقصف أصبح كل تحرّك يثير إشكالية. وهي إشكالية عززها حزب الله، فقد طلبت «المقاومة» منّا بواسطة مختار برج قلاويه حسين ريماتي، تنسيق مجمل تحرّكاتنا معها تحت طائلة التعرّض لإطلاق النار. واصطدم حزب الله بالتأكيد برفض قاطع ونهائي وطلبت إلى الرسول إبلاغ من أرسله أننا لا نتعامل إلا مع السلطات اللبنانية الرسمية. وذكّرته أيضًا، ولو من حيث الشكل، بأننا في حماية لبنان. ولم يتأخر الجواب إذ تعرضت في اليوم التالي إحدى ناقلات جنودنا للنار من أسلحة حزب الله الفردية ما بين كونين وبنت جبيل وتمزّقت إطاراتها. وقطعت الميليشيات في حولا الطريق على ناقلة أخرى وهي تخلي رعايا أجانب، لكنها تمكّنت من شق طريقها بالقوة.

أخذت المنظمات الإنسانية العالمية في التأثر جدّيًا من تدهور وضع السكان في منطقتنا. حتى أن الأمين العام المساعد للأمم المتحدة للشؤون الإنسانية السيد جون إيغلاند اتهم إسرائيل «بانتهاك الحق الإنساني». وأبلغتني القيادة الشمالية، تحت الضغط، أن تل أبيب تلقت طلبات عدة من الصليب الأحمر ومن المنظمات العالمية غير الحكومية التي تريد الاستفادة من ممرات تمكّنها

من نقل المساعدات في أمان. وقالت إنها على استعداد لتسهيل هذه التحركات بشرط أن تتم بالتنسيق معها وبمواكبة منّا. وهذا لا ينفي أن ذلك سيتم على مسؤولية المؤسسات الإنسانية. وأعطتنا نيويورك الضوء الأخضر لمحاولة مثل تلك العمليات وأوفدت اختصاصيًّا إلى بيروت لتنظيم ما أمكن جهود الجميع. وأبدت إسرائيل رسميًّا التعاطف والنيات الحسنة، ورددنا من جانبنا إيجابًا. لكن الكأس لا تزال حتى الآن بعيدة من الشفة.

٢٤ تموز/يوليو – يوم عادي

قدّمنا كل الدعم الإنساني الممكن إلى السكان، وكرّرنا الدعوة إلى ضبط النفس، وأبقينا المنتديات الدولية مطلعة على تطوّر الوضع. ولكن يتضح أننا لا نمتلك أي تأثير في مجرى الأحداث، بالنظر إلى أن قساوة المواجهة تتجاوزنا. ثم أن علينا، بالتأكيد، أن نستمر أطول مدة ممكنة ما دامت نيويورك لم تصدر إليّ الأمر بالمغادرة. وتقوم وزيرة الخارجية الأميركية السيدة كوندوليزا رايس بزيارة لبيروت حيث أعربت «عن قلقها العميق». وهذا تعبير مُلطّف لم يمنعها من الأمل في أن يرتسم النجاح الإسرائيلي سريعًا. وأعلنت بلادها في الوقت نفسه مساعدة إنسانية للبنان بقيمة ٣٠ مليون دولار.

لا شك في أن الإسرائيليين زاروا في مارون الراس ما تبقى من قاعدة دورية مراقبة الهدنة، لكنهم لم يعثروا على الكثير مما يثير الاهتمام على رغم مغادرة عناصر القاعدة، الليلة الفائتة، على عجل. وأحصينا ألف جندي إسرائيلي في بنت جبيل، لكننا شعرنا أن تقدّمهم بطيء وأنهم يواجهون مقاومة شديدة من حزب الله. ويشهد على ذلك النشاط المستمر للمروحيات الهجومية، وإصابة دبابتي ميركافا. ولم يسلم ما تبقى من الخط الأزرق. فقد أخمدت آلياتنا المخصصة لمكافحة الحرائق والتي يشغلها البولنديون، حرائق عدة أحدثتها

القنابل الحارقة في قرية الناقورة. وتلقى المركز الغاني ٥-٢٢ جنوب رميش قذيفة مباشرة من دبابة إسرائيلية. ولا يمكن التصديق كثيرًا أن ذلك حدث خطأ! أصيب أربعة جنود من القبعات الزرق ولكن أمكن، ولحسن الحظ، إجلاؤهم إلى مستشفانا في مقر القيادة العامة للقوة.

شهد هذا اليوم الأول من الأسبوع الجديد من النزاع فسحة صغيرة: فقد أبلغتنا نيويورك وصولَ «سيروكو» غدًا قبالة شاطئ الناقورة. وقد حُمّلت السفينة في قبرص بمؤن مخصصة لنا ستحاول إنزالها. وهي، في الأساس، من المحروقات التي تشكل حاجة أولية لآلياتنا كما لمجموعات توليد الكهرباء في المراكز.

٢٥ تموز/يوليو – مأساة قاعدة دوريات الخيام

بدأ هذا النهار بطريقة جيّدة نسبيًّا، لأننا شاهدنا مع ساعات الصباح الأولى «سيروكو» تأخذ موقعها قبالة الناقورة. بقيت على مسافة بعيدة من الشاطئ حيث يتواصل القصف، وعلى أهبة الاستعداد للابتعاد في حال الإنذار بإطلاق صاروخ عليها. فقد احتفظ قائدها في ذهنه بما حصل للبارجة الإسرائيلية «حانيت» في الرابع عشر من تموز/يوليو. ومذذاك أطلق حزب الله صواريخ عدة مضادة للسفن، ولم يتمكن إلا من إغراق سفينة صغيرة لا علاقة لها بالوضع. أدخلت السفينة البلسم إلى قلوبنا، إذ إنه تموينا الأول منذ ١٢ تموز/يوليو. وحاملة مركب الإنزال الفرنسية مصممة في الأساس لإبرار الجنود لكنها عُدّلت هنا إلى نسخة لإجلاء الرعايا وخُفّض عدد مراكبها إلى الحد الأدنى. وهكذا فإن مركبين لنقل العتاد سيقومان بجولات مكوكية بين سفينة السحب ومرفأ الصيادين الصغير. وقدرة تحميل هذين المركبين محدودة، وستستمر عمليات الذهاب والإياب حتى هبوط الليل. وسواء أفرغت السفينة حمولتها أم لا،

فستضطر أن تبحر، وتغادر في تمام الساعة المحددة منطقة الحظر التي فرضتها إسرائيل تحت طائلة الاصطدام بإرادة تل أبيب السيئة عندما ستريد العودة. وقد انتظرنا بصبر نافد المحروقات التي بلغ مخزوننا منها حدًّا حرجًا. سوى أن من غير الممكن تحميل شاحنات الصهريج على مركبي الإنزال الصغيرين. ولم يعد أمامنا سوى الاستعاضة عنها ببراميل سعة ٢٠٠ لتر للحصول على هذا السائل الثمين. وسيسمح كل ما حصلنا عليه بالاستمرار مدة أطول قليلًا. حتى أن «باشا»(٢٥) السفينة اقترح علينا إفراغ خزاناته لتموينا. لكن الفيول الذي اقتُرح علينا في سخاء لا يتناسب، لسوء الحظ، مع نوعية الفيول المستخدم في مولداتنا. إنها المخاطر التقنية! واكتفينا بالتالي بالفيول المحدّد الذي تم شراؤه لنا في قبرص. وحصلنا أيضًا على غذاء وطرود إنسانية سنفيد منها السكان المحليين الذين لا يزالون يعانون الأمرين. بيد أننا لم نترك مركبي الإنزال يعودان فارغين وحمّلناهما بـ٦٨ من الرعايا الأجانب الذين سيُنقلون إلى قبرص.

لا نزال من دون أخبار عن الزوجين المدنيين التابعين لنا اللذين عُدّا مفقودين في الحوش، غير أننا لم ننسهما. وأخيرًا تمكن في الصباح عنصر من الكتيبة الصينية من الوصول إلى الفيلا التي يُفترض أنها انهارت على موظفنا أوغوستان وزوجته. ولم تعد الطريق الساحلية منذ بضعة أيام صالحة للاستخدام، وتطلّب الأمر نقل معدات الهندسة الثقيلة عبر قانا. واضطر جنود البحث إلى شق طريقهم عبر ركام قرى مدمّرة عدة، تلك القرى التي طلب إليهم السكان مساعدة ليست لديهم الوسائل لتلبيتها. وكثيرًا ما ينتج عن ذلك سوء تفاهم وأحيانًا غضب لا يمكن تهدئته إلا بمساعدة عناصر الارتباط في الجيش اللبناني. غير أن هؤلاء، على رغم تفانيهم باتوا عملة نادرة. وشرع الصينيون في

(٢٥) قائد السفينة بالعامية البحرية.

العمل بمجرّد وصولهم إلى المكان يعاونهم جنود لبنانيون وفريق من الصليب الأحمر. وتلقوا المساعدة أيضًا من بعض الوسائل المدنية. وضاع الأمل الذي كان ضعيفًا في الأساس. فقد تم العثور على جثة، ثم على الأخرى، إضافة إلى بعض الوثائق وصندوق توفير الزوجين الضئيل وعلبة جواهر.

تركّزت المواجهات بين الجيش الإسرائيلي وحزب الله في مارون الراس - بنت جبيل. وقد شاهدنا هناك ما لا يقل عن كتيبتي مشاة من لواء غولاني، وكتيبة دبابات وعناصر من القوات الخاصة. وعلى رغم إعلانات النصر لقائد الفرقة الـ٩١ اللواء هيرش التي نشرتها الصحافة الإسرائيلية، فإن الواقع مختلف تمامًا. فجنوده يراوحون مكانهم في معقل حزب الله هذا، حيث يواجهون مقاومة ضارية. والميليشيات المؤلفة من مجموعات صغيرة متحرّكة جدًّا تستخدم المسالك الملتوية والأنفاق بل المستشفى المدني خلافًا للمواثيق الدولية، تنهك خصومها في استمرار وتوقع بهم خسائر جسيمة جدًّا. أما صوب الغرب أكثر، فالخط الأزرق أقل اضطرابًا. لكن هذا لا يمنع أن موقعنا ١-٢١، هو أيضًا، سيتلقى إصابة مباشرة من قذيفة هاون ١٢٠ ملم، من المؤكّد أنها من حزب الله، ولكن لحسن الحظ لم تنفجر، تمامًا كما قذيفة الـ١٥٥ ملم التي وُجدت قبل أيام من ذلك مستلقية في هدوء على السرير. فعناصرنا الآتين من غانا هم على الأقل محظوظون!

وعلى رغم الصعوبات التي يواجهها الإسرائيليون عند هذا الجزء من الخط الأزرق، فإنهم يعمدون إلى التحضير في اتجاه أكبر صوب الشرق لتوغّل جديد وجهته مرجعيون انطلاقًا من منطقة المطلّة. سوى أن الوصول إلى هذه المنطقة المهمّة يحتّم المرور بسهل تشرف عليه بلدة برج الملوك من الغرب والخيام من الشرق. ويسيطر حزب الله على هذه المرتفعات فيما يحاول الجيش الإسرائيلي اقتلاعه منها من خلال القصف المدفعي والغارات الجوية. فمنذ

أواسط ساعات قبل الظهر وكل المتن الذي تمتدّ عليه الخيام يتعرّض لقصف حقيقي. ويوجد عند الأطراف الجنوبية للبلدة موقع لحزب الله، وعلى بعد ٢٠٠ متر جنوب شرقيّه قاعدة دورية مراقبي الهدنة. وهي مطلية كليًّا بالأبيض مع علمها الأزرق وحرفي UN الكبيرين باللون الأسود على الجدران، ويسهل التعرّف إليها وهي مألوفة من الجميع. وقد باتت من مطلع السبعينيات جزءًا من المشهد، ويتمركز فيها أربعة مراقبين من الضباط غير المسلّحين: الرائد هانز بيتر لونغ (النمسا)، الرائد بايتا ديريك هس فان كروديور (كندا)، المقدّم دوزهاو (الصين) والرائد البحري جارنو ماكينن (فنلندا). وأحصى هذا المركز الدولي مع نهاية بعد الظهر عشر قذائف «قريبة». وكنت كل مرّة اتصل بالإسرائيليين لأطلب إليهم وقف النيران المجاورة، لا يبالون بل يستمرّون في تنفيذ خطّة نيران من المؤكّد أنها مُحضّرة مسبقًا. انكفأ ذوو القبعات الزرق الأربعة منذ بداية النهار إلى ملجئهم المحصّن وكنّا على اتصال دائم بهم. وأفادونا قبيل هبوط الليل أن جدران ملجئهم تبدو متزعزعة في شكل خطير، فأمرت الكتيبة الهندية أن تتهيء لإحضارهم. ولكن للقيام بهذا، لا بد من وقف للنار من جانب إسرائيل. وكما في معظم الحالات الحرجة، يصبح من أحاورهم، ويا للمصادفة، «خارج السمع لأنهم في اجتماع». وتسارع عندذاك كل شيء. أفادت قاعدة دوريات الخيام باللاسلكي أن طائرة إسرائيلية تحلّق فوقهم، ثم انقطع كل شيء. عاودت الاتصال على الفور، حاولت إعادة وصل الاتصال، غير أنني لم أُجابَه إلا بالصمت. خشيت، ولسوء الحظ، أن أكون قد فهمت. عاودت الاتصال بالإسرائيليين ليوقفوا نيرانهم على الفور. فوافقوا أمام خطورة الوضع وأرسلَت الكتيبة الهندية على الفور فرقة إلى المكان. تم التقدّم ليلًا على طرق محفّرة. وأرغمهم قصف الخيام على البحث في الظلمة عن مسالك جديدة ليصلوا في النهاية، قرابة منتصف الليل، إلى ما تبقى من قاعدة الدوريات. نقَّب الجنود الهنود في الأنقاض على نور ناقلاتهم الـ«سيسو» وانتهوا إلى

العثور على ثلاث جثث متفحمة يصعب التعرّف إليها. وتوحي حالها، إضافة إلى الدمار، أن صاروخ GBU-28 المضاد للتحصينات أصاب ملجأهم، وهو صاروخ قادر على اختراق سماكات كبيرة من الباطون والانفجار في داخل المبنى. إنها ذخيرة أميركية سُلّمت أخيرًا إلى إسرائيل. لم يمكن العثور على جثة الضابط الصيني، واستؤنف إطلاق النار في محيط ما كان في السابق قاعدة دوريات الخيام، واضطر الهنود إلى الانسحاب مع الجثث الثلاث التي وضعوها مع حارس عليها في مشرحة المستشفى المدني في مرجعيون. وكما حدث مع مدنيينا الاثنين في الحوش، لا مجال للتخلي عن عناصر اليونيفيل، وسنعود للبحث عن رفيق سلاحنا المفقود حالما يسود الهدوء.

إنه يوم حالك جدًّا لا يترك مجالًا لتوقع أي شيء جيّد لاحق. ولا يمكن للقصف على قاعدة دوريات الخيام، المركز المعروف والواضح الهوية، أن يقود إلى الاعتقاد بأن الأمر مرتجل وأنه مجرد خطأ وهنا الطامّة الكبرى. وعلى رغم إصرار أرفع هيئات الأمم المتحدة، وبخاصة أمينها العام كوفي أنان، لن يوافق الإسرائيليون أبدًا على المشاركة حقًّا في تحقيق أو في منح حق الوصول إلى الوثائق المتعلّقة بهذه العملية. وسيكتفون بالإشارة إلى خطأ معلوماتي في حاسوب الطائرة القاتلة اعتقد أن قاعدة عمليات الخيام هي مركز حزب الله الموجود على بعد مئتي متر. أمر مثير للدهشة! وهم سيتلكأون في الانصياع إلى أقل الواجب، أي إلى تقديم اعتذارهم.

٢٦ تموز/يوليو - بنت جبيل تقاوم

كنّا لا نزال جميعنا نعيش صدمة المأساة التي حلّت برفاقنا في هيئة مراقبة الهدنة، عندما تلقّيت في وقت مبكر من الصباح اتصالًا هاتفيًّا من القصر الرئاسي في بعبدا. إنه العماد أميل لحود شخصيًا، رئيس الجمهورية اللبنانية،

يطلب إلي أن أنقل تعازيه إلى جميع عناصر اليونيفيل على ما حدث في قاعدة دوريات الخيام. وأعلم، لمعرفتي الجيدة بالشخص، أن هذا الاتصال صادق ولم يتم بناء على حساب سياسي. فالقوة موجودة في لبنان منذ العام ١٩٧٨، أي منذ نحو ثلاثين عامًا، وسبق لها أن عايشت تقلّبات كثيرة هي في الغالب تقلّبات جنوب لبنان. ولا يمكن الحديث هنا عن وجود أجنبي، لأن جنود القبعات الزرق هم جزء من الحياة اليومية للسكان، والكلام الذي تفوّه به أعلى سلطة في الدولة هو أكثر من كلام لائق، لأنه يشجّعنا على متابعة مهمتنا على رغم كل شيء.

دخل الجيش الإسرائيلي أخيرًا بنت جبيل، بالكتيبة الـ٥١ من لواء غولاني، لكن التقدّم بالغ الصعوبة. انخرط الإسرائيليون في حرب شوارع حقيقية وعجزوا عن إحكام سيطرتهم الكاملة على المحلّة. أفلت الكثير من الأحياء من أيديهم. وتمت الاستدارة عليهم، وهوجموا من الخلف، وتعرّضوا أيضًا لقصف بالهاونات من قرية عيناتا على بعد كيلومترين شمالًا. حاولوا تدمير مواقع هذه البطاريات بالتدفّق شرقًا عبر عيترون، لكنهم لم ينجحوا. فمثل هذه المعارك تتطلّب أعدادًا كبيرة، ويحتاج الإسرائيليون، على رغم كثرة عددهم، إلى وحدات إضافية. واعترفوا بأنهم سقط لهم في ذلك النهار ثمانية قتلى واثنان وعشرون جريحًا. أخذ الاشتباك يغيّر من طبيعته. فالضربات الجوية والقصف المدفعي لا يكفيان لإسكات حزب الله، بل على العكس استمرّت الصواريخ في السقوط على الجزء الأكبر من الجليل بمعدّل نحو مئة في اليوم، وتضاعفت معارك المشاة على الساحة. عدّلت السلطات الإسرائيلية في خطابها: فهي لم تعد تسعى إلى «القضاء على الجناح المسلّح لحزب الله، بل عن تراجع ذي مغزى في قدراته». شرعت كتيبتان من الاحتياط في التجمّع جنوب الخط الأزرق. وقد شهد هذا الأخير أماكن أخرى للمواجهات: في منطقة مروحين حيث استمر الإسرائيليون في اندفاعهم شمالًا، وفي عيتا الشعب التي تم الدفاع

عنها بحزم هي أيضًا، وبالطبع حول الخيام. ولم تُوفَّر الناقورة. فقد سعى حزب الله إلى التغطية التي يوفّرها قربه من المعسكر لإطلاق صواريخه. ولم يتأخر ردّ المدفعية، واخترقت قذيفة جدار سور المعسكر ولم تنفجر لحسن الحظ، وانتهى بها المسار إلى مدخل ثكنة الكتيبة اللوجستية البولندية. ولم يسعف الحظ جراح المستشفى الهندي، لكنه نجا نسبيًّا. ففي وقت أكبَّ على إجراء جراحة لجريح مدني لبناني لم يتمكن من تركه على طاولة العمليات على رغم النداءات التي تدعو إلى النزول إلى الملاجئ، أصابت قذيفة المبنى الجاهز الذي هو غرفته إصابة مباشرة. ولم يكتشف إلا عند خروجه من المستشفى، بعد انتهاء العملية ومحاولته العودة إلى مسكنه، أنه فقد كل شيء تقريبًا. فعصف الانفجار أطاح المنزل الهش، ولم يتمكن من استعادة إلا بعض الحاجات المتفرّقة وسط الأثاث المتفحّم. لم يبق له سوى سخاء فريقه الطبي للحصول على ما يشبه خزانة ثياب ومكان للنوم. إلا أنه بقي حيًّا.

سيضطر الجيش الإسرائيلي إلى الاعتراف بواقع الحال وقبول تخصيص وسائل برّية أكثر إذا أراد في الوقت نفسه إنشاء المنطقة الأمنية الخاصة ووقف نيران حزب الله على إسرائيل. وحاولنا، من جهتنا، أن نفهم بأفضل ما يمكن التكتيكات الإسرائيلية، ورفعنا في صورة منتظمة التقارير إلى نيويورك. وارتكزنا في الوصول إلى ذلك على ما تلاحظه مراكزنا وتُفيدنا به لاسلكيًّا. ويعرف الجيش الإسرائيلي هذا الجزء الأساس من مهمتنا، ويشوّش أكثر فأكثر على موجاتنا لمنع إيصال التقارير الضرورية لتقدير تطوّر الوضع، خصوصًا أن تقويماتنا تذهب في الغالب بعكس التصريحات الرسمية الصادرة عن تل أبيب. ولا بدّ من أن القيادة الشمالية حاقدة علينا، لأنها ترفض في شكل متكرّر التواصل معنا. فعلى رغم جودة الرابط الهاتفي، يؤدّي محاورنا دور المشترك الغائب، إلا عندما يكون في حاجة إلينا. وهي حاجة نادرة بالتأكيد لكنها تحدث. وعلينا، من جهتنا، الحصول على مواعيد زمنية لتنقلات اللاجئين

وإخلاء الجرحى؛ والتفاوض على المناطق التي يجب تحييدها؛ والإفادة عن الأوضاع الأكثر حراجة تفاديًا لانتفاء القدرة على احتمالها. وسيتولّى المقدّم جون مولوي، وهو إيرلندي عنيد ذو برودة مميّزة لكنها ليست بالتأكيد بريطانية، الاتصال بالجيش الإسرائيلي. وقد قضى أيامًا بطولها على الهاتف محاولاً الدخول في اتصال مع مسؤول إسرائيلي، فيقع في معظم الأحوال على عامل هاتف غير مسؤول، أو يوضع في الانتظار عشرات عدّة من الدقائق قبل أن يسمع صوت إغلاق السماعة. لكنه لا ييأس ويعاود الاتصال بلا كلال، إلى أن ينتهي الأمر بمحادثه إلى الاستسلام. ولم تثن عزيمته الأسابيع الكثيرة التي مضت على هذا النمط. وهو يُشكر على ذلك.

أثّرت حدّة المعارك المتصاعدة، باطراد، في مصير السكان المحليين. فقد أخذ حزب الله يتحرك بجوار المنازل التي أصبحت بالتالي أهدافًا للعدو. تضاعف الدمار وكذلك عدد القتلى والجرحى المدنيين. واستقبل مقر قيادة الكتيبة الغانيّة 1-0A ألف لاجئ خلال النهار سيتم إجلاؤهم لاحقًا إلى صور. وفي مقرنا العام في الناقورة اقتحم ٣٠٠ مدني، بعد الظهر، إحدى البوابات واندفعوا إلى داخل المعسكر طلبًا للملجأ. ونحن لا نملك القدرة على إيوائهم في الملاجئ. ووجهناهم، قبل أن يتشتّتوا، وجمعناهم في أحد العنابر. ولم نستطع أن نوزّع عليهم سوى بعض الأغطية والماء والبسكوت. ولازمهم فريق طبّي وبعض الجنود. وحاولنا إقناعهم بالعودة إلى منازلهم، إذا أمكن، أو التوجه إلى صور، إذا سمح وضع الطرق بذلك. ولمّا يمض على وجودهم هنا سوى ساعتين أو ثلاث، حتى سمعنا على قناة الجزيرة القطرية أن اليونيفيل تعامل السكان بطريقة غير إنسانية. وتحدّثت هذه المحطة بالكثير من التفصيل عن الأشخاص الذين نستضيفهم في الناقورة: يخضع هؤلاء لمصير أسوأ من المصير المخصّص للسجناء. فلا ماء ولا غذاء، وتحرسهم وحدة كاملة من الرجال المسلحين وتراقبهم كلاب عدوانية ويُمنعون من التحرّك حتى لقضاء

حاجاتهم الطبيعية. صُعقت لمثل هذا التقرير المغاير للحقيقة حتى لو لم تكن هذه الحقيقة على قدر كبير من الوردية، فطلبتُ الاتصال بمكتب القناة في بيروت لأستعلم كيف تم الحصول على هذه المعلومات. ولم يكتف محدثي، بصراحته، بإعطائي اسم الشخص الذي اتصل فحسب، بل رقم هاتفه المحمول أيضًا. وعمدنا فورًا إلى طلب الرقم. ورنّ جرس هاتف وسط مجموعة من اللاجئين. فأجبرنا عندذاك الشخص المذنب على معاودة الاتصال بالمحطة المذكورة ووصف الوضع كما هو في الحقيقة للانتهاء إلى تكذيب أصررت على أن يُذاع على الفور. وهو ما تمّ من دون تأخير، ولكن أيضًا من دون اعتذار. وتبيّن أن الراوي عضو في حزب الله هدفه في الوقت نفسه تشويه سمعة القبعات الزرق وتثبيط المدنيين عن اللجوء إلينا لمغادرة المنطقة. وسلّمناه إلى فريق الارتباط في الجيش اللبناني الذي سيبدي تسامحًا حياله. أما المدنيون المساكين المتجمعون في العنبر، فقد نقلنا ٢٠٠ منهم بآلياتنا إلى صور مع نهاية النهار، على رغم المعارضة القوية لحركة أمل الشيعية التي عبّر لي عنها هاتفيًا أحد معاوني رئيسها نبيه بري المقربين. وأذعن الباقون للعودة إلى منازلهم حيث لديهم أقبية يختبئون فيها متى بدأ القصف.

اتضح، مع تضاعف الأضرار الجانبية، أن من المتوجّب علينا أكثر فأكثر تجميع السكان المحليين تمهيدًا لمحاولة إجلائهم. ولكن، كما حدث معنا مرتين، هذا النهار، تنشأ ظروف نُضطر معها إلى فتح مراكزنا. ولما كانت مأساة قانا في العام ١٩٩٦ لا تزال ماثلة في أذهاننا، فإننا في كل مرة استطعنا أن نتفادى فتح مراكزنا أخذنا في تجميع المرشحين إلى الرحيل في مبان عامة، أي في مواقع يمكن معرفتها بوضوح مثل الملاعب أو الأسواق. ونحن في كل الأحوال نعلن هذه المناطق «ملاذًا آمنًا» نبلغه إلى السلطات اللبنانية والإسرائيلية مقدّمين إحداثيات المواقع والوصف الأدق لها. وأخذنا، منعًا لأي التباس، نرسل بالفاكس جزءًا من الخارطة التي يظهر فيها الموقع بشكل دقيق.

وبات الآن بعض هذه المواقع دائمًا، مثل الاستراحة ومركز الأمم المتحدة لتنسيق مكافحة الألغام في صور. أما البعض الآخر فمؤقت.

عادت «سيروكو» على رغم ازدياد خطورة الوضع، لتسلّمنا ما لم تتمكن من تفريغه في الأمسية السابقة بسبب نفاد الوقت، إذ اضطرت إلى الخروج قبل هبوط الليل من منطقة الحظر التي حدّدتها إسرائيل، وحصلت على الإذن بالعودة اليوم. وقد تأثّرنا بهذا الاهتمام الذي سيسمح لنا بتحسين وضعنا اللوجستي. غير أن علينا أن نتمكّن بعد ذلك من نقل التموين إلى المواقع، علمًا أن الناقورة تقع عند الطرف الغربي لمنطقة العمليات، وأن الوصول إلى مواقعنا الأبعد إلى الشرق بات يتطلّب يومًا كاملًا، عندما يسمح لنا الوضع ببلوغها. واستفدنا من وجود «سيروكو» لتحميل ٩٨ آخرين من الرعايا الأجانب الذين سينقلون إلى قبرص.

٢٧ تموز/يوليو – إقتراح مفاجئ

تلقّيت في الصباح اتصالًا هاتفيًّا من الملحق العسكري في سفارة الولايات المتحدة في بيروت. إنها، منذ بدء النزاع، المرة الأولى التي يتجلّى فيها أصدقاؤنا الأميركيون، إلى حد أننا أخذنا على عاتقنا ترحيل بعض من رعاياهم. وأنا على علاقة جيّدة بهذا الضابط الرفيع، غير أنني تساءلت عمّا قد يريده منّي. وهو في الواقع ليس لديه أي حاجة يعبّر عنها، بل على العكس، اقترح عليّ إدخال فريق من ضابطين وأربعة أجهزة إرسال في هيئة أركاني ليكونا عنصري اتصال في حال القيام بعملية مشتركة. فقد نشرت الولايات المتحدة قبالة السواحل اللبنانية وحدة الحملة البحرية الرابعة والعشرين القادرة على التدخّل في منطقة عملياتي. وهي ستوفّر لي التعزيزات اللازمة لتسهيل عملها المحتمل. فاجأني مثل هذا العرض كثيرًا، وطلبت أن يتم تأكيده بواسطة الفاكس، وبقيت أنتظر الجواب.

شككت في أن يكون الأمر بريئًا وبحثت مع مساعدي اللواء ج. ب. نهرا (الهند) عن الحافز لمثل هذه المبادرة. وصودف أن عُقد في الوقت نفسه، في روما، المؤتمر الدولي بشأن لبنان الذي ضم نحو ١٥ دولة عضوًا في الأمم المتحدة والاتحاد الأوروبي والبنك الدولي، لترتيب وقف لإطلاق النار. وأيّد المؤتمر كذلك نشر قوّة دولية في جنوب لبنان تحت كنف الأمم المتحدة. ولم يتخذ أي قرار ملموس عقب هذا اللقاء. وأعربت الولايات المتحدة، من جهتها، عن نيتها أن تقضي إسرائيل على حزب الله عسكريًّا. ومن المثير للقلق أن يتصادف ذلك مع الاقتراح الذي قُدّم إليّ. فالأميركيون ليسوا ربّما الأفضل معرفة للوضع الميداني في جنوب لبنان. فهم يرونه خصوصًا من خلال الموشور الإسرائيلي الذي لا يمكنه إلا أن يشوّه الأمور. فبين الدول الخمس الدائمة العضوية في مجلس الأمن، وحدهما الصين وفرنسا تزودان اليونيفيل بالرجال. ويسمح هذا الوجود للدولتين بتحقيق اتصال مباشر بين وحدة كل منهما في لبنان ورئاستي أركان جيوشهما، بما يسمح لهما بإكمال تقارير اليونيفيل الرسمية لتمكنهما من جمع المعلومات من مواطنيهما الموجودين في الساحة وفي المقر العالم للقوة. ويعطيهما هذا أفضلية أساسية عندما يتعلّق الأمر بالتفاوض على حلّ للنزاع. فهل يمكن أن يكون الأميركيون يبحثون عن تعويض النقص في المعلومات عن المسألة بوضعهم عيونًا وآذانًا في هيئة أركاني تحت غطاء عمليات افتراضية تقوم بها وحدة الحملة البحرية الرابعة والعشرين؟ هذا ممكن لأنني لا أراهم بوضوح في وضع التدخل المباشر على الأرض.

طرحنا أيضًا أسبابًا أخرى ما هي بالتأكيد إلا افتراضية. إذ لا يتعلّق الأمر بالحكم على النيات، بل باعتماد الحذر فحسب. إذ من المعروف أن الإسرائيليين ليس فقط يملكون الذخيرة المتطورة التي توفّرها لهم الولايات المتحدة، بل يملكون أيضًا الدعم الاستخباري الذي يتم الحصول عليه أساسًا، انطلاقًا مما تجمعه الأقمار الصناعية. ويمكن للضابطين اللذين يفترض بنا استقبالهما أن

ينقلا أيضًا إلى سلطاتهما العليا معلومات عن الوضع تُنقل من ثمّ إلى إسرائيل، الأمر الذي سيهتك بشكل خطير مبدأنا الأساس القاضي بعدم الانحياز. وقد يكونان أيضًا مستعدين لتسهيل توغل عملاء أو لبنانيين موالين لإسرائيل لتوجيه المروحيات المحمولة على سفن وحدة الحملة البحرية.

وهذه ليست بالطبع إلا تخمينات، لكنها تدعم نيتنا رفض هذه اليد الممدودة. وهي تأتي لتضاف إلى أسباب أكثر مشروعية بكثير. فالولايات المتحدة ليست في الأساس دولة مُساهمة في اليونيفيل، والمقصود بذلك أنها دولة عضو في الأمم المتحدة تشارك بقوّة عسكرية. وهي لم تكن قط كذلك منذ إنشاء هذه المهمة عام ١٩٧٨. ولا يمكن بالتالي الموافقة رسميًّا على هذا الوجود إلا بقرار يصدر عن أعلى مراتب الأمم المتحدة. ثم إن موقف حزب الله من الولايات المتحدة معروف جدًّا. وهو لا يعتزم تقديم أي تنازل إلى البلد الذي وضعه على لائحة التنظيمات الإرهابية. وسيشكّل الوجود الأميركي في القوّة خطرًا حقيقيًّا على مجمل عناصرها، وسيمتلك حزب الله كل الأسباب للإنحاء باللائمة على هذه القبعات الزرق المتعاونة مع «الشيطان الأكبر».

أبلغت مقر الأمم المتحدة العرض الأميركي مشدّدًا على ما بدا لنا من تحفّظات. وأفهمني الصمت الطويل، المعبّر دومًا في هذه المؤسسة، أن في وسعي الردّ على الملحق العسكري بالرفض القاطع الذي لم أغفل فيه عن التعبير عن شكري التام!

وفي وقت أكّد رئيس أركان الجيش الإسرائيلي دان حالوتز أن قوته تُنزل «خسائر استراتيجية ضخمة» بحزب الله، لم يتمكن جنوده بعد من السيطرة على بنت جبيل، واستمرّوا في حصد الخسائر. حاولوا التحرر من هذا العائق بنقلهم عناصر من القوات الخاصة بالمروحيات بضعة كيلومترات أكثر صوب الشمال، من دون أن ينالوا من تصميم حزب الله. فعناصره نشطون أيضًا في

مناطق أخرى مما بات يمكن تسميته الآن بـ«الجبهة». ولا يبدو أن المعدّل اليومي لإطلاق الصواريخ على إسرائيل يتراجع. وأصيبت منطقة مثل عفولة، تبعد خمسين كيلومترًا جنوب الخط الأزرق. ومن المؤكد أن ذلك تم بواسطة صواريخ «خيبر ١» الإيرانية الصنع. وما قصفُ هذا الموقع، بالنسبة إلى حسن نصرالله، إلا البداية، «وستُقصف مدن كثيرة إذا استمرّ العدوان البربري». ويردّ الإسرائيليون بالمدفعية والطائرات على المواقع المزعومة للبطاريات، وفي الغالب من دون نتيجة، إذ يكون مطلقو الصواريخ قد اختفوا بالفعل منذ مدة كبيرة. أما التسديد فليس إلا تقريبيًّا، لكن ذلك لا يزعج أبدًا، لأن الغاية ليست تدمير هدف، في دقّة، بمقدار ما هي القيام بقصف إنهاكي. أي، في اختصار، تغذية الخوف. ويتولى مطلق الصاروخ بالتالي التصويب ثم ربط نظام الإشعال بساعة توقيت بلاستيك صغيرة مرقّمة من النوع المتوفّر في كل مطبخ جيّد، وهو ما يعطيه الوقت الكافي للابتعاد قبل الردّ المحتمل.

وحصلت الكتيبة الهندية على نصيبها من الانفعالات: فقد تلقى المركز ٨-٣٢، بالقرب من حولا، ٨ قذائف هاون دمّرت معظم المنشآت، ومن حسن الحظ أن الجميع كانوا في الملجأ المحصّن، وهو كل ما سيتبقى لهم من مقر للإقامة حتى نهاية النزاع.

توصّلنا إلى ترتيب مع القيادة الشمالية لنقل جثامين رفاقنا الثلاثة مراقبي الهدنة الذين قتلوا في قاعدة دوريات الخيام. جئنا بهم من مشرحة مستشفى مرجعيون، وأقمنا لهم الوداع النهائي على الخط الأزرق قرب المركز ٩-٦٤ حيث توجد نقطة عبور في السياج. وسلّمهم الإسرائيليون فور ذلك إلى القبعات الزرق الذين أوفدهم مقرهم الرئيس في القدس.

ولم يكن بعد قد عُثر على العضو الرابع في فريق مراقبي قاعدة الدورية. وعملنا جاهدين لاستئناف البحث في موقع المأساة حيث يوجد فريق استطلاع

من الكتيبة الصينية لكنه لا يستطيع الاقتراب. فالقصف المدفعي الإسرائيلي يتواصل على الموقع على رغم أن ما من شيء بقي لتدميره. بدا لنا أن الجيش الإسرائيلي يريد منعنا من الاقتراب ويحاول في الوقت نفسه محو أي أثر لإطلاق الصاروخ الذي دمّر المركز. سننتظر، لكننا لن نتخلى عن رفيقنا في السلاح.

٢٨ تموز/يوليو – هدف حقيقي: البقاء

تابعنا، بقدر أو آخر، النقاشات الدائرة في روما. وبذل المقر العام في نيويورك ما في وسعه لإبقائنا على اطلاع. غير أنه يريد البقاء على الحياد وتمسّك بحكمة توقعاته. وبلغتنا تفاصيل النقاشات من مصادر أخرى سمحت لنا بالتقاط الرهانات في شكل أفضل. بدا أن الدول الغربية متفقة على وضع اللوم على عدم فاعلية القبعات الزرق وتحاول بالأخص استبدال قوة ليست غير تابعة لها، بها، تأتي من حلف شمال الأطلسي أو من الاتحاد الأوروبي. قوة متعدّدة الجنسية يودّ الرئيس الأميركي جورج بوش رسميًا إنشاءها سريعًا من دون انتظار وقف النار. غير أن دولًا أخرى كانت في المقابل أكثر حذرًا. وهذه حال فرنسا، وفي شكل أعم الدول الأعضاء في الاتحاد الأوروبي التي لا تريد نشر قوات قبل دخول وقف النار حيّز التنفيذ. وينبع جزء من موقف دول حلف شمال الأطلسي الاستباقي من الاضطرابات التي عرفتها أوروبا خلال العقد الأخير. فمع سقوط جدار برلين وانتهاء الحرب الباردة، فقد الحلف علّة وجوده، وعليه إيجاد أسباب أخرى للاستمرار. ولماذا لا يصبح إذًا الذراع المسلحة للأمم المتحدة؟ فسيشكّل نشر قواته في جنوب لبنان فرصة جميلة عليه الاستفادة منها لتبرير شكل جديد من أشكال الوجود. وسيتوطّد التفوّق الأميركي على المستوى العالمي لأن الولايات المتحدة تؤدي الدور الحاسم في قلب هذا الحلف. وستتمتع هنا بوسيلة إضافية للتأثير في الوضع، ولتحاول

أيضًا السيطرة أكثر قليلًا على منظمة الأمم المتحدة. وسيسهل تنفيذ مثل هذا السيناريو في حال أجبر ضغط النزاع اليونيفيل على الجلاء تاركة فراغًا كبيرًا يمكن السقوط فيه. وستفقد بذلك أي فرصة لها في العودة إلى هذه المنطقة بقوّة خاصة بها.

لم يطلب إليّ أحد حتى الآن إخلاء جنوب لبنان، ولكن تناهى إليّ من نيويورك أنها ستتبنى قراري الإخلاء إذا رأيت ذلك ضروريًا بالفعل. أبلغنا المقر العام مختلف خططنا للإجلاء. وسيكون الإسرائيليون بالأحرى مستعدين لمساعدتنا على عبور أراضيهم لبلوغ مرفأ ما أو مطار. وفي هذا دفق من اللطف ليس مجانيًا بالتأكيد. فقد ترك لي فريق إدارة عمليات السلام، منذ بدء النزاع، كل المجال لإعادة توزيع القوات في مختلف المراكز تبعًا للخطر، وبالتالي التخلي عن بعض المواقع التي نرى أن من غير الممكن البقاء فيها. ولم نفعل حتى الآن شيئًا من ذلك، ولم ننسحب إلا من قاعدتي دوريات الراس والخيام اللتين امّحتا كلتاهما عن الخارطة. بدت لنا المجازفة، في حال اضطرارنا إلى التخلي عن جنوب لبنان، هائلة جدًا على المنظمة الدولية التي حزنا ثقتها، فقرّرنا البقاء مهما يكلّف الأمر، وأطول مدة ممكنة، حتى استنفاد مخزوننا من المياه لأنه الوسيلة الأولى للبقاء التي ستنقصنا. شرحتُ التحدّي كما أراه لمجموع قادة الوحدات عندي، وطلبت منهم بذل كل شيء من أجل الاستمرار في المهمة حتى نهاية النزاع، وبالتالي استبعاد أي تخلّ عن منطقة العمليات. وأمدّني جوابهم بالشعور أن لديهم الآن هدفًا ملموسًا، محدّدًا؛ وهو تحدّ قرّروا رفعه: يريدون ترحيلنا، إذًا سنبقى!

استمرّ إطلاق الصواريخ من لبنان: أكثر من ٢٠٠ في اليوم. وهو ما جعل وزير الدفاع الإسرائيلي عمير بيريتس يقول: «قليلة في العالم هي الجيوش التي تمتلك صواريخ بمقدار ما يمتلك حزب الله». وقد واصل هذا الأخير البحث

عن الحماية التي يتخيّل أن القرب من مواقعنا يقدّمها إليه. أدرك الإسرائيليون اللعبة وجهدوا في توفيرنا إلى الحد الأقصى. وأعلموني أنهم حددوا منطقة بشعاع كيلومتر واحد حول كل مواقعنا لن يقصفوا في داخلها، إلا في حال القوة القاهرة. إلا أن الاستثناءات كثيرة من سوء الحظ. فالموقعان الغانيّان ٦-٤١ و ٦-٤٤ في منطقة الطيري محاطان بأودية عميقة تستخدمها الميليشيات. وأصيب كلاهما بنيران الرد الإسرائيلية التي أوقعت أربعة جرحى. وعلى رغم ذلك، استمر وجود حزب الله في المنطقة، فقررتُ، حدًّا للمخاطر، خفض عدد عناصر هذين الموقعين إلى الحد الأدنى الضروري. واستفاد من عُدُّوا عددًا زائدًا من إحدى ساعات الهدوء للانضمام إلى مركز قيادة كتيبتهم في تبنين.

وباتت بعض المراكز الآن في المنطقة التي يحتلها الجيش الإسرائيلي في استمرار وأخذ تموينها يصبح مشكلة. وها إن المهاجم اجتاح آخر مركزين لنا تشغلهما هيئة مراقبة الهدنة وهما قاعدة الدوريات حين وقاعدة الدوريات مار. وأصيبت قاعدة دوريات حين بقنبلة انشطارية أجبرت من فيها على الخروج بحذر شديد حتى لا يتسبّبوا بانفجار هذه البيضات المعدنية الكبيرة القادرة على تمزيق سيقانهم. ولا يشغّل كلًّا من هذين المركزين سوى أربعة ضباط غير مسلحين، ويمكن لمراكز اليونيفيل المجاورة أن تحل محلهم في المراقبة. فقررت إقفال قاعدتي الدوريات الأخيرتين العاملتين هاتين وإعادة المراقبين إلى الناقورة، حيث جمعنا ضباط مراقبة الهدنة الـ٤٦ لأن من غير الوراد بالنسبة إليهم العودة إلى مساكنهم في صور. وتميّزت إقامتهم بالبساطة الشديدة، بسبب النقص في الأماكن. لكنهم يتمتعون بالحد الأدنى من الأمن والدعم اللوجستي.

لم تضعف المواجهات في كل منطقة العمليات. ولكن يبدو لنا أن الإسرائيليين لا يحرزون تقدّمًا وهم في صدد البحث عن طرائق أخرى للتحرّك

لإسكات حزب الله. وليل ٢٧ - ٢٨ قصف الطيران الإسرائيلي ١٣٠ موقعًا. ولم يوفّر أيضًا رتلًا من اللاجئين يهمّون بمغادرة رميش. وراوحت كتيبة المظلّيين الخامسة والثلاثون مكانها في بنت جبيل، فيما لا تزال عيناتا تقاوم. لم يتم فقء الدُّمَّل، بل على العكس.

ساعَدْنا قدر الامكان السكان على البقاء في أماكنهم. وتمكّن تقنيونا من تشغيل محطة الكهرباء في مرجعيون، وتصليح جزء من الشبكة المربوطة بها. ونجح آخرون في إعادة تشغيل مضخات المياه في إبل السقي وراشيا الفخار.

أما الأمر الإيجابي الوحيد في هذا اليوم فهو اتصال هاتفيّ بنا أجرته من بيروت شركة «مدكو» التي تزوّدنا عادة المحروقات: فقد تمكنت، على رغم الدمار وإغارة الأفراد على البنزين، من تخصيص الكميات التي تزوّدنا إياها شهريًّا. ومشكلتها الوحيدة، وهو ما لم يفاجئنا البتّة، هي في أنها لا تستطيع أن توصلها إلينا. وسنقوم إذًا بتنظيم قافلة من شاحنات الصهريج تتوجه صوب العاصمة اللبنانية، ونحاول العثور على طريق لا انقطاعات فيها. وستتمكن، من خلال دورة طويلة عبر الشوف، من الوصول إلى الخزانات والعودة بالسائل الثمين. وهي المرّة الأولى خلال النزاع التي يتوجّه خلالها عناصر من القوة إلى شمال الليطاني.

٢٩ تموز/يوليو – الجيش الإسرائيلي ينسحب من بنت جبيل

لم تنفع جهود الإسرائيليين في تمكينهم من السيطرة على بنت جبيل التي أصبحت رمزًا لمقاومة المعتدي في جنوب لبنان. وقد خسروا فيها نحو ستين، بينهم ١١ قتيلًا، وادّعوا مقتل ٧٠ مقاتلًا شيعيًّا. تراجعوا إلى جنوب المكان عند تلال مارون الراس، لكنهم بقوا في الأرض اللبنانية. استهلك

موقع ٦-٥٢ التابع لنا مخزونه من الماء والمحروقات، واستحال تموينه باجتياز منطقة العمليات انطلاقًا من الناقورة. وبعد أخذ وردّ مضنيين سمح لنا الجيش الإسرائيلي بتنظيم قافلة ليلية يمكنها أن تسلك الطريق الواقعة جنوب الخط الأزرق، أي في الجانب الإسرائيلي، لبلوغ الموقع. وفي مثل هذا السياق لم يعد الخطر يأتي من القذائف الإسرائيلية بمقدار ما هو من صواريخ حزب الله. غير أن كل شيء تم على ما يرام وبات لدى عناصرنا من غانا ما يسمح لهم بالصمود نحو عشرة أيام إضافية. وكان هذا المثال كافيًا لإبقاء كل واحد منا مدركًا لضرورة الاقتصاد إلى الحد الأقصى في الماء والغذاء والمحروقات. وتم تحديد استهلاك الماء بالنسبة إلى القوّة كلّها بأفضل الحالات، وبحسب المراكز، بثلاثة لترات لكل رجل في اليوم. وهذا قليل جدًّا بالفعل في عزّ الصيف مع قضاء ساعات طويلة تحت الباطون.

واصل المدنيون، من جهتهم، هربهم من أماكن المواجهات، في وقت رفضت إسرائيل هدنة إنسانية من ٧٢ ساعة طلبتها الأمم المتحدة، كذلك رفضت إعلان موعد الانتهاء من عملياتها. ورافقنا أيضًا ٣٨ من هؤلاء المقتَلعين الجدد من جذورهم من الناقورة إلى صور. أما الذين لا حلّ أمامهم سوى البقاء فليسوا محظوظين أكثر من قبعاتنا الزرق، بل على العكس.

يحاول الإسرائيليون الآن، وقد صُدّوا في هذا الجزء من الجبهة، التقدم أكثر صوب الشرق في عملية «النسيج الفولاذي ٣». حشدوا وحدات جديدة في منطقة المطلّة يعود البعض منها إلى لواء ناحال وإلى اللواء المدرع ٤٠١. سيحاولون من هناك الاندفاع باتجاه الليطاني ومرجعيون. ويكفيهم، لاجتياز الحدود، إعادة فتح «بوابة فاطمة» القديمة التي عبروا منها أيام احتلالهم جزءًا من لبنان قبل العام ٢٠٠٠. ثم سيسلكون الحفريات الكبيرة التي أجراها من سبقوهم في الأرض اللبنانية عام ١٩٩٩ لاستخراج الحد الأقصى من التراب

القابل للزرع ونقله إلى إسرائيل لتحسين أراضي الكثير من مزارعهم. وتوجه أربعمئة رجل ونحو ثلاثين دبابة صوب كفركِلا، حيث تعرّضوا للهجوم وأحصوا سريعًا عددًا من الجرحى في صفوفهم.

تعود مراكز اليونيفيل المزروعة في هذه المنطقة كلّها إلى الكتيبة الهندية التي لم يناسبها هذا الاهتمام الجديد بهذا الجزء من الخط الأزرق. فقد أصيب مركز ٨-٣٤، بالقرب من ميس الجبل، إصابة مباشرة بقذيفة مدفعية أوقعت أضرارًا مادية جسيمة. وجُرح اثنان من عناصر مركز ٩-٦٣ قرب العديسة بشظايا قنابل طيران، وأمكن سحبهما إلى مستوصف قيادة الكتيبة حيث تلقيا الإسعافات.

٣٠ تموز/يوليو - قانا أيضًا

تشكّل قانا أيضًا، على غرار بنت جبيل حيث فشل الإسرائيليون حتى الآن، معقلًا لحزب الله فيه حضور كبير. وهي بالتالي التي تحتفظ، وليس من دون نيّة مبيتة، بذكرى القصف الإسرائيلي في ١٨ نيسان/أبريل ١٩٩٦. أطلق المقاتلون منذ بداية النزاع من القرية نفسها أو من أطرافها المباشرة أكثر من ١٥٠ صاروخًا. وسعى الجيش الإسرائيلي بالتالي إلى وضع حد لذلك. وفي وقت مبكر من الليل أسقطت طائرة قنبلة في وسط القرية على مبنى من ثلاث طبقات أدت إلى انهياره. افتُرض أنه يُستخدم مستودعًا لذخائر حزب الله، وهو ما لن يمكن تأكيده. وبات من الصعب وسط الذعر والظلام البحث عن الضحايا وإحصاؤهم. ولا توجد وسائل كافية لرفع الأنقاض. وتأخّر الإسعاف كثيرًا في الوصول لأن الطرق مقطوعة بالحفر والمنازل المنهارة. وبعد ساعات عدة من الجهد وصلت إلى المكان فرقتان طبيتان من الكتيبتين الغانية والهندية إضافة إلى آليات هندسة تابعة للكتيبة الصينية. ووجدوا هناك الصليب الأحمر

اللبناني وسيارات إسعاف خاصة. ومع بزوغ النهار، وتحسين تنظيم الإسعافات، انخفض العدد الأولي للإصابات من ٥٤ قتيلًا إلى ٢٨ بينهم ١٦ طفلًا؛ وتسعة جرحى. وحتى مع هذه المراجعة التي انخفض معها عدد القتلى يبقى الأمر غير مقبول وعدد القتل لا يُحتمل. وها إن المدنيين يدفعون مرّة أخرى ثمن معركة ليست بالضرورة معركتهم. وبلغ الشعور بمثل هذا الظلم مجلس الأمن في نيويورك، وأمكن الأمين العام الحصول من الإسرائيليين على تعليق لعملياتهم الجوية ٤٨ ساعة. ويعني هذا التوقّف في استخدام البعد الثالث أن الجنود الموجودين على الأرض لم يعد في وسعهم الاستفادة من الدعم الجوي، وهو ما نتج عنه بطء خفيف في العمليات البرية الجارية. وشرعت الجرافات الإسرائيلية التي تغطيها الدبابات في تدمير مواقع حزب الله في منطقة يارين. واستمرت أسطورة المنطقة الأمنية الخاصة على رغم إعادة البحث فيها، إلى حد أن الجيش الإسرائيلي أصرّ على إخلاء المدنيين في راميا وعيتا الشعب.



١٥ تموز/يوليو – البيّاضة – مدنيون من مروحين أوقفهم صاروخ إسرائيلي عن فرارهم.

عمدنا في الناقورة إلى استغلال هذه الهدنة الظاهرية، لتنظيم ذكرى موجزة لرفاقنا الأربعة الذين قتلوا في قاعدة دوريات الخيام. واستذكر مراقبون بعبارات بسيطة ومؤثرة إخوة السلاح هؤلاء الذين جانبوهم في قواعد الدوريات. فقد وحّدت في ما بينهم، بما هو أبعد من الثقافات المختلفة، المهمة نفسها. وقد تمكنوا، على رغم التخاطب بإنكليزية هي أحيانًا ركيكة، من العمل معًا والتفاهم والتقدير المتبادل. ودمعت أعين تحت القبعات الزرق خلال هذا الوداع الأخير الذي اختتم بدقيقة من الصمت. لن ننسى، لكن الانتداب باق ولا شك في أننا سنواجه محنًا أخرى.

الفصل الرابع

لا انتصار من دون احتلال الأرض

مرّ أكثر من أسبوعين على الشروع في العمليات العدائية ولم يتمكن الجيش الإسرائيلي حتى من الاستيلاء على خط الدفاع الأول لحزب الله. ولم يستطع الطيران، على رغم معدّل ٤٠٠ طلعة في اليوم، وقف إطلاق الصواريخ التي أجبرت سكان القسم الأكبر من الجليل على الإقامة في الملاجئ. وظهر الآن إخفاق الحملة الجوية. وبات على هيئات الأركان الإسرائيلية أن تعقد النية على هجوم برّي حقيقي أعطت الحكومة موافقتها عليه. استدعي ١٥ ألف احتياطي على مدى ثلاثة أيام لمساندة رفاقهم الذين يراوح معظمهم في مكانه على مقربة شديدة من بلدهم. ومن المؤكد أن هذه المرحلة الجديدة من المعارك، التي تقررت تحت وطأة الظروف، لم تكن مخططة منذ مدة طويلة وستضغط الارتجالات التي ستتطلبها على سياق العمليات، ناهيك بأن الاستيلاء على المواقع الأكثر قربًا، غير كافٍ، ويجب التفكير في السيطرة على خط الدفاع الثاني لحزب الله، في العمق، جنوب الليطاني مباشرة، ذلك الذي يطلق عليه اسم «بدر».

٣١ تموز/يوليو - هدوء جوّي هشّ

تميّز الليل بهدوء غريب. فاحترام تعليق العمليات الجوية جاء شاملًا. وتوجب أن يستمر ذلك طوال النهار. ولكن، وقبل حلول الظهر تمامًا، أطلقت طائرة إسرائيلية صاروخًا على الطريق الساحلية عند مستوى جسر القاسمية الذي يسمح بعبور الليطاني، والمدمّر الآن. وقد أصاب آلية قائد اللواء الثاني عشر في الجيش اللبناني الجنرال حلوة. خرج الضابط سالمًا وقُتل سائقه. وكان الجيش الإسرائيلي قد حرص حتى الآن عمومًا على التمييز بين القوات المسلحة اللبنانية وحزب الله. إلا أنه أضاف هذه المرّة إلى عدم احترام تعهّداته هجومًا غير مبرّر على جنود لبنانيين.

ونُفذت، هنا وهناك، تبعًا للضرورة، أعمال جوية أخرى دعمًا لقوات المشاة، خصوصًا. وتمسّك الإسرائيليون بالمواقع التي استحصلوا عليها كلّ مرة توقّفوا عن البحث عن محاور جديدة للاختراق. وبقيت تشكيلاتهم من دون تغيير من الناقورة إلى ميس الجبل مرورًا بعيتا الشعب ويارين ومارون الراس، فيما تقدّموا بشكل محسوس أكثر إلى الشرق في منطقة كفركلا التي اشتهرت بصفتها مركزًا لوجستيًّا لحزب الله. وما إن اجتازوا هذه القرية حتى باتوا على مشارف الطيبة والعديسة. وعمل العناصر الأكثر تقدّمًا جاهدين على الاحتفاظ بالأرض التي وجدوا صعوبة في احتلالها وهم ينتظرون الوصول القريب للوحدات التي تُحضَّر وتنشر للتمكن من استئناف تحرّكهم.

استمرّ تبادل إطلاق النار، إلا أن حزب الله خفّض، وللمرة الأولى، عدد عملياته الإنهاكية، ولم يطلق إلا ٦٠ صاروخًا في الساعات الأربع والعشرين الماضية. ومن ناحية اليونيفيل تعرّض الموقع ٨-٣٤ لقذيفة مدفعية جديدة مع أنه لم يعد فيه ما يستأهل تدميره! واستمر المدنيون في السعي إلى أماكن أكثر أمنًا. وغادر ١٨٠ من سكان قرية رميش المارونية منازلهم، على رغم

تفاني راهبات المستوصف. وتوجهوا صوب صور فيما جلبنا الماء والغذاء للذين قرروا البقاء. وكذلك شكّل ٢٠٠ قروي من شبعا، في الطرف الشرقي لمنطقة العمليات، قافلة طويلة لبلوغ المنفذ الجنوبي لسهل البقاع. فقد خشوا، لرؤيتهم الاستعدادات الإسرائيلية حول المطلّة القريبة جدًّا، ألا تستثنيهم المعارك طويلًا. وخلال إحدى الهجمات في مارون الراس، تجاوزت فصيلة إسرائيلية امرأة لبنانية وابنها وعزلتهما. وقامت بعد انتهاء العملية بإجلائهما إلى الجانب الآخر من الخط الأزرق، في إسرائيل، لتعود وتسلّمنا إياهما بعد ذلك بساعات عند معبر رأس الناقورة، في مبادرة إنسانية نادرة تضيء أحيانًا ساعات شديدة الظلمة. ودائمًا في المنطقة نفسها، استقبل المركز ٦-٥٢ وهم من غانا خمسة وعشرين مدنيًّا اضطروا إلى أن يتقاسموا معهم الاحتياط القليل من الماء والمساحة الضيقة للملجأ المحصّن.

تبلغ مدة انتداب اليونيفيل ستة أشهر، تُجدَّد، في صفة منتظمة، منذ إنشاء القوة. وستنتهي في ٣١ تموز/يوليو مدة انتدابها الراهنة التي بدأت في الأول من شباط/فبراير. ولم تسمح الأحداث الأخيرة لمجلس الأمن باتخاذ قرار تجديد مهمتها للأشهر الستة المقبلة. واتُفق، على حذر، على التمديد لها شهرًا. وحتى ذلك الوقت، إما تزول اليونيفيل من الوجود وإما تجد نفسها مُكلّفة مهمات جديدة. واستنتجنا، على مستوانا، أن نيويورك تريد أن ترانا وقد صمدنا ثلاثين يومًا أخرى، فجهّزنا أنفسنا على هذا الأساس إذ إن المغادرة غير واردة.

الأول من آب/أغسطس - محاولة إسرائيلية لاستئناف الاندفاع

سعى الجيش الإسرائيلي إلى استئناف تقدّمه في أمكنة عدة من الجبهة. فهناك خمسة ألوية منخرطة في لبنان، وهي القوات الأكبر حجمًا منذ اندلاع النزاع وتبدو ضروريّة لاختراق مواقع حزب الله التي تصدّها. وها إن عيتا

الشعب، تمامًا كما فعلت بنت جبيل قبلها بأيام، تقاوم توغّلات مشاة لواء المظليين الخامس والثلاثين الذي تواكبه المدرعات. ويقع مكان مكمن الثاني عشر من تموز/يوليو على مسافة قريبة جدًّا. وتسبّبت مشارف القرية الجنوبية بخسائر للمهاجمين منذ اليوم الأول للنزاع. والأمر يستمر. ولا يمكن اختراق هذا المعقل الذي تحوّلت فيه أقبية المنازل حصونًا، والدور السفلى للجوامع مخبأ لمستودعات الذخيرة، وحيث يختفي المقاتلون ليعاودوا الظهور فجأة من حيث لا يتم توقّعهم بفضل شبكة واسعة من الدهاليز. وهم مع ذلك لا يتجاوزون الستين ومجهّزون بالأسلحة المضادة للدبابات وبالهاونات.

بدا الوضع أكثر ملاءمةً في منطقة حولا وكفركِلا، غير أنه لا يشبه في شيء النزهات الكبرى لحرب الأيام الستة في سيناء. فالتقدُّم حذر وبطيء. ونُقلت، لتسريعه، بعض الوحدات الخفيفة بالمروحيات إلى مسافة أكثر إلى الأمام، في العمق، لإجبار حزب الله على خوض القتال على جبهتين. غير أن النتائج لم تكن مُقنعة جدًّا بسبب غياب التنسيق بين المهاجمين والعناصر الذين استُدعوا لمساعدتهم. واستأنف حزب الله، بعد هدوء الليلة السابقة النسبي، إطلاقه الصواريخ بوتيرة مضاعفة. وسُجلت ١٤٧ عملية إطلاق خلال النهار، ناهيك بتلك التي لم نتمكن من مراقبتها. ويرفض أي من الطرفين التراجع، فيما يبقى المدنيون في قلب العاصفة.

استمرّ قصف المدافع والقنابل أو الصواريخ التي تطلقها الطائرات في استهداف التجمعات السكنية. وفتّش منقّبو فريق الإنقاذ في الكتيبة الصينية بين أنقاض مبنى انهار في جبال البطم واستخرجوا جثتين. ولا يزال فريق استطلاع من الكتيبة نفسها على مقربة من الخيام. واستغلّ هدوءًا في عمليات القصف ليتمكن من الاقتراب من قاعدة دورية فريق مراقبة الهدنة. لقد تزلزلت الأرض كلّيًا من جراء القنابل والمقذوفات. ولا يمكن إلا لجرافة أن تسمح له بشق طريقه والوصول إلى ما تبقى من المركز القديم.

أصبح كل الجزء الشرقي في منطقة العمليات معزولًا تمامًا، ولا يمكنه الحصول على أي مساعدة إنسانية بسبب الانقطاعات الكثيرة في الطريق. والوضع أفضل بعض الشيء في الغرب حيث يمكننا مواكبة قوافل المؤن والضرورات الأولية من صور إلى قانا. وترفض المنظمات غير الحكومية وغيرها من المؤسسات الإنسانية عمومًا أن يواكبها عسكريون حتى لو تعلّق الأمر بالقبعات الزرق. وتصر على أن تتمكن من التحرّك وحدها على الساحة. وهي ترغب، بذلك، في تفادي اختلاط الأمور وتعتقد أن شعاراتها ودور السامري الصالح الذي تؤديه يكفيان لضمان أمنها. ونحن نعرف عن ثقة أن الأمر، في ظل الظروف الراهنة، لا يمكن أن يكون على هذا المنوال. ورفضتُ رفضًا قاطعًا ترك مثل هذه القوافل تتنقّل وحدها: فلا هي تعرف على الإطلاق حال الطرق، ولاهي تملك أي حماية في حال القصف. وسيسمح لها وجود آلية «سيسو» أو اثنتين، إذا دعت الضرورة، بترك سقف العربة المصنوع من التنك ليحتمي الجنود بتصفيح أكثر أمانًا، وبالتالي بلوغ الموقع الذي، من دوننا، يجهلون مدى قربه أو بعده.

وهذا اليوم الأول من أيام آب/أغسطس هو تقليديًّا يوم الجيش في لبنان، وهو العيد الحادي والستون هذه السنة، ولا ينوي قائده العماد ميشال سليمان الخروج على هذا التقليد. وطلب في أمر اليوم من العسكريين البقاء متيقّظين وفي جهوزية تامة لمواجهة العدوان الإسرائيلي.

٢ آب/أغسطس - اشتعال كل الجبهة

بلغت وحدات المساندة الإسرائيلية الآن قواعد انطلاقها وسيعاني مجمل الخط الأزرق ضغطها. وأُدخلت ثلاث فرق، فيما استدعيت ثلاث فرق احتياط أخرى. وبحسب مساعد رئيس الأركان الجنرال موشي كابلينسكي يوجد تسعة

آلاف رجل في لبنان. ولم يسبق أن كان تبادل إطلاق النار بمثل هذه الحدّة منذ بداية النزاع، وضاعفت الطائرات الحربية والمروحيات المسلّحة طلعاتها بعد انتهاء الهدنة الجوية. ففي الطرف الغربي لمنطقة العمليات شقّت دبابات الميركافا طريقها، ما بين مروحين وراميا، في اتجاه الشمال. وتقدّمت في بطء على رغم المقاومة الضعيفة. وأبعد إلى الشرق جاء لواء غولاني لدعم لواء المظليين الخامس والثلاثين المنخرط في معارك شوارع صعبة في عيتا الشعب، كأنها بنت جبيل الجديدة البلدة التي لم يعد الجيش الإسرائيلي يخاطر بدخولها. وفي اتجاه حولا وكفركِلا لا تزال الوحدات المؤللة تحاول الخروج من منخفض كريات شمونة سوى أن عملية عبور التلال تشهد صراعًا مريرًا. وتلقّى المركز الهندي ٨-٣٢ صاروخين أطلقهما حزب الله دمّرا الكثير من المساكن الجاهزة. وأخيرًا في شمال المطلة تم اجتياز الخط الأزرق وارتسمت عملية اندفاع في اتجاه الخيام ومرجعيون.

احتمت القبعات الزرق الموجودة على مقربة من خط الحدود بين لبنان وإسرائيل، فيما نحاول، إلى ما هو أبعد في الداخل، مواجهة الطوارئ. ففي صريفا انشغل المنقذون الصينيون في تنظيف وسط البلدة حيث انهارت منازل عدة تحت وطأة قذائف المدفعية الإسرائيلية. واستفاد عناصر من حزب الله لإطلاق أربعة صواريخ من حافة البلدة. انسحب المنقذون من دون تردّد، وهذا من حسن حظهم: ففي الدقائق التي تلت، سقطت عشر قذائف إسرائيلية في المكان بالضبط حيث كانت الورشة. واضطررنا مرّة أخرى إلى تذكير السلطات اللبنانية بأن حزب الله لا يستطيع توفير حياة المدنيين بمحاولته الاستفادة من إطلاق النار من جوار مراكز اليونيفيل. بل على العكس فإنه بقيامه بذلك يأخذهم رهائن. ولكن ربما هذا هو المقصود في بعض الحالات.

فُتحت الطريق من صور إلى قانا واستُخدمت في الأمسية السابقة لإيصال قافلة إنسانية. واستمرارًا على المحور نفسه صوب الشرق توصّلت قافلة جديدة مرفقة بمواكبة، إلى ربط صور بتبنين ناقلة الماء والمؤن للسكان. غير أن المخاوف تزايدت حيث ارتسم الاختراق في اتجاه مرجعيون وهرب لاجئون جدد في اتجاه الشمال. وغادر ٧٠ منهم الماري، غير البعيدة عن الخيام، في اتجاه كوكبا القريبة من البقاع.

٣ آب/أغسطس – بلوغ الليطاني

أخذت ملامح الاستراتيجية الإسرائيلية الجديدة تظهر رويدًا رويدًا: يحاولون أن يصغّروا إلى أقصى حد وفي أسرع وقت ممكن الجيب الذي يتحرّك فيه حزب الله بين خطوط المواجهة والليطاني. إنها خطة «تغيير الاتجاه ٨». وإذا نجحوا في ذلك فستصبح المنطقة المحتلّة أكبر من تلك التي اضطر الجيش الإسرائيلي إلى إخلائها عام ٢٠٠٠. وارتسمت اندفاعتان في وضوح. الأولى في الغرب انطلاقًا من خط الضهيرة ـ مروحين. ويُقدّر عناصرها بلواء مشاة، أي نحو ١٥٠٠ رجل. وهم الآن في طير حرفا، ويواصلون في اتجاه البيّاضة حيث يمكنهم بلوغ البحر. والثانية، عند الطرف الآخر من الجبهة، تمضي في اتجاه الشرق ـ الغرب: وقد تم الآن اجتياز كفرفيلا ودير ميماس، ويخوض رجال لواء ناحال معارك ضارية في متاهة منازل الطيبة، القرية التي تمنع الوصول إلى القنطرة، وهي أبعد إلى الغرب وتتعرّض مع ذلك لقصف بالمدفعية. أما القطاعات الأخرى فالتقدّم فيها أقلّ وضوحًا بكثير: عيتا الشعب تقاوم، ومارون الراس باقية على وضعها الراهن، ويبدو بلوغ حولا صعبًا، فيما يتم العمل على تنظيف المحيبيب وميس الجبل.

بقي حزب الله ناشطًا جدًا في مجمل المنطقة. ويتولى عناصره الخفيفون جدًا والسريعو الحركة والمُزوّدون أحيانًا تبأسلحة حديثة ومتطورة إنهاك القوات الإسرائيلية من دون توقّف. وهم أشبه بالدبابير التي أُزعجت في أعشاشها يظهرون من حيث لا يتوقّعهم أحد ويطلقون بضع قذائف مضادة للدبابات أو صواريخ أو هاونات، ثم ينسحبون. وقد وقعت في صفوفهم إصابات ولكن يصعب تقديرها. ونحن نميل إلى نحو مئة مقاتل منذ بداية النزاع فيما الإسرائيليون يضاعفون العدد ثلاث مرّات. ونحن نتساءل حقًّا كيف يمكنهم القيام بمثل هذا التعداد؟! واستمرّت الصواريخ في الانهيار على شمال الجليل فيما المواجهات تتطوّر على الأرض اللبنانية. وتمت العودة، بعد الانخفاض الطفيف، إلى تواتر يزيد على مئتي صاروخ في هذا النهار، بينها ١٥٠ أطلقت في أقل من ساعة!

تعرّضت آلية «سيسو» على مقربة من مركبا لإطلاق نار من أسلحة مشاة من مصدر غير محدّد. واستطاعت الخروج دون مشكلة من المنطقة المعرّضة للنيران. واستفادت قافلة غانيّة من فسحة هدوء لتسريب المدنيين الخمسة والعشرين الذين لجأوا إلى ٦-٥٢ منذ أربعة أيام، وأخذتهم إلى تبنين في انتظار نقلهم إلى صور.

٤ آب/أغسطس – الضحية الأخيرة لقاعدة دوريات الخيام

تمكّن جنود الكتيبة الصينية من بلوغ ركام قاعدة دورية الخيام على رغم المواجهات العنيفة الدائرة على مسافة أبعد قليلًا عند الجنوب الغربي. ونبشوها بآليات الأشغال النادرة التي لا تزال صالحة للاستعمال في المنطقة. واستطاعوا، بعد يومين من الجهود التي يقطعها من وقت إلى آخر سقوط قنابل قريبة جدًا، العثور على جثة المراقب الرابع. وأكدت حال رفيقنا إطلاق صاروخ

مضاد للتحصينات. وتولّينا في المساء نفسه، عبر الممر في السياج الإسرائيلي الذي سبق أن استخدمناه لغاية مماثلة، تسليم رفيقنا الصيني في السلاح إلى رفاقه في هيئة مراقبي الهدنة الذين سينقلونه إلى القدس.

لم تسمح الساعات الأربع والعشرون الأخيرة للإسرائيليين بتسجيل أي تقدّم يُذكر. حاولوا التقدّم في كل مكان، غير أن المقاومة قويّة، ونادرةٌ هي محاولات التوغّل التي لم يتم صدّها سريعًا. حاولوا الالتفاف غربًا على حاجز عيتا الشعب محاولين بلوغ القوزح. وهم لا يزالون يحتفظون بتلال مارون الراس التي يتسلّطون منها على بنت جبيل من دون أن يخاطروا مع ذلك بالعودة إليها. وفي النهاية، فإن القطاع الوحيد من الأرض الذي يسيطرون عليه في الجانب الغربي من منخفض كريات شمونة يتوسّع بعض الشيء حتى خط الطيبة (حيث قتل القصف المدفعي سبعة مدنيين لبنانيين)، مركبا، حولا. ولا يزالون، على مجموع المنطقة المحتلّة، بين قوات النسق الأول والخط الأزرق، ينشرون عناصر مجهّزين بالجرافات المنهمكة في تدمير المواقع التي أخلاها حزب الله. وقد راقب هذا الأخير العملية لأن الصواريخ الثلاثمئة منه التي أُطلقت في هذا اليوم سقطت غالبيتها على مقربة من الخط الذي يفصل لبنان عن إسرائيل وأُهمِلت بعض الوقت الأهداف الأكثر بعدًا في داخل الأراضي الإسرائيلية.

في الليل، نُقل رجال كوماندوس من البحرية الإسرائيلية ينتمون إلى «شاييتيت»[٢٦] ١٣ بالمروحية إلى منطقة صور لتدمير مركز قيادة لحزب الله يُعدُّ ذا خطورة بالغة. أُنزلوا في المحيط الشمالي للمدينة وضواحيها وتقدّموا سريعاً قبل أن يشتبك معهم رجال الميليشيا على مقربة من هدفهم. ونجحوا مع

(٢٦) «أسطول صغير» بالعبرية.

ذلك في إلحاق أضرار كبرى قبل أن ينسحبوا بعد ذلك بثلاث ساعات. ولم يُسهّل وجود وحدة قريبة للجيش اللبناني من مهمتهم، بل على العكس. وقد حاولت هذه الوحدة التعرّض للمروحيات، ولكن من دون جدوى، أللهم إلا تدمير ناقلة جند «أم ١١٣» على مقربة منها. نجح الإسرائيليون في الانسحاب مع عشرة جرحى في صفوفهم، فيما سقط قتيل للجيش اللبناني وسبعة لحزب الله.

عاشت اليونيفيل وضعًا يشبه بعض الشيء الوضع الذي عرفته قبل الانسحاب الإسرائيلي عام ٢٠٠٠: فجزء من مراكزها باقٍ في المنطقة التي لا تزال لبنانية، غير أن الوحدات الإسرائيلية تتجاوز المزيد والمزيد من المراكز التي تجد نفسها بحكم الأمر الواقع في الأرض التي احتُلت حديثًا ويكاد يستحيل فيها أي تنقّل. وطلب إليّ مقر الأمم المتحدة دراسة إعادة نشر هذه المراكز الأخيرة لنقل الموجودين فيها مسافة أبعد إلى الشمال. إلا أن مثل هذا الحل غير وارد على رغم كل إرادتنا الطيبة: فحال لوجستيتنا لا تسمح لنا بأن نفرض أفواهًا جديدة يجب إطعامها على الوحدات التي خُفّضت حصصها من المؤن والمياه إلى الحد الأدنى. ثم إن واقع إخلاء هذه المراكز يعني الاعتراف ضمنًا بالاحتلال الإسرائيلي لمنطقة يبحثون من دون توقّف عن توسيعها. وربما من الأفضل بدلًا من الاستسلام أن نبقي هذه الشوكة، مهما صغر حجمها، في قدم الغازي. وسيمكنها أن تشكّل في ما بعد عونًا كبيرًا للأمم المتحدة. وكانت هذه الحجة الأخيرة هي الأكثر إقناعًا لمحدّثيّ النيويوركيين الذين تخلّوا فور ذلك عن مشروعهم.

خضع مدنيان مصابان بجروح خطرة للجراحة في مستشفانا الميداني في الناقورة، فيما تمكّنت المفرزة الفرنسية من توزيع حصص غذائية على القرويين الذي بقوا في راميا والقوزح، حيث تفادت بضع قذائف من الدبابات

الإسرائيلية. إنه دائمًا ذلك التردّد الأقصى في تركنا نقوم، على الأقل، بمهمتنا الإنسانية.

٥ آب/أغسطس - لا مخرج يلوح في الأفق

بدا المجتمع الدولي كأنه يراوح مكانه: تُطرح اقتراحات ولكن لا يحظى أي منها بالإجماع في الوقت الراهن. سعى المبعوث الأميركي في بيروت ديفيد ولش إلى نشر قوة متعدّدة الجنسية وإلى اتفاق سياسي، ولكن من دون جدوى. ومن الواضح أن القوات الإسرائيلية تستفيد من ذلك وتحاول كسب المزيد من الأرض على طول خط الجبهة. وأتت النتائج متفاوتة وجرى الإندفاع الأهم في الطرف الغربي لانتشارها العسكري. وها هي بعد اجتياز طير حرفا تحتل البياضة. ويمتد البحر المتوسط عند أقدامها، ويمكّنها، من أعلى الجرف الذي يتألّق بياضه على الخلفية الزرقاء للبحر، رؤية صور التي لم تعد إلا على بعد نحو عشرة كيلومترات خط نار. وبات في وسعها الآن السيطرة على الطرق الساحلية التي تربط مقرنا العام في الناقورة بباقي لبنان. وفي ما بين عيتا الشعب وبنت جبيل، وكلتاهما عائق أمام تقدّمها، بدا لها احتلال رميش بمثابة هدف جديد يمكن أن يسمح لها بالاندفاع أكثر قليلًا صوب الشمال. وأخيرًا شهدت منطقة جنوب الخيام تجدّدًا في النشاط مع بعض التقدم حتى مشارف سردا. أما حزب الله فخفض من جهته إطلاق صواريخه: ١٢٠ «فقط» خلال النهار. ومن الممكن جدًّا أن يكون مردّ هذا التباطؤ هو الاستئناف القوي لعمليات القصف الإسرائيلية مع أكثر من ٢٥٠ طلعة جوية ونحو أربعة آلاف قذيفة مدفعية.

ها قد انقضى أكثر من ثلاثة أسابيع على بدء النزاع، ومن غير الواضح بعد كيف تسرَّع نهايته. لم يعد مخزون المستشفيات اللبنانية من الوقود يكفيها إلا أسبوعًا واحدًا لتشغيل مولداتها الكهربائية. ويمكننا حتى الآن، على رغم

خسائرنا التي بلغت ستة قتلى و١١ جريحًا، أن نَعدَّ أن الحظّ حالف القبعات الزرق نظرًا إلى حدة المواجهة، وإلى عمليات تبادل إطلاق النار بمختلف الأسلحة. بيد أن القلق المتزايد أخذ يراود الدول التي تسهم بمفارز في القوة، إذ عليها قبل كل شيء تبرير انخراطها حيال الرأي العام الوطني خصوصًا أن الأخذ بأسبابها يأخذ في التراجع كلّما طال أمد هذا الوضع. وهي تخشى طبعًا أن تواجه سياساتها الصعوبات جراء سقوط بعض القتلى أو الجرحى. وأخذنا نتلقى بالتالي بعض النداءات القلقة التي تزايد تواترها من السفراء، بل من الوزراء مباشرة: الأهم تفادي الخسائر، وعلينا أن نتدبر أمورنا في هذا الشأن. وجهدت في طمأنتهم، بكل الدبلوماسية الممكنة، في مواجهة إصرارهم المنقطع في الغالب عن الوقائع على الأرض. وقاموا من دون إبلاغ ذلك رسميًّا إلى مقر الأمم المتحدة أو إليّ شخصيًّا، بفرض «إجراءات» جديدة على جنودهم. وهذه قيود وطنية على تنفيذ المهمات التي يتطلبها الانتداب وينصّ عليها عادة الاتفاق الموقع بين البلدان المُسهِمة والأمم المتحدة عند ترتيب الوحدات. ويُبلغ رئيس البعثة الدبلوماسية ذلك ويتصرّف على هذا الأساس عندما يأمر بمهمّة ما. وأعرف، على سبيل المثال، أن من غير المسموح لبعض الكتائب القيام بعمل خارج منطقة العمليات المنوطة بها عادة، فيما لا تقبل كتائب أخرى أي دعم صحّي سوى الدعم الوطني، الخ. ولكن عندما يصبح الخطر أكثر واقعية وإلحاحًا تعمد بعض البلدان إلى إحاطة نفسها بمزيد من الوقاية وفي الغالب من دون إعلان. وهكذا وجدت إحدى الكتائب نفسها وقد منعها سفيرها في بيروت من القيام بأي عملية رفع أنقاض للمباني المنهارة والبحث عن ضحايا مدنية، لأن هذا خطير جدًّا. وفي النهاية فإن الضابط القائد لهذه المفرزة هو الذي يجد نفسه في أصعب المواقف. ويصبح في حالة نزاع حقيقية بين هذه التوجيهات الوطنية الجديدة واحترام الإجراءات العملانية التي وافقت عليها بلاده في السابق. وعليه الاختيار بين وزير دفاعه وقائد

القوة. وعليّ أن أعترف، بعد انتهاء مهمّة هؤلاء المسؤولين عن الأرض، بأنهم عرفوا في معظم الوقت كيف يوفّقون بين المتطلبات الجديدة واحترام المهمة باتخاذهم مخاطر محسوبة لم يضطروا قط، من حسن الحظ، إلى الندم عليها. يبقى أن وضعهم بلغ درجة كبيرة من الصعوبة بفعل العمليات وينبغي ألّا نزيد عليهم.

٦ آب/أغسطس – كم من الوقت بعد؟

عرفنا من الإذاعة أن لبنان رفض للتو مشروع قرار فرنسيًّا ـ أميركيًّا ينص على وقف أعمال العداء، وعلى اتفاق سياسي بين الأطراف، وعلى إنشاء قوّة دولية أخرى. لكنه لا يشير إلى الانسحاب الإسرائيلي من الأراضي اللبنانية. وقد يشرح هذا الأمر، لكن هذا الرفض يتناول بالتأكيد أيضًا نوعية القوات التي سيتم إرسالها. وقد يكونون جنودًا من حلف شمال الأطلسي، أو حتى من الاتحاد الأوروبي، ولا تريد بيروت أن تسمع بأي قوة غير القبعات الزرق. فهل ترى، نظرًا إلى التجربة القائمة منذ العام ١٩٧٨، أن من الأسهل عليها دولبتها؟ وأعلن شمعون بيريز، من جهته، تصميم الإسرائيليين على مواصلة الأعمال العدائية، أسابيع عدة. فمن وجهة نظرهم، لم يتم بعد إضعاف حزب الله بما فيه الكفاية. ولكن يجب مع ذلك الوصول سريعًا إلى قرار لأن سورية شرعت في إعلان تصريحات تهديدية وفي التشاور مع إيران التي عَدَّت أن الاقتراح الفرنسي ـ الأميركي «غير عادل».

إلا أن بداية هذا السباق مع الوقت الذي شرع فيه مجموع المتخاصمين لم تُترجم بعد بطريقة ذات مغزى على الأرض، في ما عدا بعض الاستثناءات القليلة. ففي الغرب سيطر الإسرائيليون سيطرة تامة على مرتفعات البياضة وعمدوا بمساعدة من قواتهم الخاصة إلى توسيع انتشارهم شمالًا حتى

المنصوري. وسقط لهم خمسة جرحى في انفجار مخبأ أسلحة لحزب الله. ودخلوا أيضًا ميس الجبل حيث مُنوا بخسائر ملموسة. وتجاوزوا، أبعد كثيرًا إلى الشمال، الطيبة واندفعوا غربًا في موازاة الليطاني، وهدفهم التالي هو القنطرة. غير أنهم أُخذوا في المقابل على حين غرّة في الأرض الإسرائيلية في كفر جلعادي. ففيما أخذت مجموعة من الاحتياط تتجمع فيها من دون أي تحقّظ، راقبهم حزب الله من الجرف المشرف على الوادي غربًا. وأطلق من دون انتظار قذائف أوقعت ١٢ قتيلًا و١٨ جريحًا، بينهم قائد الفرقة المدرعة الـ١٦٢ الجنرال غاي تسور.

وفي القاسمية، حيث تعبر الطريق الساحلية الليطاني، نجح اللبنانيون في إحلال معبر آنيّ تمامًا محل الجسر المدمّر، إلى جانب ركامه. غير أن غارة جوية إسرائيلية قطعت من جديد جنوب لبنان عن صيدا: فقد أدت خمس حفر، الواحدة منها بقطر أربعة أمتار وعمق مترين، إلى جعل أي عبور مستحيلًا. وأبلغتنا السلطات اللبنانية أنها تريد من جديد إعادة تركيب المعبر ولكن لأسباب إنسانية محض. وعرضت، إثباتًا لنيتها الصافية، إقامة نقطة تفتيش عليه تمنع حزب الله من الانتقال إلى الجنوب! وأفهمتهم أن ذلك لا يتمتع بالصدقية وغير قابل للتحقيق. لكنني ضميريًا، ولأن دوري يقتضي ذلك، أوصلت هذا العرض إلى قائد المنطقة الشمالية الإسرائيلي الذي لم يقفل الباب في وجهي، لكنه أبلغني أن هذا القرار يُتخذ على المستوى السياسي، وأن من المتوقّع جدًا أن يطول الجواب.

يطلق حزب الله أكثر من ٢٠٠ صاروخ في اليوم. وقد أصاب أحدها الخضيرة على بعد ٤٠ كلم شمال تل أبيب، وبالتالي أبعد من حيفا في اتجاه الجنوب. وسقط آخر، من عيار أقل كثيراً، في موقعنا ٥-١٠ على مقربة من مستودع الذخيرة الذي لم يُصب ولحسن الحظ. وقد أصيب مركز الحرس

وجُرح ثلاثة من عناصره عولجوا في مكانهم. ويتعلّق الأمر بموقع الكتيبة الصينية، وكما لو أن الأمر مقصود، فإن الصاروخ الذي أطلقه حزب الله صيني الصنع، وتمكّن اختصاصيو الكتيبة من التعرّف إليه في سهولة، وأمكنهم التأمّل في القول المأثور إن طابخ السمّ آكله.

تعرّضت قافلة حاولت شق طريقها إلى الكتيبة الهندية البعيدة إلى الشرق والتي يصعب كثيرًا تموينها، لقصف بصاروخين في العديسة. أهما صاروخان إسرائيليان أم من حزب الله؟ أيًّا يكن، فإن مطلق النار أو مطلقيها، ولسعادة قبعاتنا الزرق، سيئون.

وقُصفت الناقورة، القرية المحاذية لمقرنا العام، فانهار أحد المباني وسحبنا منه ثلاثة قتلى وجريحًا واحدًا عولج في مستشفانا بتفانٍ كبير من أطبائنا الهنود قبل أن يتم إجلاؤه إلى صور.

فتح الإسرائيليون، نهاية الأمسية، بوابة «روش هانيكرا» وسلّموا لبنانيين اثنين وسودانيًا واحدًا يحمل إجازة عمل لبنانية. استضفناهم عندنا واستفدنا من أول هدوء لتسليمهم إلى السلطات المحلّية.

٧ آب/أغسطس - انفتاح لبناني خجول

جهد الإسرائيليون على طول خط المواجهة للتقدم في اتجاه الليطاني، وضاعفوا من قصفهم باقي أنحاء البلاد، دافعين بذلك السلطات اللبنانية إلى التفتيش بهمّة أكبر عن نهاية سريعة للأزمة. وليس في وارد الأخيرة أن تتحمّل مسؤولية إثارة النزاع. بل استمرت في أداء دور الضحية مع إطلاقها مبادرات تذهب في اتجاه التهدئة، ولكن تواكبها بالتأكيد مطالب مرفوضة من إسرائيل،

مثل الانسحاب الفوري من الأراضي اللبنانية في المقام الأول. وفي السرايا[٢٧] هزّ رئيس الحكومة فؤاد السنيورة مشاعر وزراء خارجية دول الجامعة العربية بخطاب أنهاه وقد دمعت عيناه. وكرّر طرح خطّة النقاط السبع التي سبق أن قدّمها في مؤتمر روما شرطًا مسبقًا للموافقة على اتفاق يضع حدًّا للنزاع. حتى أنه أشار إلى أن الحكومة اللبنانية على استعداد لنشر ١٥ ألف رجل جنوب الليطاني على أثر انسحاب إسرائيل؛ وهو ما عدّه إيهود أولمرت «خطوة مثيرة للاهتمام». وهذا في الواقع مؤشر على النية الطيبة لكنه ليس حاسمًا لأن الجميع يتذكّرون كيف تُركت المنطقة لسيطرة حزب الله وحده بعد رحيل الإسرائيليين عام ٢٠٠٠. فهل يجب تصديق هذا الوعد الجديد بنشر الجيش اللبناني؟ ولوحظ، وهو ما يدخل في رصيد الجيش، أن قيادته العليا استدعت هذه المرة احتياطيها.

لاحظنا في الجزء اللبناني الذي تحتله إسرائيل الكثير من الذهاب والإياب بين خط الجبهة والخط الأزرق. إنها عمليات تبديل وحدات المواجهة بهدف استئناف التحرك إلى الأمام بقوات جديدة. وهي جديدة بالتأكيد لكنها تبدو أحيانًا خرقاء جدًّا. فالجنود المحترفون والاحتياط بعيدون جدًّا عما أنيط بهم منذ سنوات طويلة من عمليات سيطرة على الحشود والمناطق في الأراضي الفلسطينية. ويبدو أنهم نسوا آليات القتال الكلاسيكي في ساحة المعركة، سواء تعلّق الأمر بجندي المشاة أو بطاقم الدبابة. حتى أن المساندة التي توفّرها الطائرات تنقصها الفاعلية لأن التنسيق بين الجو والأرض غير مرض، ونادرة هي الضربات التي تعود بالفائدة المباشرة على من أوقفتهم النار العدوّة في موقعهم. بيد أن الطيارين حافظوا على يقظتهم إذ أمكنهم إسقاط طائرة من دون طيار من نوع «مسراد ١» إيرانية الصنع، أطلقها حزب الله. ولم يفاجئني ذلك

(٢٧) مقر الحكومة.

كثيرًا لأنني أعدُّ الأمر مُحتملًا جدًّا. وقد سبق لحزب الله، في مناسبات عدة، أن استخدم مثل هذه الطائرات من دون طيار بمعاونة من اختصاصيين وفّرتهم طهران بالتأكيد.

باتت ميس الجبل الآن تحت السيطرة الإسرائيلية التامة. وتميّزت مقاومة حزب الله بالحدّة انطلاقًا من المواقع التي احتلها في المستشفى. وقام الجيش الإسرائيلي، بعد تنبيهنا، بإخضاع هذا الموقع الذي افترض بهذا الجانب وذاك تحييده بسبب وضعه الإنساني. وبات الإسرائيليون بهذا الاحتلال الجديد يمسكون الآن بشريط يراوح عرضه بين كيلومترين وثلاثة كيلومترات في الأرض اللبنانية على طول الجانب الغربي لإصبع المطلّة. وشهدت حولا، الواقعة في قلب هذه المنطقة، صدامات قاسية. وهرب السكان، الذين تعرّضوا لعمليات قصف كثيفة، من منازلهم والتصقوا بورشة كبيرة لأبنية غير منجزة حيث طلبوا حمايتنا. فحوّلت عندذاك الكتيبة الهندية المكان «منطقة آمنة» موضوعة تحت سلطة الأمم المتحدة وأُبلغ الجميع إحداثياتها. ويوجد هنا ١٧٥ شخصًا مجرّدين من كل شيء ولمدة لا يزال من غير الممكن توقّعها. وأرسلت الكتيبة عنصرًا مسلّحًا وفريقًا طبّيًا أجلى خمسة جرحى إلى الموقع ٨-٣١، حيث تلقوا الإسعافات الأولية وبقوا قيد المراقبة في انتظار أن يتمكن الصليب الأحمر من تعهّدهم.

بات على موقع الكتيبة الصينية ٥-١٠ الكفاح الآن ضد هجوم الحرائق بعد الأضرار التي تسبب بها صاروخ حزب الله في اليوم السابق. فعمليات إطلاق النار الإسرائيلية هي التي تسببت هذه المرة بحرائق كبرى في الأدغال. وباتت منطقة مستودع الذخيرة من جديد في خطر. ولن يمكن إطفاء النيران بما تبقى من ماء لدى الرجال، فتمكّن منقذونا الصينيون من القضاء عليها بالمعاول وشفرات الجرافات، متحاشين بذلك إصابة المركز بأي ضرر إضافي.

وقد عانوا وضعًا حرجًا بلغ حدًّا دفع بسفارتهم في بيروت التي أصابها القلق، إلى أن تطلب إليّ أن أسحب في أسرع ما يمكن الذخائر المخزونة في المركز ووضعها في مكان آخر. مكان آخر، ولكن أين؟ فموقعها الراهن أشبه بمخزن البارود، تحميه جدران فاصلة. والذخائر موجودة في مخازن من باطون مزوّدة بأكياس مملوءة بالتراب. ومن المشكوك فيه أن تؤدي إصابة مباشرة إلى استثارة انفجار. ويتوجّب إذًا نقلُها ووضعها في العراء حيث لم يتم تصميم أي شيء لحمايتها أو أقله لحراستها. وحاولت شرح ذلك كلّه برويّة لمحاوري الذي لا يريد أن يقتنع. وأكدت له، لوضع حد لذلك، أننا سنبقي الذخيرة حيث هي إلا إذا اقترح عليّ مكانًا مناسبًا! وأنا ما زلت في الانتظار.

بقينا معزولين تمامًا في منطقة عملياتنا، ولم نحصل منذ مدة طويلة على أي تموين. حتى الإخلاءات الصحّية بقيت تشكّل معضلة كبرى. ولاحت لنا بارقة أمل عندما أخبرني مقرّنا العام في نيويورك أن مروحية «أم آي ٨» مستأجرة من إحدى الشركات الروسية هي في صدد الانتقال إلى قبرص. وهي تتميز بقدرة استيعاب كبيرة تصل إلى ٣٢ راكبًا وتمتلك توربينين، وهو شرط ضروري للطيران على مستوى سطح البحر. ولا تمتلك طائرات «أغوستا بل ٢٠٥» التابعة للكتيبة الجوية الإيطالية هذه القدرة: فهي ذات توربين واحد ولا تتسع لأكثر من ١١ راكبًا. وتستطيع واحدة من هذه الطائرات، في أقصى الحالات، أن تصل إلى قبرص بشرط أن تواكبها طائرة أخرى تنجدها في حال وقوع أي حادث. وبما أن الإسرائيليين هم بحكم الأمر الواقع سادة المجال الجوي في المنطقة، فقد حاولنا التفاوض معهم على ممر تتاح لنا فيه حرّية الطيران بين الناقورة ولارنكا، فجُبهنا بالرفض القاطع. فالأولوية الدائمة لعملياتهم الجوية، خصوصًا أنهم أعلنوا للتو، من جانب واحد، حظرًا للتجول بعد الساعة ٢٢ من كل ليلة، وقرارهم إطلاق نيران طائراتهم ومروحياتهم على كل آلية تتحرّك ليلًا.

لم يمنع التوتّر الواقع من احترام التقاليد، وانتهى النهار باحتفال قصير في قاعة الاجتماع المجاورة لمكتبي. وبات ممكنًا للفرنسيين العاملين في مكتبي وأولئك الذين يوفرون لي الحماية أن يجدوا أنفسهم وقد حازوا وسام القوّة لأنهم اجتازوا للتو سقف الأيام التسعين من الحضور. وقد قلّدتهم، في ظل الظروف الخاصة، هذه الأوسمة بكل طيبة خاطر. تلوت العبارة المعهودة، وعلّقت الميداليات على السترات، وحلّت النظرات في سهولة محل التعليقات الطنانة. فالأزمة قرّبتنا جميعنا بعضنا من بعض، وهم يعرفون ذلك. ولم ننهِ الاحتفال بالشامبانيا بل بكوب من النبيذ اللبناني. وقد تم الاحتفاظ بالزجاجة للمناسبة. ثم عاد كل منّا إلى عمله، فالحرب مستمرة.

٨ آب/أغسطس - الهدفان بنت جبيل ومرجعيون

أصبحت قوات الدعم الإسرائيلية عملانية الآن، وتحتشد أقرب ما يكون إلى الخط الأزرق. حان الوقت ليحاول الجيش الإسرائيلي استئناف تقدّمه في وقت أُرسل معاون رئيس الأركان الجنرال موشي كابلينسكي إلى جانب القيادة الشمالية كممثل شخصي لرئيس الأركان العامة. وقُدّم هذا الإجراء على أنه دعم للجنرال عودي آدم الذي عليه الآن قيادة ما بات حجمه عدّة أولية. لكن الحقيقة هي أن تل أبيب غير راضية عن الطريقة التي دارت فيها العمليات حتى الآن، وتريد معالجة الوضع من دون أن تعمد إلى إعفاء المسؤول.

ومن مارون الراس عاود المشاة ومدرعات اللواء الـ٦٠٩ محاصرة بنت جبيل، حيث بدت المقاومة أقل شراسة مما كانت عليه من قبل. ومع ذلك نُفّذ التقدّم بدرجة قصوى من الحذر. وتم بلوغ الأطراف الشمالية للمنطقة السكَنية من دون اجتيازها. والحدث الاستثنائي هو قيام المهاجمين بأسر مقاتلين من حزب الله. ولاحظنا، في الأراضي الإسرائيلية، في منطقة كريات شمونة،

حشدًا كبيرًا للوسائل: مئات المدرعات والدبابات وناقلات الجند وما بين مئتي جندي وثلاثمئة، جميعهم على استعداد للتحرك صوب الشمال. وقد تم من هناك اجتياز الخط الأزرق وكذلك خط أنابيب النفط العربي، التابلاين. وانتشرت أولى دبابات الميركافا في السهل المؤدي إلى مرجعيون. وباتت على مستوى المطار القديم الذين بناه البريطانيون خلال الحرب العالمية الثانية ولا يزال في الإمكان تبيّن مدرجه والمرائب. واجتازت إحدى الوحدات معمل الإسمنت في سردا، وتمركزت في القرية بهدف حماية الدبابات في مواجهة مواقع حزب الله في الخيام. ولم يتحقق أي تقدّم يُذكر في القطاعات الأخرى من الجبهة. ويسعى الإسرائيليون أيضًا إلى إضعاف مواقع حزب الله المقامة في أمكنة أبعد في الأعماق والتي يعوق إطلاق النار منها تقدّمهم. فلا تزال منطقة الطيري ومحاور أوديتها تؤوي مواقع بطاريات الصواريخ. ووجدت القنابل والمقذوفات صعوبة في إسكاتها ولم توفّر مركزنا ٦-٤٤ الذي أصيب بقذيفتي دبابة وقذيفتي مدفعية: ثلاث إصابات في باطون التحصين من دون سقوط ضحايا على عكس ٢٨ تموز/يوليو عندما سقط أربعة جرحى في الموقع.

أحصينا إطلاق حزب الله ١٤٠ صاروخًا خلال النهار، سوى أن الأكثر إثارة للمفاجأة هو أن بعضها انطلق من المواقع التي اجتازها الجيش الإسرائيلي. فما بين الناقورة والخط الأزرق، على سبيل المثال، وفي المنطقة التي أصبحت إسرائيلية الآن، تعرّضت مواقع حزب الله لقنابل الطائرات الإسرائيلية. ثم إن فرق الهندسة عمدت أيضًا إلى تدمير بعضها، لكن بعضها الآخر أخذ يلتقط أنفاسه مع هبوط الليل ويطلق النار في اتجاه الجنوب. ويتجه الإسرائيليون، مع انتهاء النهار، إلى إعادة التجمّع وتبنّي إجراءات أقل انتشارًا، فيستفيد رجال الميليشيات من الوضع لإعادة احتلال الأماكن التي يعرفونها تمام المعرفة. والمخابئ كثيرة، وأحيانًا مفخخة وخفية، وذات ترتيب معقّد ومملوءة بالذخيرة التي لا يتطلب تشغيلها وسائل متطوّرة. فجل ما هو مطلوب منصة إطلاق تُوجّه

صوب العدو. وعمليات الإطلاق هذه، إضافة إلى الأضرار التي توقعها، تؤدي خصوصًا إلى ضرب معنويات الجنود الغزاة الذين يشاهدون مسار هذه الذخائر يضيء السماء خلف ظهورهم في اتجاه مواطنيهم.

أكّد الإسرائيليون حظر التجوّل الذي يعتزمون إحلاله بإلقائهم مناشير على صور. حتى أن مطالبهم ذهبت إلى أبعد مما أظهروه في الليلة الفائتة: أي تحرّك لأي آلية في اتجاه الجنوب سيُعدُّ من الآن فصاعدًا، مشبوهًا، وبالتالي عرضة لإطلاق النار عليه حتى في وضح النهار. بيد أنهم أبلغونا سرًّا أن آليات الصليب الأحمر غير معنيّة. وهم لا يريدون إعلان ذلك خوفًا من استخدام حزب الله سيارات الإسعاف لغايات غير تلك المنصوص عنها في ميثاق جنيف. وبذل الصليب الأحمر اللبناني، بشجاعة، كل ما في وسعه لمساعدة السكان. غير أن إمكاناته ضعيفة جدًّا. وأمكنه، على رغم ذلك، تولّي الجرحى الخمسة الذين استضافهم المركز ٨-٣١ منذ البارحة. لكنه عجز في المقابل عن توفير أي مساعدة للاجئي حولا الذين لا يزالون يتلقون المساعدة من الكتيبة الهندية. وبقيت اليونيفيل وحدها في معركة إنقاذ المدنيين هذه، لأن إجراءات اليقظة التي فرضتها إسرائيل أخيرًا ردعت المنظمات غير الحكومية عن التنقل في منطقة العمليات. وبقيت، تفاديًا للخسائر، معتكفة في منطقة صور على أمل مجيء أيام أفضل. ومن جهتنا، بقيت كل عملية انتقال تشكّل معضلة، وها هي الكتيبة الهندية تعلمنا أنها لم يعد لديها من الوقود سوى ما يكفيها ٢٤ ساعة.

٩ آب/أغسطس – الاستيلاء على أكبر عدد من أوراق المساومة قبل النهاية

واصل المجتمع الدولي جهوده للاتفاق على نص القرار المقبول من مجمل الأفرقاء وحلفائهم. وأحرز تقدّمًا بطيئًا لكن ملموسًا. وحاول عندذاك كل طرف

الاستفادة بأفضل ما يكون من الوقت المتبقي أمامه قبل اضطراره إلى إسكات السلاح. وأباحت السلطات الإسرائيلية كل شيء للعسكريين، ليوسعوا ما أمكن احتلالهم الأراضي اللبنانية. غير أن هذا الضوء الأخضر لم يُترجم في الوقائع إلا قليلًا، نسبيًّا. إذ بقيت خطوط الصدام مستقرّة على رغم تبادل النيران الكثيف. ففي أطراف عيتا الشعب التي ما زالت تقاوم تشتعل النيران في دبابة ميركافا تابعة للواء الـ٨٤٧، وتمكن طاقمها من الخروج منها غير أن أفراده جميعهم جرحى وبعضهم أصيب بحروق. وهذا الحادث ليس معزولًا، فقد دُمّرت دبابات أخرى من الطراز نفسه أو أصيبت بأضرار جسيمة. فحزب الله مُزوّد بصواريخ فاعلة مضادة للدبابات وبعضها حديث جدًّا مثل «AT-١٤ كورنيت-E» الروسية الصنع. ونالت نجاحاته من أسطورة الدبابة الإسرائيلية التي لا تُقهر. ولم يستخدم مقاتلو حزب الله هذه الذخائر المحدّدة ضد المدرعات فحسب، بل أيضًا ضد المباني التي يسعى أعداؤهم إلى الاحتماء فيها. وكشفوا ليل ٩ - ١٠ في دبل تجمّعًا للجنود الإسرائيليين في أحد مباني القرية. وسرعان ما أصيب المبنى بصواريخ عدة أوقعت نحو أربعين قتيلًا وجريحًا في غضون دقائق. وشهد السهل شمال المطلة أيضًا حطام المدرعات فيما الوحدات الإسرائيلية تبلغ المشارف الجنوبية لمرجعيون. وبلغت في تقدّمها دبّين، وفتحت طريقًا تسمح لها بالتالي بالتقاء المنفذ الجنوبي لسهل البقاع. غير أنها، في المقابل، لم تدخل الخيام التي دمّرها القصف عن بكرة أبيها. لم يعد الحصن الآن سوى امتداد واسع من الأنقاض.

في الصباح أُصيبت جدران الموقع ٩-٦٦، الموجود مباشرة شرق محور التقدم الإسرائيلي بوابل من شظايا ست قذائف هاون سقطت على بعد أقل من عشرة أمتار. ثم، بعد الظهر، أصابت أربع قذائف أخرى من النوع نفسه هدفها، فدُمّرت آلية خفيفة إضافة إلى خزان الوقود ومجموعة توليد الكهرباء التي استحال تصليحها. وإذا لم يعد وصل التيار الكهربائي سريعًا فستتوقف

الاتصالات اللاسلكية في غضون يومين. وعلى الكتيبة الهندية قطعًا أن تستبدل المعدات المدمّرة تحت طائلة الاضطرار إلى إخلاء موقعها. فمن غير الوراد ترك هؤلاء الجنود معزولين من دون أن تتوافر للقيادة أي وسيلة للاستخبار عن أحوالهم. غير أن القسم الأكبر من الكتيبة الهندية بات في وضع غير ثابت إذ أخذت الوحدة تفتقر إلى المحروقات والماء، وقد أجاز لي رئيس فريق إدارة عمليات السلام، جان ـ ماري غويهينّو (فرنسا)، من نيويورك التخلّي عن المواقع التي تُعدُّ أنها فقدت مقومات البقاء. وطلبت إلى قائد الكتيبة العقيد سوباش بانوار التحضير لإعادة انتشار ترتيباته العسكرية والنظر في التخلّي عن المراكز التي يتبيّن استحالة البقاء فيها بعد. فمن الأفضل ألا نتعرّض للمفاجأة في حال الضرورة القصوى، غير أنني أعرف أن رجالنا السيخ ذوي العمامات الزرق وكادراتهم ليسوا على استعداد للخضوع أمام الضغط الإسرائيلي. وأنا على ثقة تامة بأن هؤلاء الجنود يبرهنون، كل يوم على مسارح عمليات أخرى، مثل الحدود الباكستانية، حِرَفيتهم الممتازة. صحيح أن نهاية النزاع لم تأت بعد، لكننا ندرك أنها تقترب وأن الوقت ليس للتخاذل.

وهكذا أصابت الذخائر الإسرائيلية ٩-٦٦ إصابات بالغة. وليس سوى مَن فقد عقله يعتقد لدى سقوط صاروخين في فناء المركز ٦-٥ في تبنين أن حزب الله يريد البقاء خارج هذه اللعبة. لأن هذين الصاروخين هما بالتأكيد هدية من حزب الله. وتضرر مبنيان، ودُمّر مكتب النقيب قائد وحدة الصيانة البولندية تدميرًا كاملًا. ومن حسن الحظ أن ما من ضحية سقطت. غير أن هذا لم يمنع حدوث تدخّل خارجي جديد مشابه بعض الشيء لتدخّل السفارة الصينية، أول من أمس، يطلب أن تخلي الوحدة كلها المكان وتُعاد إلى الناقورة حيث يوجد باقي المفرزة البولندية. وشرحت للطالب أن ما من مكان في منطقة العمليات أكثر أمنًا من أي مكان آخر، وأنني لا أملك أي مبرّر للشروع في مثل هذه الحركة. ومن غير الوارد إقفال أي مركز لدى أصغر حادث، مهما تبلغ درجة

خطورته. ويمتلك شاغلوه القدرة على حماية أنفسهم؛وعليهم، على أي حال، القيام بمهمتهم. وسيأتي، منذ اليوم التالي، إطلاق صاروخ على الناقورة ليؤكّد صحّة جوابي: فقد انفجر في قلب المكان الذي تتجمع فيه الكتيبة اللوجستية البولندية، في المكان نفسه الذي افترض بها استقبال مواطنيها لو أنني أذعنت! وقد جرحت الشظايا أحد الحرّاس الفرنسيين.

شعرت الحكومة اللبنانية تمامًا أن خصمها يريد الاقتراب ما أمكن من الليطاني قبل الاستحقاق. وأملت في أن يتمكّن حزب الله من الاستمرار في مقاومة تقدّمه، لكنها لا تريد السقوط في فخّ زجّ وحدات من الجيش اللبناني إلى جانب الميليشيات، لأن هذا يعني إعطاء ذريعة جميلة جدًّا لإسرائيل للتشدد في عملياتها بل توسيعها إلى ما هو أبعد من جنوب لبنان. وأرادت، مع ذلك، أن تظهر انفتاحها على كل حلّ من شأنه وضع حدّ للنزاع الذي تعانيه البلاد أكثر فأكثر. اتصل بي العميد خوري، مدير المخابرات في الجيش اللبناني. واقترح عليّ إنشاء خليّة تنسيق من أجل تسهيل نشر وحداته حين ينجز الجيش الإسرائيلي انسحابه. وهذه على الأقل إشارة سليمة النيّة يتوجّب تشجيعها، فطلبت إلى ممثلي في بيروت المساهمة في هذا المشروع باسم اليونيفيل.

ولّدت هذه الاتصالات لدي انطباعًا أن دينامية جديدة انطلقت تعطي أملًا، لا يزال خافتًا، بنهاية محتملة للأعمال العدائية. ولكن لا يمكن للمدنيين في الساحة امتلاك مثل هذه الرؤية. وقد استمرّوا في المعاناة من دون أن يمتلكوا أدنى فكرة عن مستقبلهم. وأمكن الصليب الأحمر اللبناني إجلاء ٢٨٧ شخصًا من حولا وميس الجبل إلى مرجعيون التي وصلوا إليها في الوقت نفسه تقريبًا مع الإسرائيليين. غير أن هذا الرحيل لم يفرغ «منطقتنا الآمنة» في حولا، حيث واصلنا الاهتمام قدر الإمكان بالمتجمعين فيها منذ يومين.

افتقر آلاف عدّة من الناس في رميش إلى الماء. ولم تعد البئر الارتوازية تعمل بسبب فقدان الوقود اللازم لتشغيل مضختها. وأمكننا توفير القليل منه ولو بالحد الأقصى من التقتير. وهي الكمية التي ستنقصنا في المستقبل القريب جدًّا.

١٠ آب/أغسطس – مرجعيون تحت الاحتلال

استمرّت المساومات بين فرنسا والولايات المتحدة للوصول إلى مشروع قرار مشترك، في وقت جهد الإسرائيليون في تنظيف جزء من الأراضي اللبنانية التي يحتلونها شمال الخط الأزرق. وهم ليسوا في أمان في أي مكان إذ يتعرّضون للإنهاك على أيدي مجموعات صغيرة سريعة التنقّل من حزب الله ويُضطرون إلى حراسة أنفسهم كل الوقت. ومهما انصرفوا إلى استخدام الجرافات في تدمير المواقع التي يجتازونها وجرفها، فإنهم ليسوا متيقّنين مما يخلفونه وراءهم.

المكسب الوحيد على الأرض التي يمكن فعلًا ملاحظته خلال النهار تحقق في مرجعيون. ومن شأن احتلال هذا المركز السكني المهم ذي الغالبية المسيحية والذي يضم قبر الرائد سعد حداد الضابط اللبناني الذي أنشأ جيش لبنان الحر ليصبح بالتالي جيش لبنان الجنوبي[٢٨]، أن يسمح للجيش الإسرائيلي ببلوغ الليطاني من أقرب نقطة، ويتجنّب، في الوقت نفسه، القرى الشيعية. غير أن هذا الاحتلال لم يتم من دون مشاكل تعترض اللواء الـ٣٦٦. فمن أصل ٢١ دبابة حاولت دخول المدينة دمّر حزب الله، بمعاونة من ميليشيات الحزب السوري القومي الاجتماعي، سبعًا في مكمنٍ نصبه عند مدخل المدنية. وأصيبت أربع أخرى وهي تنسحب. وفي النهاية تمكّن المشاة، مساء، من القضاء على مقاومة العناصر المسلحة. وانتهوا إلى احتلال الثكنة التي يعرفونها تمام المعرفة لأنها،

(٢٨) أنظر ما سيلي.

وعلى امتداد ١٥ عامًا، احتوت المقر العام للقوات الإسرائيلية وهي في جنوب لبنان. وأصبحت، بعد رحيلهم عام ٢٠٠٠، مقرًّا للقوة الأمنية المشتركة. وكان ٣٥٠ من عناصر هذه القوة، بمن فيهم قائدهم العميد عدنان داود، لا يزالون فيها عندما اقتحمها الإسرائيليون. وليس لدى هؤلاء الجنود، بالاتفاق مع سلطاتهم، أي إرادة في المقاومة وأظهر الجيش الإسرائيلي استعدادًا لتركهم يغادرون معسكرهم شرط التخلي عن سلاحهم والانصياع لتدقيق في هوياتهم، حتى لا يتمكن أي عنصر من عناصر حزب الله من الاستفادة من الفرصة غير المُنتظرة. وسارعت الكتيبة الهندية إلى إيفاد مفرزة مصفّحة لتسهيل المفاوضات، فيما طلب إلينا رئيس الحكومة اللبنانية تنظيم إجلاء العناصر المحررين إلى بيروت.

حفّز الشحّ على القيام بالمبادرات. فأفاد قائد الكتيبة الهندية أنه نجح في جمع ثلاثة آلاف لتر من المحروقات من محطات الوقود في المنطقة، أي ما يكفي للبقاء مزيدًا من الوقت بعد، ولكن ليس بالضرورة للجميع. فمراكزه الأقرب إلى الخط الأزرق معزولة بالكامل، وراء الوحدات الإسرائيلية، ويستحيل في الوقت الحاضر تموينها.

١١ آب/أغسطس - قرار جديد لليونيفيل

أسف رئيس وزراء إسرائيل رسميًّا لانتفاء التقدّم في النقاشات الدائرة في الأمم المتحدة للتوصل إلى هدنة، لكنه في الوقت نفسه أمر جيشه بمضاعفة الجهود لبلوغ الليطاني. وأقل ما يُقال في الذريعة المُعلنة أنها قابلة للنقاش، لأن إيهود أولمرت يُدرك أن الاستحقاق بات الآن قريبًا، وقد قرّر الاستيلاء على المقدار الأكبر من أوراق المساومة، قبل أن يُضطرّ إلى وقف كل تحرّك على الأرض.

اكتفى الإسرائيليون بدعم مواقعهم في الجزء الغربي من انتشارهم. وخضع حزب الله في البيّاضة خصوصًا لضغط بلغ من القوة أن مقاتليه الذين يتعرّضون للإنهاك، لم يعودوا يفرّقون بين آليات القتال المطلية بالكاكي أو بالأبيض. وهكذا تعرّضت آلية «سيسو» من آلياتنا لنيرانهم، وهي تنتقل على الطريق الساحلية، مما أدى إلى ثقب أحد إطاراتها، وإلى إصابة تصفيحها بنحو عشرين شظية.

حقق الإسرائيليون في الوسط والشرق مكاسب أكثر أهمية على الأرض. فقد تم الآن تجاوز بنت جبيل التي لم تعد سوى كومة من الركام، وبلغ الاندفاع صوب تبنين قوس الدائرة في الطيري ـ بيت ياحون ـ كونين فيما لم تسقط عيتا الشعب بعد. وأظهر القصف المدفعي في العمق أن المهاجمين لا يريدون التوقّف عند هذا الحد. إلا أن الليطاني لا يزال بعيدًا.

تواردت وحدات اللواء الـ١٦٢ التي نفذت من مركبا والطيبة صوب القنطرة التي عليها تجاوزها في اتجاه الغرب. هدفها أن تساعد رجال لواء ناحال الذين نقلوا بالمروحيات، بعد الظهر، إلى منطقة الغندورية الأكثر تقدّمًا. وعملية النقل الجوي هذه هي الأهم التي تُنفّذ منذ حرب يوم الغفران عام ١٩٧٣.

نظّمنا في مرجعيون إجلاء عناصر القوة الأمنية المشتركة، من درك وقوى أمن داخلي، وقد جُردوا من السلاح. تشكّلت قافلة من ١٥٠ آلية عند المدخل الشرقي للبلدة. وبدأت تقدّمها، بمواكبة منّا، في اتجاه حاصبيا، صوب المنفذ الجنوبي للبقاع. وسرعان ما أوقفها انقطاع نتج عن الغارات الجوية. واستحال القيام بأي التفاف في هذا المكان الذي تلتف فيه الطريق حول سفح التلة. ولا بد من اللجوء إلى آليات نقل التراب لردم الحفرة قبل التفكير في استئناف التقدّم. وفي هذه الأثناء انضمت أكثر من ٣٠٠ سيارة مدنية إلى الطابور. وعند الغسق، بات عدد السيارات التي عاودت الانطلاق ٥٠٠. وأمكننا إعادة الاتصال بالقيادة الشمالية الإسرائيلية لإبلاغها حجم هذه الحركة وطبيعتها.

وفاوضناها أيضًا على مسار محمي حتى بيروت إضافة إلى فسحة زمنية للتحرّك في حرّية. رغم هذه الاحتياطات، وفي عزّ الليل على مقربة من كفريا المشهورة حتى ذاك بنبيذها، أطلقت طائرة إسرائيلية من دون طيار صواريخها على القافلة موقعة سبعة قتلى و٣٦ جريحًا غالبيتهم العظمى من المدنيين. ولمّا اتصلنا بالإسرائيليين من جديد لم يتمكنوا من إعطاء أي تفسير لما وصفوه في شكل غريب بالخطأ. وسنعاود التفاوض معهم على مهلة زمنية جديدة لتتمكن القافلة من مواصلة طريقها إلى بيروت من خلال الاحتفاظ بالمسار الأصلي. وسينتهي الناجون بالوصول إلى بيروت، منهكين، بعد عشرين ساعة من السفر.

وتم، أكثر إلى الشرق، وبالحرف الواحد، تدمير الخيام كلها، لكن الجيش الإسرائيلي لم يدخلها. فالركام على أي حال يشكّل عوائق كثيرة أمام تقدّمه. ومن الأسهل عليه استخدام المحاور الموصلة عن جانبي البلدة إلى الشمال. ودمّر الإسرائيليون، بوصولهم إلى الماري، مستودعًا كبيرًا للذخيرة، اضطر حزب الله إلى التخلي عنه. إلا أن هذا لم يمنعه مع ذلك من متابعة إطلاق الصواريخ، وقد أحصينا أكثر من ٢٠٠ هذا النهار وحده.

جهدنا، رغم عنف المواجهات، في مواصلة دعمنا السكان. فالمدفعية الإسرائيلية استهدفت حاريص، والدمار كبير. وقد سحبنا تسعة جرحى أوصلناهم إلى مستشفى تبنين. ونقلنا أيضًا نحو ستين قرويًّا لم يعد لديهم سقف يؤويهم وجاءوا بحثًا عن ملجأ في البلدية. وأسعفنا في الظهيرة ثلاثة جرحى آخرين أدخلهم جراحونا الهنود من دون تأخير إلى العمليات في الناقورة قبل تسليمهم إلى المستشفى البلدي في صور.

أخذت مساعداتنا ترتهن أكثر فأكثر للظروف، بسبب النقص في الموارد. وينطبق هذا خصوصًا على الكتيبة الهندية، وهي الأكثر بعدًا عمّا بقي لنا من موارد لوجستية مُخزّنة في الناقورة. ويستحيل تمرير أي شيء من الغرب إلى

الشرق، فهناك الكثير من الطرق المقطوعة، ويتوجب المرور عبر محاور تقدّم الإسرائيليين. وعانينا بالأخص نقصًا في مياه الشرب وأصبح تموين المراكز أكثر من مسألة طارئة. ولم يبقَ أمامنا إلا خيار وحيد: إذا لم يمكننا الانتقال شمال الخط الأزرق، فسنحاول جنوبه. وتوصلّنا إلى أن يسمح لنا الإسرائيليون باستخدام شبكة طرقهم. فشُكلت قافلة التموين سريعًا، ودخلت إسرائيل عبر معبر «روش هانيكرا»، وبلغت كريات شمونه، ثم عادت ودخلت لبنان من المطلّة. ووصلت أخيرًا، مستغلّة أوقات الهدوء، إلى مقر قيادة الكتيبة الهندية في إبل السقي. غير أن المهمة لم تنتهِ هنا، إذ توجّب توزيع المؤن والمياه على مختلف مراكز الكتيبة. وتمّ سريعًا تزويد المرتكز الواقعة في مناطق هادئة نسبيًا، فيما اضطرت المراكز الأخرى إلى الانتظار أكثر من يوم ليتم في النهاية تموينها جزئيًّا.

غير أن أمورنا اليومية على الأرض، مهما تكن مقلقة، لم تشغل، تلك الليلة، جُلَّ انتباهي. فثمّة ما هو أكثر أهمية: أبلغتني نيويورك أن مجلس الأمن تبنّى بالإجماع قرارًا يهدف إلى وضع حد للنزاع الجاري. وقد حمل الرقم ١٧٠١، ويعطي اليونيفيل انتدابًا جديدًا وإمكانات جديدة. قرأت جيّدًا: اليونيفيل مستمرة في الجنوب لكنها ستتطوّر. وجهودنا في البقاء لم تذهب هباء، وستستمر الراية الزرقاء ترفرف في جنوب لبنان. شعرنا جميعنا بالارتياح الكبير جدًّا، ولم يكن بمقدورنا بعد أن نتخيّل أن بعض السياسيين، بل وبعض العسكريين أيضًا، سينحون علينا باللائمة على ذلك، يومًا ما.

بيد أن الأمور لم تنتهِ، بل على العكس ستستمر أعمال العداء ولن تتوقف إلا صباح الرابع عشر من آب/أغسطس، شرط أن تقبل إسرائيل ولبنان اقتراحات الأمين العام المتعلّقة بوقف إطلاق النار. والمهمّ هو عدم الابتهاج باكرًا جدًّا والاستمرار في العمل على غرار ما نفعله منذ ١٢ تموز/يوليو. وقد أكّد لي ذلك

أيضًا فريق إدارة عملية السلام: يجب الاستمرار في المراقبة، والقيام بالوساطات إذا تطلّب الأمر ذلك، والمساعدة الإنسانية ولكن من دون ركوب مخاطر غير محسوبة. وأنا أيضًا مدرك تمام الإدراك أن الدول المُسهِمة في اليونيفيل لن تسامحني أبدًا في حال تكبّدنا خسائر بشرية جديدة. وعلى الأرض، سيكون الغد إذًا أشبه باليوم. لكن في هيئة الأركان سيكون مختلفًا: سيتوجّب الجمع بين إدارة الأمور اليومية ودراسة انتدابنا الجديد، من دون تأخير، لاستخلاص المهمات المطلوبة منّا وإجراء جردة بالوسائل الضرورية للقيام بها. فأمامنا أيضًا بضع ليالٍ قصيرة جدًّا!

١٢ آب/أغسطس - لا هوادة على الأرض

تبنّت الحكومة اللبنانية بالإجماع القرار ١٧٠١، فيما تعهّد حسن نصرالله «احترام الوقف التام للأعمال العدائية» الذي سيأتي. أما الجيش الإسرائيلي فواصل، من جهته، تحرُّكاته التي أرادها هجومية، ولكن مع تحقيق نتائج هزيلة جدًّا. واستمر تبادل إطلاق النار في كل مكان تقريبًا من دون مكاسب فعلية ميدانيًا، في ما عدا جنوب تبنين، حيث تم بلوغ منطقة الطيري ـ بيت ياحون ـ كونين فيما العمل جار على تنظيف هذه القرى الثلاث. وتلقى المركز الغاني ٦-٤٤ خلال هذه العملية سبع قذائف دمّرت عددًا من المباني الجاهزة وبخاصة خزّان المياه. وكان المركز ٦-٤١ المجاور شمالاً قد تلقى قذيفتين كانت أضرارهما طفيفة.

بلغت دبابات الميركافا والجرّافات المصفّحة الإسرائيلية التابعة للواء الـ٤٠١ القنطرة وهي تحاول بلوغ العناصر الذين أنزلوا بالمروحيات، الليلة الفائتة، على خط القمم الممتد من برج قلاويه إلى فرون مرورًا بالغندورية. وبات رجال لواء ناحال يشرفون على الليطاني، لكنهم يحتاجون إلى دعم المدرعات ليتمكنوا

من الاستمرار في التقدّم. وعلى هذه الأخيرة أن تدخل إجباريًا في عمق أحد الأودية، وهو وادي السلوقي، الأمر الذي سيتسبب بهلاكها. فحزب الله يحتل المرتفعات التي ركّز فيها مواقع عدّة مضادة للدبابات. وانتظر، في صبر، أن يدخل الخصم كليًّا في الفخ قبل أن يفتح النار. مني الإسرائيليون بخسائر فادحة، وهي ربّما الأكبر في مكان واحد في مثل هذا الوقت القصير منذ بداية النزاع. وقد دُمّر أو تضرّر ما لا يقل عن عشرين آلية، وسقط سبعة قتلى ونحو ٦٠ جريحًا. ووسط تبادل القصف هذا، سقطت قذيفتا هاون أطلقهما حزب الله على المركز ٩-١٠ التابع لاحتياطي القوّة المتنقّل، فدمّرتا أكواخًا عدة وخزّان المياه. ومن ناحية أخرى، أسقط أحد صواريخه المضادة للطائرات مروحية «سي-إتش-٥٣» وهي تخلي جرحى كثيرين صوب الجليل، فتحطّمت على تلّة مروحين، جنوب غربي ياطر، مما أدى إلى مقتل خمسة من ركابها. وبات الجيش والرأي العام في إسرائيل، في الوقت الحاضر، تحت تأثير صدمة الصور التي يبثها تلفزيون المنار التابع لحزب الله الذي استمر في الإرسال رغم تدمير كل منشآته المعروفة!

إذا أُنكر على الإسرائيليين تفوقهم على الأرض، فإن الحال ليست طبعًا على هذا المنوال جوًّا حيث ضاعفت الطائرات التي تحمل نجمة داود طلعاتها. وصبّت جام غضبها من جديد على الخيام التي لم يعد فيها الكثير لتدميره، وعلى تبنين حيث استهدفت الصواريخ الكثير من فيلّاتها. فما الذي يأخذونه على أصحابها؟ هل الانتماء إلى حزب الله ودعمه، أم نصب البطاريات غير المتوقّع ليُطلق منها بضعة صواريخ؟ وتلقّى المركز ٦-٥ التابع لفرقة الصيانة البولندية والموجود في المحلّة ثلاث قذائف. وأصيب المركز ٦-٤٠، وهو أبعد إلى الغرب، مرتين، وجُرح أحد أفراده، وفي صيدا، دُمرت المنشآت الكهربائية، مما حرم جنوب لبنان التيار. وبدأ بعد ذلك إلقاء القنابل العنقودية الذي أخذ يتضاعف في مجمل منطقة العمليات. ويجب التشديد على أن ليس من مبرّر

تكتيكي لاستخدام هذه الأسلحة. فهي لا تصوّب على أهداف عسكرية بل على أطراف القرى وخصوصًا على الحقول المزروعة، ولا سيما حقول الزيتون التي يبدأ قطافها عادة في أيلول/سبتمبر. ولن يعود في إمكان مالكيها دخولها تحت طائلة خسارة أرواحهم. بدا واضحًا أن إسرائيل تفتّش عن معاقبة لبنان بمجمله لتركه المجال حرًّا لحزب الله. وعُمّمت هذه الضراوة المقصودة: فلم تعد الطائرات وحدها هي التي تنشر أدوات الموت هذه، بل أدت المدفعية دورها في ذلك أيضًا.

نقلنا فتاة صغيرة جريحة من رميش إلى مستشفانا الميداني في الناقورة، حيث أخضعت لجراحة وتم إيواؤها في انتظار أن نتمكن من نقلها إلى صور. وفي المقابل، أصاب جريح من الكتيبة الغانية الأطباء بالقلق، إذ خشوا عدم تمكنهم من معالجته كما يجب بالوسائل الوحيدة التي في حوزتهم. وبات من الطارئ نقله إلى منشأة طبية أكثر تجهيزًا. لدينا الآن مروحية «أم آي ٨» في تصرّفنا في قبرص. وحصلنا من الإسرائيليين على الضوء الأخضر للشروع في الإجلاء. ودشّنا بذلك وصلة الناقورة ـ لارنكا التي ستصبح شبه يومية.

زارتنا أيضًا في هذا اليوم نفسه «سيروكو» التي جاء قائدها بهيئة أركانه لدراسة العمليات المستقبلية: إنزال العناصر والمعدات والتموين. بقيت السفينة على مسافة حذرة من الشاطئ، واستخدم الضباط المروحيات لبلوغ المعسكر. ثمة احتمال أن يطبّق وقف الأعمال العدائية ابتداءً من الإثنين ١٤ آب/أغسطس، وتريد فرنسا أن تكون أول من ينزل التعزيزات. وقد أعلنت نيتها مضاعفة عدد جنودها في اليونيفيل، وهي تفكّر بالتالي في إنزال ٢٠٠ رجل سينضمون إلى الرجال الـ١٩٧ الموجودين الآن في مراكزهم. ويتعلّق الأمر بجنود مشاة وهندسة.

وها أنا في النهاية مغمور في يوم ميلادي الستين: زيارة من الفرنسيين، رحلة أولى بين قبرص ولبنان، وبالأمس قرار جديد يتعلّق بالقوة. وأمكننا العثور على قعر زجاجة من الويسكي للاحتفال بالحدث.

١٣ آب/أغسطس - ما من أحد يتوقّف

وها هي إسرائيل توافق الآن، بعد لبنان، على القرار ١٧٠١. كذلك وافق الطرفان على اتفاق وقف الأعمال العدائية الذي اقترحه الأمين العام. وسيدخل حيّز التنفيذ في ١٤ آب/أغسطس، الثامنة بالتوقيت المحلّي. وأوضحت تل أبيب أنها، على الرغم من أن جيشها سيوقف أعماله الهجومية، ستحتفظ بحقها في الدفاع عن نفسها في حال العدوان. واقترحت، انطلاقًا من حرصها الدائم على استعادة جندييها المخطوفين، الشروع من دون تأخير في عملية تبادل للأسرى. ولكن من غير الوارد لديها، في هذه المرحلة، الحديث عن أي جلاء عن الأراضي اللبنانية المحتلّة. وطالبت مع ذلك بنشر الجيش اللبناني في أسرع وقت، وبتفكيك التنظيم العسكري لحزب الله. وسيكون التطرّق في الغد إلى هذا الموضوع مؤكدًا، إذ إن الجنرال الإسرائيلي عودي ديكل أبلغني أنه يرغب في رؤيتي، الثانية عشرة، ظهرًا عند نقطة عبور «روش هانيكرا».

وفي الانتظار، ألقى المتحاربون بآخر قواهم في المعركة. انهمرت القنابل والقذائف والصواريخ بكميات، كما في أسوأ أوقات النزاع. واستمرت إسرائيل، منتهكة مواثيق جنيف جميعًا، في إلقاء القنابل العنقودية، مضاعفة بذلك التلوث القاتل لحقول جنوب لبنان وقراه. وأطلق حزب الله، من جهته، ما لا يقل عن ١٧٥ صاروخًا على الجليل. وعلى الأرض، لم يتبدّل قط انتشار هذا الفريق وذاك، باستثناء خط الطيري ـ بيت ياحون ـ كونين الذي تجاوزته الوحدات الإسرائيلية الآن، مقتربة من تبنين من دون أن تدخلها، مع ذلك.

١٤ آب/أغسطس - وقف أعمال العداء

تشبه الليلة النهائية للنزاع النهار الذي انقضى للتو. احتمى جميع من على الأرض، فيما لم تخفّ وتيرة إطلاق النيران من هذا الطرف ومن ذاك. وبقي الأمر على هذا المنوال حتى الدقائق الأخيرة التي سبقت الثامنة صباحًا، وهي ساعة الاستحقاق التي حدّدتها الأمم المتحدة لسريان وقف الأعمال العدائية. وهذا «الوقف للأعمال العدائية» ليس وقفًا لإطلاق النار الذي هو كناية عن اتفاق رسميّ أكثر مقرونًا بضمانات. وقد وافق الأطراف المعنيون، في الوقت الراهن على وقف كل عمل هجومي وكل تعزيز فقط. وهم يكتفون بالبقاء في أماكنهم التي كانوا فيها في الساعة المتفق عليها. بيد أن لديهم متسعًا من الوقت للانسحاب، وللإخلاء الجزئي للمناطق المحتلة، إي إلى جنوب الخط الأزرق بالنسبة إلى إسرائيل، أو إلى شمال الليطاني بالنسبة إلى حزب الله.

في الساعة المتفق عليها، والتي طال انتظارها، انصبت محاضر مختلف المراكز على الناقورة. أفادت كلّها أن الهدوء يسود منطقة العلميات كلها. وتوقف فجأة الضجيج الذي واكب أيام النزاع الـ٣٤ هذه وأَلِفْناه. فبدل قرقعات التقّدم، وأزيز الصواريخ، ودويّ انفجارات القنابل، وهدير قذائف الدبابات، ورشقات الرشاشات، وصفير الطائرات النفاثة، حلّ صمت ما لبث أن قطعته سريعًا العودة إلى النشاطات اليومية. وحدها سحب الدخان، هنا وهناك، لا تزال شاهدًا على قساوة هذه المواجهات الأخيرة. وهناك، من ثمّ، تلك الرائحة الثقيلة والدائمة التي تتميّز بها مناطق القتال: مزيج لا يمكن وصفه من فوح حريق المطاط والوقود، وروائح المتفجرات التي لم تتبدّد كما يجب، والفضلات، بل الأجساد المتحلّلة.

جهّزنا خلال الليل الأوامر الصادرة إلى مختلف وحدات القوة وباشرنا دورياتنا منذ الثامنة؛ لنظهر، في الدرجة الأولى، أن الأمم المتحدة تستعيد

المبادرة في منطقة عملياتها، وتتفادى بالمقابل وقوع أي حادث بين الطرفين قد يجرّ إلى تصعيد جديد. صادفنا أيضًا الكثير من عناصر حزب الله في المناطق التي تقع مباشرة جنوب الليطاني، لكنهم شرعوا في الانسحاب إلى الشمال. كذلك صادفنا وحدات إسرائيلية في باقي الأراضي الواقعة بين الليطاني والخط الأزرق، ذلك أن الجيش الإسرائيلي يحتل ثلثيها. وأفدنا أيضًا من هذه الاستطلاعات لنقوّم وضع السكان المحليين، ونعرف كيف يمكن أن نساعدهم. وعاد مراقبو الهدنة خلال النهار ليحتلّوا قاعدتي دورياتهم اللتين لا تزالان قائمتين في مروحين ومركبا. وحاول عناصر المركزين ترتيبهما بعض الشيء مع الاحتفاظ بيقظتهم. جمعوا حصيلة الأضرار، ورتّبوا الأكثر ضرورة، وحاولوا إجراء ما أمكن من التصليحات ليتمكنوا من متابعة مهمتهم. وغادر أول طوابير التموين الناقورة منذ الصباح، مانحًا الأولوية لتوزيع المياه والمحروقات. أما المؤن فستتبع لاحقًا. وعمل العقيد الغاني المسؤول عن اللوجستية جاهدًا لتوزيع ما تبقّى لنا بطريقة عادلة ومناسبة. وها هو ينظّم قوافل إلى بيروت لتعود بما يكفينا ذاتيًا، ١٥ يومًا على الأقل. فالموقف لا يزال متوتّرًا جدًا ومتقلّبًا وهشًا، ومن الأفضل لنا بدلًا من تهنئة النفس بهذه العودة إلى الهدوء أن نهيئ أنفسنا للتمكن من مواجهة أزمة جديدة. وعلينا قطعًا ألاّ نسرّح أنفسنا بل أن نبقى مدركين أن أزمنة صعبة أخرى قد تنتظرنا.

على أي حال، فإن المقر العام في نيويورك لا يترك لنا الوقت للانصراف إلى بعض البهجة. فالشروع في الانتداب الجديد لا يمكن أن ينتظر. وكثرت الاتصالات بين هيئة أركان اليونيفيل ومحاورينا في مانهاتن للإحاطة بالضبط بما هو مطلوب منّا وتحديد الطريقة للتوصل إلى تحقيقه. وها قد أُعطيت الإذن بزيادة العديد من الألفين الموجودين الآن إلى الحدّ الأقصى المسموح به وهو ١٥ ألفًا. ولم أُعطَ سوى مهلة ٤٨ ساعة لتقديم نوع القوات التي أحتاج إليها، لأن على فريق عملية إدارة السلام أن يتوجّه بعد ذلك إلى البلدان المتطوّعة

لتقديم الوحدات المرغوب فيها، والتي عليها بعد ذلك إنشاؤها، ثم إرسالها. وتتطلب هذه العملية كلها مهلًا طويلة، ومن الضروري طلب ذلك في أسرع وقت من المُسهمين المحتملين. وباتت «لائحة تسوّقي» في مرحلة متقدّمة، ولن يطول بي الأمر حتى أرسلها.

وينبغي هنا أيضًا الإفادة من الديناميكيّة التي خلقها القرار الجديد للمساعدة في الانتشار السريع للجيش اللبناني. إلا أن ذلك يتطلّب تنسيقًا وثيقًا مع انسحاب الوحدات الإسرائيلية. وتوجّب عليّ بالتالي وضع آلية يُعاد بموجبها بسط السيادة اللبنانية بالتدريج مع كل انسحاب للجيش الإسرائيلي. وسيتم هذا بالتأكيد من دون أي اتصال مباشر بين الجانبين اللبناني والإسرائيلي.

غير أن وقف الأعمال العدائية لا يعني مع ذلك وقف النشاطات. بل على العكس، يتوجب الآن القيام، دفعة واحدة، باستعادة السيطرة على منطقة العمليات وإعادة تسوية المنشآت والوحدات والتحضير بالأخص لمستقبل قريب لا بل شبه فوري. ومن المحتم، في الوقت نفسه، الاستمرار في الاستماع إلى السكان الذين لا يزالون في المنطقة وتسهيل مساندتهم من المؤسسات غير الحكومية المستعدة لمساعدتهم.

أما التقويمات المادية المفصّلة والدروس التي يجب استخلاصها من أيام المواجهة الأربعة والثلاثين فستأتي لاحقًا. سوى أن بعض «الخبراء» من ذوي الاطلاع الخاص، سيتولّون ذلك من دون تأخير ومن دون حياء.



٢٠ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – مرفأ صور – القلق الذي أثاره التدقيق في جوازات السفر قبل الصعود إلى السفينة.



٢٠ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – مرفأ صور – إخلاء الرعايا الأجانب وعائلات الأمم المتحدة.

الفصل الخامس

الحصيلة الأولى

منذ انتهاء المواجهات والأرقام والتعليقات تتكاثر. ويجب تناولها في حذر، لأنها صادرة ولا تزال الأماكن ساخنة؛ لكنها تساعدنا مع ذلك في تقويماتنا وفي الدروس الأولى التي علينا استخلاصها. وفي هذا الكثير من الاعتبارات التي تفيدني في إمساكي بانتدابي الجديد، وبالشروط الجديدة لتطبيقه.

«النصر الإلهي» لحزب الله

جهر حزب اللّه بنجاحه من دون انتظار. ومن المؤكّد أنه أوقع خسائر ملموسة بالإسرائيليين، ومنع تل أبيب من بلوغ معظم أهدافها، إلا أنه أخذ في النهاية البلد رهينة وجعله يتكبّد أضرارًا فادحة. وهكذا انصرف همّه الأول إلى العمل على التقليل من هذه الظلال المخيّمة على لوحة نجاحه.

يصعب كثيرًا تقدير الخسائر التي مُني بها، وهو لن يعترف بها أبدًا. وقد تكون بلغت من ٤٠٠ قتيل إلى ٥٠٠ من أصل المقاتلين الـ١٢ ألفًا الذين يُفترض أنه حشدهم، ولم ينخرطوا جميعهم في الجنوب. وربما بلغ عدد الجرحى الألفين، لكن هنا أيضًا يُواجه المرء بالصمت المطبق، كما جرى مع المقاتلين الثلاثة عشر الذين أسرهم الإسرائيليون. ومن الضروري أيضًا أن يُضاف إلى هذا العدد القتلى الثلاثون المنتمون إلى تنظيمات أخرى أو أحزاب سياسية ممن انضمّوا إلى حزب اللّه في الميدان. وهم من عناصر أمل والحزب الشيوعي اللبناني والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة.

أما المدنيون اللبنانيون فهم الذين دفعوا الضريبة الأكبر لهذا النزاع: ١٢٠٠ قتيل ثلثهم من الأولاد ما دون الثانية عشرة، وأربعة آلاف جريح. أما العسكريون فنعوا من جهتهم أربعين شهيدًا وتحدثوا عن جرح ثمانين. ومن الناحية العملية، عانت كل مناطق البلاد. غير أن المناطق التي أصيبت أكثر من غيرها، هي الضاحية الجنوبية لبيروت، وبالتأكيد جنوب لبنان، الذي لم يعد يؤوي سوى مئة ألف شخص نسبة إلى عدد سكانه الأصلي الذي يُقدّر بأكثر من مليون. ومن رحلوا يشكّلون غالبية مليون آخر من الأشخاص، وهو مجمل عدد اللاجئين الذين يحتويهم لبنان. أي ربع المجموع العام للسكان المُقدّر بأربعة ملايين! وسيعمل معظمهم، منذ إعلان وقف الأعمال العدائية، على العودة إلى منازلهم ليجدوها في معظم الأحيان ركامًا تحيط به حقول مزروعة بالقنابل العنقودية القاتلة.

انتشرت المنظمات غير الحكومية الموجودة سريعًا لتوفير المساعدة العاجلة أو المواد الأساسية. غير أنها ستُفاجأ بأن الحاجات الحقيقية أدنى كثيرًا من توقعاتها. حتى أن بعضها سيغادر سريعًا لانتفاء الحاجة إليه. فالشعب اللبناني معروف في الحقيقة بمتانة روابطه العائلية والمجتمعية. فقد وجد معظم الذين اضطروا إلى مغادرة أماكن إقامتهم مأوى عند أقارب استضافوهم لما يلزم من الوقت. كذلك استؤنفت سريعًا حركة المبادلات التجارية الداخلية. وسرعان ما توافرت الفاكهة والخضر بكمّيات كافية، رغم شبكات الطرق المتضررة جدًّا. فالحيوية اللبنانية، وهي أبعد من كونها أسطورة، باتت هنا لتسهيل العودة إلى حياة مقبولة.

مضت على لبنان عشرة أعوام كان فيها في عزّ مرحلة إعادة الإعمار. وفيما لا يزال يعمل على تضميد جراح ١٥ عامًا من الحرب الأهلية والعدوان الخارجي، دُمّر ١٢٠ جسرًا وتعطّلت الطرق، في حين أن ١٣٧ قطاعًا رئيسًا

تتطلب تصليحات كبرى. ولم تعد محطة توليد الطاقة في الجيّة، على بعد نحو ثلاثين كيلومترًا جنوب العاصمة، توفّر التيّار منذ ١٤ تموز/يوليو. ودمّر القصف الجوّي الذي تعرّضت له خزانات وقودها، فاشتعلت ولا يزال الدخان الأسود والكثيف يتصاعد منها، منذ أكثر من عشرين يومًا، وتسرّب منها إلى البحر ١٥ ألف طن من الفيول، لوّثت أكثر من ١٤٠ كيلومترًا من الشاطئ. واستحالت مواجهة هذه الكارثة البيئية لأن الحصار الإسرائيلي يمنع أي تدخّل بحري. وفي سهل البقاع دُمّرت المنشآت الحديثة جدًّا لشركة الحليب Liban Lait المنتوج الأول في هذا المجال. ويا له من هدف عسكري يثير العجب!

لم يُبلَ السكّان بالدمار فحسب، بل تربّص بهم في الجنوب عدوّ مستتر من الصعب جدًّا ومن الخطر التخلّص منه. ويتعلّق الأمر بالقنابل العنقودية التي ألقى بها الجيش الإسرائيلي في الأيام الأخيرة. وتلقّى ٩٥١ موقعًا مُستهدفًا ما يزيد عدده الإجمالي على ١٨٠٠ قذيفة عنقودية، أي ما يقارب مليون عبوة ناسفة منتشرة على ٣٨ مليون متر مربع يجب تنظيفها قبل الولوج إليها. ويُضاف إلى المليون قنبلة عنقودية هذه آلاف الألغام من مخلّفات النزاعات السابقة لم تُنزع كلّها، بسبب النقص في المعلومات اللازمة ممن زرعوها.

وفي مقاربة أولى قُدّرت الخسائر التي أُنزلت بالاقتصاد اللبناني بنحو ٤,١ مليارات يورو. وقد وقع النزاع في عزّ موسم السياحة الذي يجلب عادة مليوني زائر من الأجانب والعائلات المهاجرة، ويشكّل مردوده ١٢ في المئة من الناتج المحلّي الصافي. وسبق في السنة الماضية لمرور الطائرات الإسرائيلية على علو منخفض جدًّا فوق بيروت، وخرقها جدار الصوت أن تسبّب بالرحيل المستعجل للمصطافين الوافدين من الدول العربية. وليست الصناعة السياحية وحدها التي تضرّرت، إذ أثّر القتال في ٤٠ ألف عائلة تعمل في الزراعة. واضطر الكثير منها إلى مغادرة أراضيه، وضاعت مواسم الزيتون والتبغ، إضافة إلى كل الفاكهة

والخضر الأخرى. وأخيرًا، لم يعد في وسع صيادي السمك مغادرة المرافئ لأن الحصار الإسرائيلي لا يزال قائمًا. وبدت عودة العجلة الاقتصادية إلى الدوران صعبة، بسبب النقص الحاد في المحروقات والأدوية. واضطر لبنان إلى طلب المساعدة الدولية، وهو ما لن يمكن حدوثه إلا عندما تقرر إسرائيل إعادة الحركة الجوية والبحرية. وهذه ليست الحال في الوقت الحاضر، وما من أحد يجرؤ على الاعتراض على إملائها.

وإضافة إلى قتلاه وجرحاه، استهلك حزب الله أو خسر قسمًا كبيرًا من ترسانته من المقذوفات والصواريخ. وقد أطلق ما معدّله ١٢٨ في اليوم، أصاب ٢٥ في المئة منها مناطق آهلة بالسكان. وتم تدمير ١٢٦ قاذفًا ذا مدى متوسّط وبعيد، وأسقط الطيران الإسرائيلي ثلاثًا من طائراته التي تطير من دون طيّار مزوّدة ربّما بشحنات ناسفة. غير أنه لا يزال يمتلك القدرة على إطلاق آلاف عدّة من المقذوفات، وأن التموين من سورية لا يزال ممكنًا وتسهّله دمشق. صحيح أن إمكانات حزب الله ضعفت، إلا أنه خرج من المحنة كبيرًا، وفي جزء من ذلك بفضل استخدامه المحترف جدًّا لوسائل إعلامه وبخاصة تلفزيونه «المنار». وزادت هيبته وسَلَكَ مسلك المنتصر في مواجهة العدو الدائم، إسرائيل. ويبدو، في هذه الأزمنة الصعبة، أنه الوحيد الذي يمكنه إعادة طلاء شعار لبنان وأرزته بالذهب. وأذعنت الحكومة الضعيفة جدًّا، خصوصًا وأن ما أظهرته من استكانة خلال النزاع لا يسمح لها بمعاكسة أهداف السياسة الداخلية لحزب الله. ويريد الأخير أن يستغلّ إلى أقصى حدّ ما يطرحه بصفته انتصارًا. وهذا أمرٌ لا يراه الجميع على هذا الشكل بخاصة أولئك الذين خسروا الكثير، أهلًا وأرزاقًا. إلا أن مفسدي البهجة يفضّلون عدم التفوّه بأي شيء حتى لا يغامروا بالظهور مظهر فاقدي الحس الوطني.

واحتفظ التنظيم، طبعًا، بجناحه المسلّح وبمجمل قدراته العسكرية. فمن يريد تجريد المُدافع عن البلاد من السلاح؟ وعلى رغم أن ما لحق به من أضرار جعل البعض يشكّون في صواب قضيته، فإنه بقي قويًّا وسيطر بلا منازع على اللحظة السياسية. وهو يُدرك خطر أن يضطر إلى مواجهة إعادة جزء من السكان طرح مبادراته الماضية على بساط البحث. لذا سيفعل كل شيء، فورًا، ليصبح دائم الحضور، إن على جبهة الصحافة والتصريحات، وإن على جبهة العمل الإنساني. وكان أول من طرح المساعدة المالية شبه الفورية لمن أصيبوا بأضرار، وفي جزء كبير من ذلك بفضل المال الإيراني الذي اتخذ شكل دولارات هي مع ذلك عملة «الشيطان الأكبر"! وقد أخذ عليه ذلك المدافعون الأنقياء والمتشددون عن القضية. غير أن ذلك لا يهم كثيرًا لأنه سمح له أيضًا بالتقدّم على الحكومة. وفي النهاية ما من خلاص من دون حزب الله للتخفيف من آثار نزاع غدا من الواضح أنه الذي تسبب به. وهو في صدد دعم المواقع المسيطرة التي حصل عليها بالفعل، وأثبت كل يوم أنه الأكثر حضورًا في اللعبة السياسية اللبنانية.

وليس في النهاية حدث ١٢ تموز/يوليو، المبادرة السيئة الحظ للبنان خصوصًا، إلا نتيجةً منطقية لمماطلة الدولة. فمنذ أيار/مايو ٢٠٠٠، تاريخ الانسحاب الإسرائيلي من جنوب لبنان، لم تسع الحكومة اللبنانية قط إلى إعادة بسط سيادتها الكاملة على أراضيها في جنوب الليطاني، رغم التشجيع وعروض الدعم والتذكير بضرورة احترام قرارات الأمم المتحدة التي تُجدَّد كل ستة أشهر. فقد تخلّت عن جزء من البلاد لسيطرة حزب الله الذي أصبح بذلك حارسًا لا مفرّ منه في مواجهة العدو الإسرائيلي. إنه الرديف الذي بات لا غنى عنه والذي بسط أيضًا رويدًا رويدًا سلطانه على باقي لبنان، انطلاقًا من قطبي سيطرته الأخيرين: البقاع والضاحية الجنوبية لبيروت. فكيف السبيل إلى إجبار هذه الميليشيا على إلقاء السلاح تطبيقًا لاتفاق الطائف الذي وافق عليه مجمل

النواب اللبنانيين في ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٨٩ لإنهاء الحرب الأهلية؟ خصوصًا أن هذا السلاح هو الذي مكنها من تشكيل المقاومة التي ستدفع بالعدو في النهاية إلى الانسحاب عام ٢٠٠٠. وهو انسحاب يرى حزب الله أنه لم يكتمل. فلا تزال مزارع شبعا مُحتَلّة، وهي كافية لتبرير استمراره في تعهّد جيش حقيقي، إلى حد أنه أصبح من القوة بمكان، بحيث أن الحكومة تخاطر بنشوب حرب أهلية جديدة إذا حاولت تجريده من السلاح. فالطائفة الشيعية تسانده في الواقع مساندة تامة، وهي الأكبر عددًا في البلاد. أضف إلى ذلك أنه يستفيد من دعم من إيران وسورية الكبير.

وهكذا، ومنذ ٢٠٠٠، نظّم حزب الله نفسه وقوّاها بطريقة منهجية للنضال ضد العدو الوحيد: إسرائيل. وزاد كثيراً مخزونه من الصواريخ والمقذوفات التي وصلت عبر الحدود مع سورية بتواطؤ واضح من المؤسسات اللبنانية. وبنى بين الليطاني والخط الأزرق خطّيه الدفاعيين في منطقة عمليات اليونيفيل التي أمكنها تقديم الإفادة عن ذلك، ولكن لم يمكنها الاعتراض. ولاقى كل نداء من القوة الدولية لمحاوريها اللبنانيين أذنًا مصغية، في تهذيب، وأحيانًا ابتسامة، ولكن من دون أن يتغيّر شيء. ولم يجد المجتمع الدولي أو أنه لم يشأ أن يوفّر لنفسه من الوسائل ما يضع حدًّا لتوسّع هذه الدولة داخل الدولة. أما الدولة اللبنانية فلم تكن قادرة على تجاهل هذه التحوّلات؛ بل على العكس، فهي إذا لم تشجّعها بطريقة منهجية، فعلى الأقل تتحمّلها لأنها تخدم سياستها حيال جارتها الجنوبية. وهي بالتالي تعرفها من دون أن تتمكن مع ذلك من التحكّم بها. ومن هنا المفاجأة التي عبّرت عنها لدى إعلان عملية حزب الله. فهل في مقدورها أن تؤدي بعد ذلك دور الضحية؟

وهكذا، كان هذا النزاع المرة الأولى تُصَدّ إسرائيل خارج حدودها. صحيح أنها موجودة بين الليطاني والخط الأزرق، لكن القرار الجديد يجبرها على

الانسحاب سريعًا. وبرهنت أسلحتها المتطورة من طيران، ومدرّعات ومدفعية، أنها غير كافية في مواجهة حرب عصابات من نوع جديد لم يسبُق لها قط أن واجهت مثلها. ولا يتعلّق الأمر بتلك التي تعرفها في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بل بمواجهات في القرى كما في الأقفار. فرق صغيرة سريعة الحركة، متسلّحة أساسًا بأسلحة مضادة للدبابات حديثة وخفيفة، تتبنى تكتيك القتال في أسراب. فتقيم المكامن التي تركّز منها نيرانها، ثم تختفي في الطبيعة لتعاود الظهور في مكان آخر. وهي تمتلك أفضلية معرفتها الجيّدة للمنطقة، خصوصًا أن الكثيرين يتحدّرون منها ويحظون بالدعم، الأكثر عفوية ممن تبقى من السكان. ويجب أن تُضاف إلى ذلك عمليات المساندة لتي تحدث عمومًا بقذائف الهاون، ومن دون شك بإطلاق الصواريخ والمقذوفات التي تسقط في الوقت نفسه على الجليل. لتتمكّن، بهذا الشكل من أشكال القتال، ميليشيا أقل عددًا وعدّة بكثير عدا الصواريخ، من كبح الجيش الذي يشتهر بأنه الأقوى في الشرق الأوسط. بل هي، فضلًا عن ذلك، أجبرتهأن يقبل وقف الأعمال العدائية، قبل أن يتمكن من بلوغ أهدافه. وأدى هذا النجاح، ولو أنه نسبي، أدى بجناح حزب الله العسكري إلى دعم موقف الحزب في قلب الحياة السياسية اللبنانية، دعمًا عظيمًا. فكيف سيتمكن المسؤولون في السلطة من الانسجام مع الأمر؟ ناهيك بالمجتمع الدولي الذي عرف طرائق مداراته بقرار لا يُلزمه الكثير. فهو يبقى في النهاية حرًّا في تحرّكاته خارج منطقة عملياتنا، رغم دعوة السلطات اللبنانية إلى تجريده من السلاح. ولكن كيف لها أن تفعل ذلك؟

خيبات أمل وفوضى

عانى الجيش الإسرائيلي خسائر جسيمة قياسًا على هذا البلد الصغير بسكانه الـ ٠٠٠ ١٥٠ ٧، إذ بلغت ١١٨ قتيلًا و٢٥٤ جريحًا، فيما سقط من المدنيين

٤٨ قتيلًا ونحو ١ ٥٠٠ جريح، من دون أن ننسى الجنديين اللذين يحتجزهما حزب الله. وقد تركّز التدمير في شمال إسرائيل، في الجليل، وخصوصًا ما بين الخط الأزرق والخط الموازي الذي يمرّ بحيفا. وغادر ٥٠٠ ألف شخص هذه المنطقة إلى مناطق أبعد جنوبًا طلبًا للمأوى. وتلقت البلاد أكثر من أربعة آلاف صاروخ ومقذوف سقط ٩٠٠ منها في المناطق الحضرية. وقد أصيبت الأهداف التي صوّب إليها حزب الله إصابات غير دقيقة نسبيًا، لكنها دفعت مع ذلك ضريبتها بالأرواح.

ودفع الجيش الإسرائيلي لشن مجمل حملته بثلاثين ألف جندي، نصفهم على الأقل من الاحتياطيين. وعالج تسعة آلاف هدف بثمن خسائر طفيفة في العتاد في ما عدا الدبابات. وفقدت الميركافا، درّة الصناعات المدرعة الإسرائيلية، صدقيتها، إذ أصابت الصواريخ المضادة للدبابات خمسين منها أو أقعدتها الألغام. وخُرق ٢١ منها، بيد أن تصفيحها أثبت في النهاية أنه فاعل. ولم يُحصِ في الواقع إلا سقوط ٢٣ قتيلًا وجريحًا من أصل الرجال المئتين الذين يشكّلون طواقمها، ودُمرت أربع طائرات مروحيات إضافة إلى طائرة أف-١٦ نتيجة حادث. وأخيرًا أصيبت فرقاطة بأضرار بالغة جدًا ولكن أمكنها بلوغ حيفا. وفي المجموع تكلّفت إسرائيل في حرب لبنان الثانية التي قرّرت خوضها ٤,٤ مليارات يورو، أي ما يعادل ١٠ في المئة من الموازنة السنوية للدولة أو نصف موازنة الدفاع. واستُهلك إلى حد بعيد المخزون من كل الأنواع، لكن الولايات المتحدة لم تقتصد في دعمها، وبخاصة بالكيروسين والصواريخ المضادة للتحصينات.

ورغم أكثر من شهر من الصراع، لم تبلغ إسرائيل معظم الأهداف التي حدّدتها لنفسها. فهي لم تستعد الرهينتين، رغم أن الأمر بدا منذ البداية بمثابة تحدّ حقيقي. ورغم أن من الواضح أن حزب الله هو الذي تسبّب بالنزاع، فإن

عنف الردّ الذي ابتلي به السكان المحليون، من دمار وإخلاءات وهجرة، لم يكف لإفقاد الحركة الشيعية دعم الشعب اللبناني، بل على العكس تطوّرت أعمال التضامن وتبلورت في شعور وطني قوي جدًا. ولم يهتزّ النظام في أي شيء، ولم يضطر إلى الخضوع لتغييرات جذرية. وهذا مرّة أخرى حساب خاطئ! صحيح أن الميليشيا مُنيت بخسائر محسوسة في الرجال والعتاد، لكنها غير كافية لطمأنة الاستراتيجيين الإسرائيليين. فهي لا تزال تهدد النصف الشمالي لبلادهم وفي وسعها أن تستعيد سريعًا ما خسرته من إمكانات. وهي الآن مُجبرة بالطبع على البقاء شمال الليطاني، ولكن ما هي عشرة كيلومترات إضافية بالنسبة إلى مدى ترسانتها وعددها؟ فهي لا تزال قادرة على بلوغ إسرائيل.

اللوحة قاتمة، ولكن لا يزال في الإمكان رفع نقطتين إيجابيتين منها. فقد برهن الحصار الجوي والبحري فاعليته طوال مدة النزاع كلها، وهو لا يزال مستمرًا ويبقى حجة ذات وزن في المفاوضات الجارية. وأخيرًا، في ما يكاد يشبه المفارقة، فإن هذا الاجتياح الإسرائيلي الجديد هو الذي حفّز على نشر القوات المسلحة اللبنانية في منطقة لم تشأ السيطرة عليها من قبل. وهذا هو المكسب الحقيقي الوحيد من أيام النزاع الـ٣٤ هذه، ناهيك طبعًا بالقرار الدولي الجديد الذي يؤمل منه إعادة تكوين يونيفيل أكثر فاعلية.

لم يتوجّب انتظار الثاني عشر من تموز/يوليو لإدراك أن العلاقة بين العسكر والمسؤولين المدنيين في إسرائيل سيئة. فالطبقة السياسية، الضعيفة وغير المستقرّة، تعجّ بالضباط المتقاعدين الذين يتبوّأون في الغالب أرفع المسؤوليات. ولكن صودف، هذا الصيف، أن رئيس الوزراء إيهود أولمرت مدني بحت شأنه في ذلك شأن وزير الدفاع عمير بيريتس. وهو ما لم يسهّل الحوار بين القادة العسكريين الذين يرتابون في السياسيين ويتمسكون بحرّيتهم

في العمل، وأعضاء الحكومة الذين يجدون صعوبة في تحديد أهدافهم الاستراتيجية وفرضها، ويجهدون في الوقت نفسه للسيطرة على نزعات الجيش إلى الانتقام. فالجيش الذي هو عرضة، من وقت إلى آخر، لعمليات الإزعاج على الخط الأزرق، والتي تُكلّف أحيانًا أرواحًا بشرية، سبق أن عاش منذ أقل من سنة تجربة الإخلاء المؤلمة لغزّة. ويمكن للانسحاب من الجزء المحتل من هضبة الجولان أن يشكّل المرحلة المقبلة. وعليه، فإن من الأفضل تدارك القدر وإظهار ما الذي يستطيع فعله. فهناك خطط تمّ التصديق عليها ويجب الآن وضعها موضع التنفيذ.

منذ بداية المواجهات، بل قبلها، أعلن رئيس الأركان الإسرائيلي الجنرال دان حالوتز بصوت عال ثقته التامة بالذراع الجويّة. وبالنسبة إليه: «ليس النصر مسألة احتلال أرض بل قضية إرادة. ومن شأن القوة الجوية أن تضعف في شكل محسوس إرادة الخصم. أما مسألة المعركة البرّية فعفا عليها الزمن». فالقائد اللامع لطائرة الفانتوم، والقائد السابق لسلاح الجو، مقتنع بأن استخدام الطيران يمكن أن يكفي للقضاء على الخصم الذي سيجد نفسه، بتدمير تسلّحه الأساس وبالقضاء على مراكز قيادته، وقد ضعف كثيرًا وأصيب جدًّا في معنوياته، وينتهي به الأمر إلى الاستسلام. ومن المؤكّد أن الطيّار ينظر دومًا إلى الأمور من فوق، لكن هذا يعني أنه ينسى سريعًا أن النصر لا يتحقّق في شكل شبه دائم إلا باحتلال الأرض. فمنذ سنوات كثيرة والطيارون الإسرائيليون يعدون أنهم الأفضل في قلب جيشهم وينظرون في الغالب إلى رفاقهم في أسلحة البرّ على أنهم أدنى منهم مستوى. ولا يبالون كثيرًا بما يُجرى «على مستوى زهر الأقحوان» ويظنون أنهم يمسكون بأفضل وسائل الردّ الناجع. وقد تتلمذوا على أهل الجدارة، إذ إن الأميركيين جهّزوهم ودربوهم، هم الذين اضطروا إلى انتظار أفغانستان للعودة إلى هذه المبادئ نفسها التي اعتقدوا أنهم يستطيعون بفضلها ممارسة سياستهم «no dead» (لا قتلى). إنها سياسة الحرب من بُعد

التي تناسب جيّدًا الدولة العبرية، حيث تُعد الحياة الإنسانية كنزها الأعظم. وقد نفّذ الطيران الإسرائيلي ما بين ١٢ ألف طلعة و١٥ ألفًا، أي نحو ٤٠٠ في اليوم الواحد، تعامل بموجبها مع أكثر من سبعة آلاف هدف. لكنه لم يتمكّن وحده من وقف عمليات إطلاق النار على إسرائيل، فاضطرت هيئة الأركان إلى اتخاذ القرار بشن حملة بريّة.

وبما أن هذا الاحتمال لم يؤخذ بما يكفي في الحسبان منذ بدء الأعمال العدائية، أقلّه على المستوى الذي يجب أن يحدث على أساسه، وجدت القيادة نفسها مضطرّة إلى التخطيط للعمليات الجديدة في مهلة زمنية قصيرة جدًّا. واضطرت عمليًّا إلى تغيير مركبتها في وسط المخاض، وهذا ما لا يشتهر أنه أفضل الأوضاع المؤاتية. ثم إنها اضطرّت إلى استدعاء الكثيرين من الاحتياط ممن يفتقرون في الغالب إلى التجهيز والتدريب بعدما عانت الموازنة المخصصة لتدريبهم، ما بين عامي ٢٠٠٠ و٢٠٠٨، خفضًا بقيمة ٨٠٠ مليون دولار. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الجنود تعوّدوا السيطرة على الجموع في المناطق الحضرية في الأراضي الفلسطينية المحتلّة أكثر من تعوُّدهم القتال الكلاسيكي في المدى المفتوح. وهي وحدات قليلة التحفيز، سيئة التدريب، بل نسيت ردود الفعل الأساسية للمقاتل. وتكفي مراقبتهم على الأرض لرؤية كم تنقصهم معرفة التصرّف، يُضاف إلى ذلك التخلّف في تنظيم القيادة والدعم اللوجستي الضعيف فوق الحدّ. وتميّز انتشار المشاة بأنه متقارب جدًّا، بحيث يمكن لقذيفة هاون أن تلحق بهم أضرارًا بالغة، فيما تميّزت الدبابات، على العكس، بالانعزال الشديد مما جعلها أهدافًا غير منيعة... وبسبب التعاون الرخو جدًّا بين الجو والأرض، لم يعرف القادة على الأرض في معظم الأحيان ما الذي يدور فوق رؤوسهم، ولم يستطيعوا الإفادة في الوقت المناسب من المساندة الجوية التي تقتضيها الضرورة. وهذا برهان مؤسف على «البالاغان» خصوصًا، أي على هذه النسخة الإسرائيلية للفوضى الناتجة عن التسويات مع

الأنظمة، وعن المبادرات غير المناسبة وغير المضبوطة، وعن الارتجالات في الوقت غير المناسب، وعن ردود الفعل السطحية أكثر مما هي مشروعة، وأيضًا عن الاستهتار.

قال رئيس أركان جيش البر الإسرائيلي الجنرال بنيامين غانتز عن هذه الحملة: «لقد خططنا لقطار سريع جدًّا، لكن ما نتج عنّا هو باص أبطأته الأنوار الحمر». فالوسائل توافرت بالنوعية والكمية الكافيتين بالتأكيد. غير أن استخدامها جاء غير متناسب في مواجهة عدوّ تم التقليل من قدره.

أما المدنيون، فكانت المرة الزولى التي يضطرون فيها في التاريخ الحديث لبلادهم إلى تحمّل هذه المدة الطويلة من القصف على أرضهم. فالحروب السابقة دارت أساسًا خارج حدودهم. واضطر الكثيرون منهم إلى الاحتماء أكثر من شهر في ملاجئهم. وكيف لهم أن يفعلوا شيئًا آخر عندما يصبح إجلاء مجمل السكان المُهدَّدين أمرًا مستحيلًا. ولا شكّ في أن مثل هذه المدة الطويلة من الخطر والتوتّر قد أثّرت في معنويات السكان، يضاف إليها مشكلة التموين بشكل خاص. وهم سيستصعبون أكثر فأكثر تحمّل الإكراهات التي تفرضها سلطاتهم. ومن المحتمل جدًّا أن يكون مُعطى النزاع هذا قد ألقى بثقله إلى حدّ بعيد على قرار الحكومة، وفحواه قبول القرار ١٧٠١. فقد أصبح من الملح وضع حد للمعاناة التي يتكبّدها عدد كبير من السكان.

اليونيفيل لا تزال موجودة!

كانت اليونيفيل الشاهد على هذا النزاع الجديد طول مدّته. وقد أحزنها فقدان أربعة من مراقبي الهدنة في قاعدة دوريات الخيام، وكذلك فقدان الموظف المدني المهاجر وزوجته. وأحصت ١٤ جريحًا في حال خطرة، بينهم

ضابط من هيئة مراقبة الهدنة. ونجحت في إجلاء ١١١٦ شخصًا بحرًا، وأكثر من أربعة آلاف برًّا، ساعدتهم على عبور الليطاني.

ولم تخوّلها القيود التي يفرضها عليها انتدابها أن تواجه الأطراف المعنيين في النزاع. وحتى لو شاءت ذلك، فإنها تفتقر إلى الوسائل ولا تمتلك إلا أسلحتها الخفيفة. وقد أنجزت من الأول إلى الآخر مهمة المراقبة المنوطة بها، وأبقت نيويورك على اطلاع دائم على الوضع على الأرض وإمكانات تطوّره. وكانت الشاهد المحايد الوحيد. وفي مرات عدّة، أتاحت روابطها بالأفرقاء إجراء مفاوضات وترتيبات حدّت من المخاطر التي تعرّض لها السكان اللبنانيون. ولكن ليس بالقدر الكثير ولسوء الحظ. وتعلّق القسم الأكبر من أفعالها بالمجال الإنساني. ولكن هنا أيضًا بطريقة محدودة جدًّا بسبب ضعف قدراتها. غير أنها نجحت أيضًا، إلى جانب الإجلاءات والإيواءات الموقتة في بعض من مراكزها، في فرض إنشاء «المناطق الآمنة» واحترامها. وقامت كذلك بالكثير من الإسعافات الأولية فضلًا عن ١١ جراحة كبرى أجريت في مستشفى الناقورة. وأسهمت آليات الأشغال العامة التابعة لها في رفع أنقاض المباني المنهارة بحثًا عن ساكنيها. وكانت، كلّما أمكنها، ترسل المؤن إلى القرى، وأهمها الماء ولا ننسى المحروقات.

وهي لا تزال موجودة، ويبدو مستقبلها مضمونًا مع تبنّي القرار الجديد. وستتمكن الأمم المتحدة من مواصلة مهمة السلام في جنوب لبنان. وها إن اليونيفيل تمر في مرحلة انتقالية تشكّل فيها الليونة والقدرة على التكيّف الضمان للتهيئة المُرْضية لأداة العمل الجديدة.



٢٥ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – الحوش – عناصر الهندسة الصينيون يرفعون ركام الفيلا التي أقام فيها موظف اليونيفيل المدني أوغوستين بيلونو وزوجته.



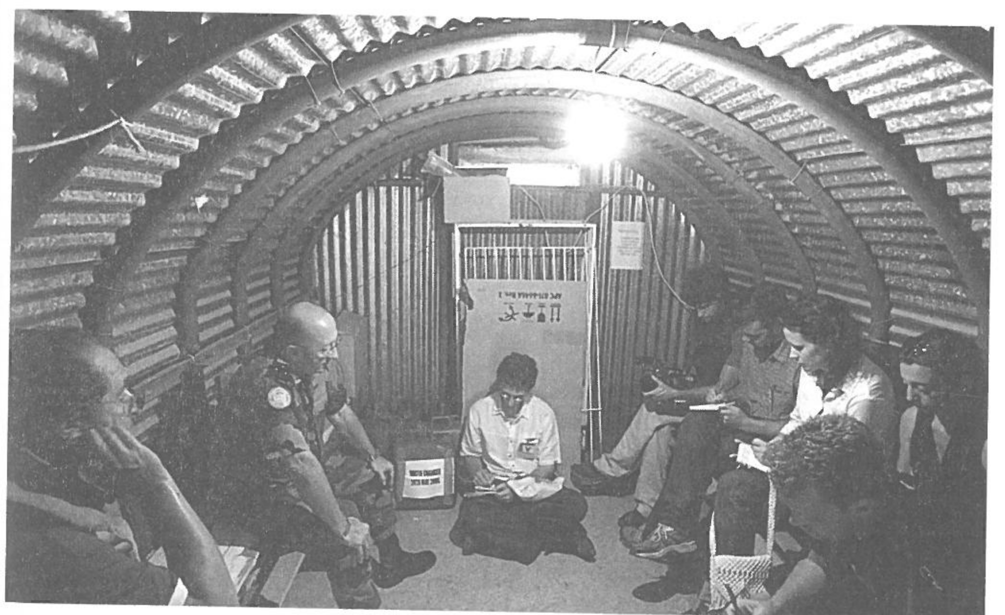
٢٧ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – الموقع ٩-٦٤ – التكريم الأخير لضحايا قاعدة دوريات الخيام الثلاثة، وقد اجتازت جثثهم الخط الأزرق واستقبلوا في إسرائيل.

القسم الثالث

اليونيفيل ولبنان معاً على الدوام؟



٢٦ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – الناقورة – استقبال جريحة لبنانية في المستشفى الميداني الهندي.



٢٧ تموز/يوليو ٢٠٠٦ – الناقورة – مؤتمر صحافي مرتجل في أحد الملاجئ.

الفصل السادس

من يونيفيل إلى أخرى

يشكّل الحادي عشر من آب/أغسطس ٢٠٠٦ محطّة مفصليّة في تاريخ اليونيفيل. فقد جاء تبنّي مجلس الأمن الدولي القرار الرقم ١٧٠١ بمثابة ترجمة لإرادة الدول الأعضاء في أن تعطي نفسها فعلًا الوسائل للحفاظ على السلام في لبنان، من دون التخلّي عن القرار الرقم ٤٢٥ الذي أنشئت بموجبه المهمّة منذ ٢٨ عامًا،ولا تزال بعض بنوده صالحة حتى اليوم. وسيمكننا التحرّك من خلال دور جديد أكثر إلزامًا للأفرقاء، وهيكليّات جديدة أكثر تكيّفًا، ومناهج عمل أكثر واقعية. واقترح البعض، من أجل تسجيل جيّد لهذا التغيير، استبدال اسم اليونيفيل والبحث عن مسمّى جديد لها. وربّما أرادوا نسيان ماضٍ ليس فيه الكثير من الإطراء. ولكن ليس على القوة الدولية أن تخجل من تاريخها، فهي لم تستحق اللوم قط حيال المهمات المكلّفة بها والإمكانات المسموحة. فبدأ عندذاك الحديث عن «يونيفيل جديدة» أو عن «يونيفيل ٢». وهذا أفضل إذ لم يعد هناك إنكار للماضي الذي لم يكن كلّ شيء فيه سلبيًّا. وإن لمن الوقاحة، لا بل من الخطورة، طيّ صفحة ما يقارب العقود الثلاثة من الحضور في هذه المنطقة. وسرعان ما عادت اليونيفيل لتصبح اليونيفيل فحسب، وهذا أفضل. فهي لا تزال ذلك اللاعب الذي لا يمكن تجاوزه، ويعرفه أفرقاء النزاع جيّدًا. وقد بلغ من عدم القدرة على تجاوزه حدًّا اتخذ معه حجم البيئة الجغراسية الجديدة التي عليه العمل من داخلها.

يربطني عقدي بالأمم المتحدة حتى ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٧. وإذا رأت نيويورك، في الوقت نفسه، أن تغيير رئيس البعثة واعتماد الانتداب الجديد، ليسا ضروريين، بل على العكس، فضّلت أن أؤمّن العملية الانتقالية، فستبقى لي ستّة أشهر لبناء قوّة قادرة على الاضطلاع بمهماتها الجديدة وتسليمها لخليفتي. وهذا في الوقت نفسه قليل: مع ما تتطلبه المساعي الدبلوماسية والإدارية واللوجستية؛ وكثير: لأن متغيّرات الوضع التي ينبغي مواجهتها في المنطقة سريعة جدًّا ولا يمكن توقّعها. وهذا بمثابة التحدّي الأخير الذي يواجهني، وقد عقدت العزم على النجاح. تم، وبعد مداولات على مستوى أرفع كثيرًا منّي، تثبيتي في مهماتي. وتلقّيت هذا القرار بسعادة، تمامًا كما تلقّاه مجلس أركاني الذي وجد في الأمر اعترافًا عادلًا بالطريقة التي أدرنا فيها الأزمة على مستوانا.

الانتداب وقواعد الاشتباك

ليس للقرار الجديد الذي يحدّد انتدابنا أي علاقة بالقرار الذي أنشأنا، وهو القرار ٤٢٥ الذي حدّد في ثلاثة أسطر مهمّات مختلفة، أتت المهمتان الأخيرتان بينها بعبارات شديدة الغموض: «إحلال السلام والأمن الدوليين» و«مساعدة الحكومة اللبنانية على ضمان بسط سلطتها الفعلية على المنطقة». وتطرّق القرار ١٧٠١ في النهاية إلى الأهداف نفسها، ولكن بطريقة أكثر دقّة وتفصيلًا، بل هجوميّة. وأضاف إليها من ثم أهدافًا أخرى.

سعى القرار إلى إعطاء المسؤولية الكاملة للسلطات اللبنانية بإصراره على مبدأ المساعدة. فاليونيفيل ليست هنا للعمل وحدها بل لتقديم المساعدة إلى قوات البلاد المسلّحة، في المرحلة الأولى بتسهيل انتشارها بين الليطاني والخط الأزرق تزامنًا مع انسحاب الإسرائيليين. وتقدّم المساعدة في مرحلة

ثانية على تحويل المنطقة منطقة «خالية من أي عناصر مسلحين، ومن العدة والعتاد غير ذينك اللذين تنشرهما الحكومة اللبنانية واليونيفيل في المنطقة». وعلينا أن نستعدّ أيضًا لمساعدة الحكومة اللبنانية، بناء على طلبها[٢٩]، في «ضمان حدودها». واستمرّ في النهاية دورنا الإنساني، لأن علينا الإسهام في «ضمان وصول المساعدات الإنسانية إلى السكّان المدنيين والعودة الطوعية في مناخ من الأمن للأشخاص الذين تهجّروا». ولم أتحرك إلى جانب شركائي اللبنانيين، بل تحركت ويدي في أيديهم. فلا يزال ماثلًا في أذهاننا جميعًا عجز اليونيفيل عن مواجهة رفض بيروت الدائم إرسال جيشها للانتشار في الأرض التي تركها الجيش الإسرائيلي خالية عام ٢٠٠٠. وقد استولى عليها حزب الله من دون شريك مع العواقب التي بتنا نعرفها. وسنعمل سريعًا بطريقة تفضي إلى تشكيل ثنائي حقيقي، وإلى أن يبقى التعاون دائمًا في أكثر ما يمكن من المجالات: الإعلام، وتحضير المهمات ذات الطابع العسكري وتنفيذها، والشؤون المدنية. وسنفتح هيئة أركاننا للضباط اللبنانيين الذين سيصبحون قريبًا حاضرين في معظم مكاتبنا العملانية. وشيئًا فشيئًا، تساعدنا في ذلك الثقة. سيتمتّع رفاقنا اللبنانيون بالثقة بالنفس، ويضطلعون باطراد في تنفيذ بنود القرار رغم الإمكانات غير الكافية تمامًا. وستوضع إجراءات جديدة، تتكيّف مع الحاجات المحدّدة لكل من رفاقنا. وسرعان ما ستبتعد الحقبة التي عملنا فيها وحدنا. سوى أن هذا القرار يزوّدنا بشريكين، وأنا لا أنسى الطرف الإسرائيلي الذي برهنتُ له أيضًا الانفتاح نفسه. وإذا لم يتعلّق الأمر معه بالمساعدة، فإن البحث، من جانبي، دائم عن تعاون أكثر وثوقًا معه.

وللمهمة الجديدة وسائل جديدة، والتغييرات في هذا المجال ذات مغزى كبير جدًّا. فها إن نطاق عملياتنا يحتل الآن كل المنطقة الممتدة بين الليطاني

(٢٩) من إبراز المؤلّف.

والخط الأزرق، أي خمس مساحة لبنان. ففي السابق كانت منطقة صور كلّها، «جيب صور» خارجة عن مسؤوليتنا. ودمج التجمّع السكاني الأكبر في جنوب لبنان الواقع جنوب الليطاني في نطاق انتشارنا منطقيًا وحاسمًا. فهي في الوقت نفسه منطقة اقتصادية رئيسة، وتقاطع طرق يفتح الطريق إلى صيدا ومنها إلى بيروت. وهي أيضًا الميناء الوحيد القادر على استقبال سفن ذات حمولة متوسطة جزء الشاطئ الذي يشكّل حدودنا الغربية. وليست مقاطعتنا الجديدة، في النهاية، بالغة الحجم، إذ بات في إمكان عناصرنا، وعددهم في السابق ألفان، أن يبلغوا السقف المسموح به، وهو ١٥ ألف عسكري. وهذا وجود متعدد الجنسية اتُفق على أن يُزاد عليه الرجال الـ١٥ ألفًا الذين أعلن عنهم الجيش اللبناني. كذلك يُحتمل تفسير اختيار الأمم المتحدة العدد نفسه بحرص نيويورك على الموازنة مع العناصر اللبنانيين. ولم يتم قط بلوغ الحد الأقصى المسموح به، وسيراوح عدد اليونيفيل بين ١١ ألف عسكري و١٢ ألفًا يُضاف إليهم نحو ألف مدني، بينهم ٦٠٠ موظّف محلّي.

استقوينا بهؤلاء الجنود الجدد المسموح لنا بهم، وعُنيتُ بدراسة المهمات الموكلة إليّ، وأبلغت نيويورك من دون تأخير ما نحتاج إليه. طلبت أوّلًا، ونتيجة لخيبات الصيف، أن تُجهّز كل الوحدات بآليات مصفّحة تقيها ضربات ساحة المعركة. فنحن نقوم في آن، ليس بمهمات مراقبة فحسب، بل أيضًا بمساندة الجيش اللبناني وبالتدخل إذا اقتضت الضرورة. ويجب بالتالي أن نتمكّن من تغطية كل المساحة الموكلة إلينا، وتأمين وجود دائم وكافٍ فيها. وقدّرتُ حاجتنا بثماني كتائب مشاة مصفّحة لكل منها مساندتها الخاصة. كذلك يحتاج قسم كبير من المنشآت التي أصيبت بأضرار خلال النزاع إلى إعادة البناء. وعلينا أن نوفّر المساحات الضرورية لاستقبال الوافدين الجدد ونواجه في الوقت نفسه التهديد المستمر الذي تشكّله القنابل العنقودية والألغام. ولهذه الأسباب طلبت أن يتوافر لي ما يُقدّر بست سرايا هندسة متخصصة في الأشغال

وفي نزع الألغام. ويحتاج العناصر الجدد إلى ثلاث مستشفيات ميدان لا يمكن الاستغناء عنها لرجالنا، لكنها تُشرّع أيضًا أبوابها للسكان المدنيين. ويجدر أن تُضاف إلى ذلك كلّه وسائل قيادة تضم سريّتي إرسال، لأنني قررت أن أقسم منطقة العملية قطاعين: غربي وشرقي(٣٠)، يكون لكل منهما مقر قيادة محدّد. وطلبت أخيرًا كتيبة لوجستية بأعداد مرتفعة لتأمين نقل المؤن وتنفيذ عمليات الصيانة، وكتيبة حماية لرئاسة الأركان في الناقورة، إضافة إلى كتيبة شرطة عسكرية تغطّي كل المنطقة. وسيتم الإبقاء على مفرزة المروحيات الإيطالية، على أن تضاف إليها طائرة مروحية «أ ب ٢٠٥».

وللمرّة الأولى في تاريخ الأمم المتحدة، ستُزوّد إحدى بعثاتها بقوة بحرية، إذا استثنينا بضعة مراكب نشرتها بعثة الأمم المتحدة في جمهورية الكونغو الديمقراطية في منطقة البحيرات الكبرى أو في نهر الكونغو. وبما أن من واجبنا مساعدة الحكومة اللبنانية على ضمان حدودها وهي لا تملك إلا أسطولًا صغيرًا جدًا، فسوف نتولّى مراقبة الشاطئ عبر نشرنا ١٦ سفينة ما بين الساحل وقبرص، هي: ٤ فرقاطات، و١٠ زوارق دورية سريعة، وسفينتان لوجستيّتان. وعلى هذا السدّ الجديد أمام التهريب عمومًا وتهريب السلاح خصوصًا أن يحثّ الإسرائيليين على أن يرفعوا حصارهم البحري سريعًا. وستتكثّف «قوّة التدخّل البحرية» هذه من دون تأخير. وكان، من أول العناصر التي شكّلتها، السفن التي بقيت قبالة السواحل اللبنانية بعد إجلاء الرعايا الأجانب. وانضم إليها بالتدريج مشاركون آخرون. وتولّى الأميرال جيوزيبي جيورجي (من إيطاليا) منذ ٨ أيلول/ سبتمبر قيادتها الموقتة. وأكبّ على تحويل مجموعة السفن هذه الآتية من ثماني دول مختلفة وحدة متناسقة وعملانية. وهو لم ينجح في ذلك بامتياز فحسب، بل توصّل أيضًا إلى تطوير تعاون وثيق مع السلطات البحرية والجمارك اللبنانية.

(٣٠) راجع الخريطة في الملحق.

وسلّم قيادة هذه الآلة الجيّدة إلى الأميرال أندريا سكراوزي (من ألمانيا) في ١٥ تشرين الأول/أكتوبر خلال مراسم ترأستُها على متن حاملة الطائرات الإيطالية «غاريبالدي» الراسية في مرفأ بيروت. فقد شكّلت ألمانيا في حينه المُسهم البحري الأكبر. وهذا الدور الذي أدته بأفضل ما يمكن، يناسبها تمامًا لأنها لم تعرب عن أي حماسة في نشر وحدات برّية. وها هي حاضرة جدًّا من دون أي نزاع مع برلمانها على شرعية انخراطها. فالساحل اللبناني هو الجزء الوحيد من حدود البلاد الدولية الذي تقدّم فيه اليونيفيل مساعدتها في مراقبته. فبخلاف الحدود البرّية التي تشكّل حافة منطقة عملياتنا، فإن باقي المحيط ممنوع عنا لأننا لا نملك حق الخروج من المنطقة المُحدّدة. وقد نشر لبنان وسائل جديدة غير أنها تبقى غير كافية، مما اضطره إلى اللجوء إلى منظمات دولية أخرى، أو إلى مبادرات ثنائية، لتحسين مناعة حدوده الشمالية والشرقية، وهي الممرات المفضّلة للتهريب مع سورية.

لم تعد هيئة أركاني المؤلفة من نحو عشرين ضابطًا تكفي مع تضاعف المهمات وازدياد العناصر. وقررت نيويورك إعادة تركيبها كليًّا. وانتقلنا من هيكلية خاصة بنا إلى أخرى مُستنسخة عن هيئات أركان حلف شمال الأطلسي. وستتضاعف المكاتب المتخصصة، ويرتفع عدد الضباط إلى ١٢٠! وبقيت بالطبع مكاتب «العمليات» و«الاستخبارات» و«العناصر» التقليدية، لكن الكثير غيرها سيأتي ليلتحم بها. فمن قبلُ كان الدعم اللوجستي للوحدات يُديره أساسًا قسم إداري مؤلف من مدنيين منفصلين عن هيئة أركان المهمة ويعملون بطريقة مستقلّة. وهؤلاء الموظفون الدوليون المتخصصون الذين تعوّدوا العمل وحدهم وهم على اتصال مباشر مع نيويورك، باتوا الآن مدمجين بالتنظيم الجديد، ما سيجعلهم أكثر إحاطة بواقع الحاجات في الميدان. وسنعمل، بفضل هذا التعاضد الجديد، على إعادة النظر في قرار اتخذته نيويورك من جانب واحد. فقد قرر رئيس الدعم أن مقر قيادتنا وقاعدتنا اللوجستية في

وأن لا مفرّ من إنشاء مجمّع جديد من الصفر في مكان أكثر بعدًا إلى الشمال ما بين الليطاني وصور. وتوصّلنا إلى إقناع الاختصاصيين بالعكس، موفّرين بذلك ثمانية ملايين دولار!

أُنشئ مكتب «للشؤون المدنية» إضافة إلى آخر يتولى التخطيط. وقد قُلّصت هذه الوظيفة الأخيرة حتى الآن إلى صورتها الأبسط بسبب النقص في الأعداد الكافية من الضبّاط المؤهلين. واكتفت بوضع مختلف خطط الإجلاء الضرورية في حال الأزمة. ويجب القول إن التفكير في سيناريوهات تدهور الحال والبحث عن طريقة الردّ عليها لطالما كان بمثابة ارتكاب خطيئة. فهناك قرار دولي مُتخّذ ويُجدَّد بانتظام، ويجب التمسك به من دون البحث كثيرًا عن التفكير في الأسوأ. إذ يمكن لمثل هذه الخطوة، في الحد الأقصى، أن تعيد النظر في الإجماع الذي تم التوصل إليه لتبني القرار التأسيسي. ونعرف بالخبرة أن مثل هذا الاتفاق دائم الهشاشة بمقدار ما تتعارض فيه مصالح الدول الأعضاء. فالقرار يشكّل في الغالب، بمقدار يقلّ أو يكثر، القاسم المشترك بين الأمم. وهكذا، فإن النزاع الذي عايشناه للتو يؤشّر على نهاية حقبة في مجال التخطيط. وأصبح الآن التحضير للمستقبل، أقله في المديين القصير والمتوسط، أكثر نشاطًا وانسجامًا وغنًى في الاقتراحات.

أجرينا كذلك تعديلًا في العمق على بعض المكاتب الموجودة بالفعل. فقد عملنا في الماضي، وفاء منّا في ذلك لمبادئ حفظ السلام، على متابعة تطوّر الوضع والاكتفاء بالقيام بـ«الإخبار». ولم يكن لدينا ما نخشاه لافتراض أننا في حماية الأطراف وليس لدينا أعداء، وأخذنا بالتالي نلعب لعبة الثقة. غير أن تهديدًا جديدًا أبصر النور مع ظهور الإرهاب، وهو تهديد أكثر انتشارًا وعالمية ويخرج عن سيطرة المتنازعين. ومن الإلزامي أخذه على محمل الكثير من الجد؛ وبالتالي الانتقال من الإخبار إلى «الاستخبار» الأكثر هجومية.

وسبق لهذه النزعة أن كانت، منذ بضع سنوات، محسوسة بالفعل في اليونيفيل، لكن الانقلاب حدث الآن. فلم نعد نكتفي بالمصادر المفتوحة، كالصحافة والراديو، بل طوّرنا وسائلنا الخاصة في الاستقصاء، وبتنا نقوم بمناورة حقيقية للبحث عن كل ما يسمح لنا بتوطيد معرفتنا لعدوّنا.

ولطالما كانت إدارة الإعلام من مسؤولية مستشاري الدبلوماسي السيّد ميلوس شتروغر (من مونتينغرو). وهو أفضل من يمثّل القوة الدولية لدى الصحافة، لأنه يمتلك معرفة ممتازة لسياسة المنظمة، ويسيطر على عناصر لغتها، ويتابع الوضع المحلّي عن كثب. وقد جهّزت كل مفرزة نفسها طبعًا بضابط مسؤول عن العلاقات مع الصحافة. وقد وضعتُهم جميعًا تحت سلطة المستشار الرئيس. غير أن ذلك لم يحدث من دون مواجهة بعض الصعوبات. فقد حاول كل واحد طبعًا إبراز أعمال مفرزته، والجهود التي وافقت بلاده على بذلها، لكنه يهمل في أغلب الأحيان أن يفعل ذلك في إطار اليونيفيل وتحت شعار العلم الأزرق. وكذلك يجب استثناء الحساسيات الوطنية من تقويمات الوضع والأحكام المهمة التي يتم التعبير عنها لطرف ثالث، والتي تُلزمنا بالتأكيد جماعيًا. وليس من السهل دومًا جعلهم يقبلون هذه الفوارق الدقيقة، سوى أن يقظة المستشار الرئيس وحسن مقاربته سيسمحان بتفادي التصريحات الخرقاء التي من شأنها أن تُلزمنا بطريقة هوجاء. ويصعب دومًا على العسكري أن يكون خاضعًا لمدني، وأجنبي فضلًا عن ذلك، ولكن سيتم التوصّل في النهاية إلى انصهار فاعل.

ويمكن، عن حقّ، وصف إنشاء هيئة الأركان الجديدة هذه على أنها صدمة ثقافية. وها إن مختلف الوظائف التي تسمح بتنفيذ المهمة أفضل تنفيذ قد توحّدت في بنية مدمجة بالكامل. فالعسكريون والمدنيون يعملون معًا، ويتابعون الموقف نفسه في غرف العمليات ويفكّرون معًا في الإجراءات الواجب اتخاذها

ويتفقون على القرارات. ولم يسبق لهم جميعًا أن كانوا على هذا التقارب.

وها إن مفردات اليونيفيل قد أصبحت غنية، ربّما أكثر من اللازم، بالاختصارات. وليست متابعة محادثة ما أو استغلال وثيقة ما أمرًا من أسهل ما يكون في الأسابيع الأولى من الإقامة في الأمم المتحدة، حتى لمن يحضّر نفسه لذلك. فكل جملة تقريبًا مطعّمة بتعبير عويص تمامًا لمن ليس في اللعبة. وها إن التعوّد على اختصارات حلف شمال الأطلسي بات واجبًا الآن! وإذا شكّل الأمر سهولة نسبيّة للعسكريين، فليست هي حال الموظفين والعمّال المدنيين. فهم في معظمهم هنا منذ زمن بعيد جدًا، ويصعب عليهم أن يتخلّصوا من التنظيم القديم، وأن يروا أسماء وظائف من يتحدّثون معهم قد تغيّرت، وهم لا يزالون أنفسهم، وفي العثور على لوحات التعريف الجديدة على الأبواب. ولكن شيئًا فشيئًا، وقد فرضت الضرورة ذلك، سيتوصّل الجميع إلى التحدّث بلغة واحدة. وقد تكون لصعوبة الانصهار في هذا القالب الجديد أسباب أكثر عمقًا مثل «أنانية» الأمم. فالواقع هو أن معظم العناصر الذين ستزوَّد بهم اليونيفيل يأتون من بلدان أوروبا الغربية، وهي في معظمها أعضاء في حلف شمال الأطلسي. غير أن هناك دول مساهمة أُخرى مثل الصين أو الهند. وهي أمم عظيمة، وبين الأمم الأولى في الأرض، ولا تنتمي إلى الحلف الأطلسي. ولا تفقد بالتأكيد أي شيء من استقلالها، لكنها تسجّل مع ذلك بعض الممانعات. وهي حريصة على عدم الظهور بمظهر فضلات منظمة دولية ليست أعضاء فيها. وستنجح في ذلك تمامًا بفضل نوعية المفارز المُقدّمة.

ورث المقر العام للأمم المتحدة في نيويورك هو أيضًا خلية جديدة، هي الأولى من نوعها في قيادة عمليات حفظ السلام. فقد توصّلت فرنسا وإيطاليا إلى إقناع فريق إدارة علميات السلام بأن عليه تبنّي تنظيم مشابه لتنظيم المعروف للعمليات العسكرية التي يقوم بها حلف شمال الأطلسي والاتحاد

الأوروبي. ويقف على رأس التراتبية مسؤولان كبيران: قائد للعملية لا يقيم في مسرح العلميات بل في إحدى العواصم التي تشكّل مركزًا كبيرًا للقرار؛ وقائد للقوة يقود العمليات على الأرض. ويحتل الأول، وهو على المفصل بين السياسي والعسكري، موقعًا استراتيجيًّا بارزًا. إذ إنه يرشد بتوجيهاته قائد القوة باستمرار ويتلقى بالطبع تقاريره. وفي حال اليونيفيل، فإن قيادة العملية هي في الواقع هيئة أركان صغيرة، مجهّزة بكل الوظائف الرئيسة لمثل هذه الهيئة، وهي ستذهب للإقامة في نيويورك. غير أن ذلك يشكّل معضلة لأن لدى مدير عمليات حفظ السلام مستشارًا عسكريًّا بالفعل، وهو اللواء راندهيركومار مهتا (من الهند) الذي يترأس هو أيضًا هيكلية تتعاطى العمليات العسكرية. وهو قائدي الحقيقي في هذا المجال، ويخشى أن تفلت منه اليونيفيل لمصلحة هذه الخلية العسكرية الاستراتيجية الجديدة التي نجحت فرنسا وإيطاليا في إنشائها في مقابل وعد ببذل جهد لتوفير عدد كبير من العناصر للقوة الدولية الجديدة. وهكذا وجد هذان البلدان أنهما المسهمان الأكبران بالجنود، إذ تحتل إيطاليا المركز الأول بفارق كبير.

شكّل إنشاء اللجنة العسكرية الاستراتيجية عملية شاقة. يقود تلك اللجنة اللواء جيوفاني ريدينو (من إيطاليا) يعاونه العميد فرانسوا إسترات (من فرنسا)، وهو ما يعكس جيّدًا مشاركة هذين البلدين في اليونيفيل. وعلى غرار كل تجديد في قلب مؤسسة سبق أن تركّزت جيّدًا، وتمتلك عاداتها وتتردّد في تغييرها، واجه الوافدان الجديدان بعض الصعوبات في إيجاد مكان لهما فيها. وقد اكتشفا تنظيم الأمم المتحدة في نيويورك، وهو ما لم يسهّل مهمتهما. فالمنظومة اللوجستية خصوصًا غريبة كليًّا عليهما، لكنها تعمل جيّدًا، ويمكنها الاستغناء تمامًا عن إسهاماتهما. ومن السهل، والمرغوب فيه، إبقاؤهما على الحياد، بل وحتى عرقلتهما. يُضاف إلى ذلك أن هذه الخلية ليس مدمجة في سلسلة القيادة بل تبقى على هامشها، ويمكنها أن تسدي إليّ النصح، ولكن ليس أن توجّه إليّ

الأوامر. واضطرت الخلية العسكرية الاستراتيجية، التي لم تحظ بقبول جيد، أن تؤسس لنفسها مهمّة وبالأخص أن تجعلها تلقى قبول المحاورين الذين تحتاج إليهم في قلب المقر العام. وستتوصّل شيئًا فشيئًا إلى أن تجد لنفسها مكانًا بفضل دبلوماسية رئيسها وطول أناته. وأصبحت، بالنسبة إلينا، رابطًا إضافيًّا بيننا وبين مدير إدارة عمليات السلام القادر أن يترجم لنا بالعبارات العسكرية التوجيهات التي يصدرها سياسيو نيويورك! ومن ناحية معاكسة أن يشرح لهؤلاء انشغالاتنا على الأرض. لكنها ليست وسيطًا، لأنني بصفتي رئيسًا للبعثة، قبل أن أكون قائدًا للقوة، أستطيع الوصول مباشرة إلى أعلى مستوى سياسي في الأمم المتحدة. غير أن دعم الخلية العسكرية الاستراتيجية يشكّل لي ورقة رابحة إضافية لها قيمتها في المجال العسكري البحت، خصوصًا في ما يتعلّق بالتخطيط. فالخلية، الموجودة بين السياسات التي تقرر الاستراتيجية المتبعة والقوة التي تقوم بالعمليات، هي التي ستعمل الفكر وتجهد لحل المشكلات المطروحة على أعلى مستوى. وستلقى اقتراحاتها الترحيب دومًا وعلى مستوى القوة في الناقورة، يمكن لفريق الاختصاصيين المتين الذي في عهدتي أن يعدّلها.

وكشفت الخلية العسكرية الاستراتيجية عن أهميتها في وضع قواعد الاشتباك التي ستسمح لنا بالعمل في الميدان. فبحسب القرار ١٧٠١، «يسمح مجلس الأمن لليونيفيل باتخاذ كل الإجراءات الضرورية[٣١] في أماكن انتشارها، وعندما ترى ذلك مناسبًا ضمن حدود قدراتها، للسهر على عدم استخدام مسرح عملياتها للنشاطات العدائية من أي نوع كانت، وعلى مقاومة محاولات منعها بالقوّة من النهوض بالتزاماتها في إطار الانتداب الذي كلّفها إياه مجلس الأمن». وعلى الرغم من أننا في ظل الفصل السادس (سبق أن شرحنا الفرق

(٣١) إبراز من المؤلف.

بين الفصلين السادس والسابع)، فإننا قد ضمّنّا هذا النص حقًّا وسائل إنجاز مهمتنا. فلم تعد أسلحتنا تسخدم لحماية رجالنا ومنشآتنا والمدنيين فحسب، بل في وسعنا استخدامها أيضًا إذا تعرّضت مهمتنا للعرقلة. وهذا تقدّم كبير مقارنة بالقرار ٤٢٥ الإنشائي الذي لا ينص على مثل هذه الدقّة. فلم نعد محصورين في مجال الدفاع عن النفس وحده وبات في إمكاننا الآن، بشكل أفضل، فرض إرادة المجتمع الدولي واحترام القوة الدولية. انطلاقًا من بضعة أسطر واضحة تحظى بتقديري الخاص،أصبح الأمر متعلقًا بأن نحدّد لأنفسنا نحن اللاعبين جميعًا، تحديدًا واضحًا مختلف أنماط السلوك الواجب اتباعها في الميدان تبعًا للظروف. وهو ما نسمّيه قواعد الاشتباك التي تتألّف من مروحة من المواقف والأعمال تذهب من الأكثر قبولًا وليونة عبر الشرح والحثّ، إلى الأشد قوة وإكراهًا عبر استخدام السلاح. وعلى هذه القواعد أن تكون بسيطة، واضحة، سهلة التطبيق لتفادي أي التباس وبخاصة الانزلاقات. وبالتالي فإن كتابتها قد شكّلت مهمّة دقيقة جدًّا. وأدت الخلية العسكرية الاستراتيجية دورًا كبيرًا جدًّا في تحديد الوضعيات بشكل يفهمه الجميع ويقبلونه. وعنى ذلك قبول الجميع لتلك القواعد، خصوصًا الدول المُسهمة، لأنها ستهتم كثيرًا بمعرفة طريقة انخراط الرجال الذين ستعهد بهم إلى اليونيفيل في الميدان. فمن شأن قواعد كثيرة الإلزام، أو قواعد تشكّل الكثير من المخاطر، أن تدفع ببلد ما إلى صرف النظر عن مشاركته في تنفيذ الانتداب. وستمرّ بالتالي أسابيع كثيرة قبل أن نحصل، في الثالث من تشرين الأول/أكتوبر، على قواعد اشتباك توافق عليها نيويورك؛ وذلك أن تحديدها تطلّب وقتًا طويلًا ودقّة، فضلًا عن أن موافقة الدول المسهمة قد تأخّر.

كانت الاتصالات بين الناقورة ونيويورك ثابتة في الأسابيع الأولى التي تلت النزاع. ونحن بالتأكيد لا نعاود الانطلاق من الصفر، بل علينا بناء قوّة جديدة بتبنّينا فورًا لوضعية تختلف عن الماضي. لندرك جيّدًا أن الأزمنة قد

تغيّرت في جنوب لبنان. وسرعان ما سيرسل إلينا المستشار العسكري مفهومه للعمليات، وهو ترجمة للطريقة التي يرى المقر العام أن علينا اتباعها لإنجاز مهمتنا. واقتضى مفهومه للموقف المغاير لمفهومنا أن يخضع المشروع لجولات ذهاب وإياب متكرّرة قبل أن يغدو متكيفًا مع الواقع. وكذلك اتباعها لإنجاز خطّة الدعم اللوجستي، إذ تبدو الحاجات مختلفة بحسب طريقة النظر إليها من ضفاف الأطلسي أو من ضفاف البحر الأبيض المتوسط. وقد شرعت، من جهتي، في كتابة خطة العمليات الخاصة بنا، والتي تنطلق منطقيًّا من مفهوم العملية. وشرحت فيها كيف أنوي أن أُطبّق في الميدان الأعمال المختلفة التي تسمح لي بتطبيق المهمّة. وبات يكفيني، مُنذ وصلني مفهوم العمليات المُنجز والمُوافق عليه، أن أجري بعض أعمال التكيُّف لتصبح لديّ خطة عمليات متناسقة مع الرؤية النيويوركية. وسارعت في إرسالها إلى اللواء مهتا للموافقة عليها. وما إن وصلتنا موافقته حتى شرعنا أخيرًا في كتابة أمر العمليات الذي يثبت مهمة كل عنصر من العناصر الذين يشكّلون القوة، وطريقة إنجازهم لها.

هذا الطور الأول لتطبيق القرار الحاسم، إذ أن تتميّز الخيارات التي نتخذها اليوم بالحكمة، لأنها تُلزم المستقبل. ويجب في الوقت نفسه إظهار الواقعية والاهتمام بالتفاصيل والدقة في كتابة الأوامر، إضافة إلى أكبر قدر ممكن من السرعة، لأن الأحداث على الساحة لا تنتظر. وبدت اليونيفيل أشبه بمختبر حقيقي تتطوّر فيه أساليب جديدة لمقاربة عمليات حفظ السلام. فالقوة البحرية، ومقر القيادة من النوع الموجود في حلف شمال الأطلسي، و«الاستخبارات» والهيكلية التي تدمج بشكل وثيق بين المدنيين والعسكريين، والخلية العسكرية الاستراتيجية في نيويورك، كلّها ابتكارات تشهد على إرادة الأمم المتحدة في تزويد نفسها وبسائل النجاح.

السباق إلى المساهمة

من حسن الحظ أن لدينا في الميدان، قوات كي تتيح قبل الصيف، بداية الانتقال فعلًا، ونحن ننفذ في الوقت نفسه مهماتنا الجديدة. حصلت نيويورك على لائحة باحتياجاتنا وعليها العثور على دول مستعدة لتزويدنا بالوحدات الملائمة. العملية طويلة، والاجتماعات في مقر الأمم المتحدة كثيرة. والبلدان التي لا تريد الانخراط كيفما اتفق، انهالت بالأسئلة على فريق إدارة عمليات السلام. ما هو مفهوم العمليات؟ وكيف يُتوقّع تنفيذ المهمات المطلوبة؟ وما هي حرّية المفارز في العمل؟ وهل يمكن تكييف قاعدة ما من قواعد الاشتباك مع التشريع الوطني؟ وما إن تم اجتياز هذه المرحلة الأولى حتى بات المطلوب إنشاء الوحدة المختصّة لنقلها من ثمّ إلى جنوب لبنان. ولن تكون، في النهاية، الأشهر الستة المتبقية لي كثيرة جدًّا لإنجاز إعادة الهيكلة هذه!

تتميّز المنافسة بين الدول بالحدّة أحيانًا، لأن المشاركة في القوة الدولية غير مُنزّهة أبدًا. فوراء الإخلاص للدفاع عن المصالح المشتركة، الذي يوضع دومًا في المقدم، تختبئ أيضًا أهداف قومية محض.

مضى زمن على وجود الصين وفرنسا وغانا والهند وإيطاليا وبولندا هنا. وكل تلك الدول تنوي البقاء، بل دعم نفسها بطريقة ذات مغزى. فقد أعلنت فرنسا، منذ نشر القرار أنها ستضاعف عدد جنودها. وعلى الرغم تأثير الإعلان لم يرتفع العدد إلا من ٢٠٠ فرد إلى ٤٠٠، ما يبدو قليلًا جدًّا بالنسبة إلى العدد الأقصى المسموح به والذي يبلغ ١٥ ألف رجل. وليس من شأنه أن يثير الاستعداد لدى الدول الأخرى الأعضاء، خصوصًا أن فرنسا تطرح نفسها كدولة مؤسسة، مع غيرها، لهذه اليونيفيل الجديدة، وعليها أن تقدّم المثل الصالح، مما اضطر رئيس الجمهورية السيد جاك شيراك، حيال عدم الحماسة التي أثارها القرار، إلى الإعلان سريعًا أنه يفكّر في رفع عدد رجال القوة الفرنسية

إلى ألفين. أما إيطاليا، الشديدة الحذر، فبدت عاقدة العزم وسوف تقدّم العدد الأكبر، وهو تفوّق لا تزال تحتفظ به حتى اليوم. ولا أزال أذكر الزيارة التي قامت بها، في ٢٣ آب/أغسطس، بعثة إيطالية بقيادة العقيد فيليبي، جاءت للاستفسار عن الوضع، وعن الطريقة التي يمكننا فيها النظر في مشاركتها. طُرحت أسئلة كثيرة بالتأكيد، ولكن من دون الإشارة إلى أي التزام مستقبلي، ولا إلى ما من شأنه أن يكشف أفضل عن أهدافها، أو عن إمكانات عملها مع القوة الدولية. فقائد فريق الاستقصاء هذا، الودّي مع ذلك، بدا في موقف غير مريح تمامًا. ومن الواضح أنه لا يستطيع تقديم أي وعد، ويحاول أن يختار أسئلته بعناية شديدة، حتى لا يكشف عن أهداف هيئة أركانه. وأظهرتُ انفتاحًا وتسامحًا لأنني أرحّب بأي مشاركة. ومن غير الوارد إحباط النيات الطيبة. فهذا البلد، وهو الشريك التجاري الأول للبنان، سيتولّى قيادة المهمّة. ووجوده متناسق مع رهانات سياسته الخارجية في المتوسّط. وبات لإيطاليا، عند تاريخ مغادرتي، كتيبتان من المشاة منتشرتان في منطقة العمليات. ثم أن قائد القوة الدولية وقائد القطاع الغربي إيطاليّان. وفضلاً عن ذلك هناك مفرزة المروحيات وهي واحدة من دعائمنا، مثلها مثل الكتيبة الغانية الباقية على الرغم أن أكرا لا تفكّر في زيادة عناصرها. وتشكّل المشاركة في عمليات حفظ السلام تقليدًا طويلًا لغانا، ناهيك بأن أميننا العام غاني هو أيضًا. كذلك قرّرت الهند من جهتها الإبقاء على قوّتها في مستواها الراهن، المتمثّل بكتيبة مشاة ومستشفى ميداني. وكانت ستفكر جدّيًا في سحبهما لو أن القرار وُضع تحت الفصل السابع لا السادس. وأبقت الصين على كتيبة الهندسة التابعة لنا والتي لا يمكننا الاستغناء عنها في عملية إعادة الإعمار وفي نزع الألغام. ثم إنها زادت من مشاركتها بإقامتها مستشفى ميدانيًا. أما البولنديون المتضلعون من المهمات اللوجستية فيواصلون تزويد مجمل قطاعنا بالإمدادات.

أما إسبانيا، وهي شريكة جديدة ومهمّة، فستقدّم القوة الثالثة من حيث الحجم بعد إيطاليا وفرنسا. وهذا أول ظهور لهذا البلد في لبنان. وهو يشهد على تضامن الأمم الأوروبية حيال أزمة الشرق الأوسط. وانخرطت ألمانيا، من جهتها، بشدّة، في إنشاء القوة البحرية التي تشكّل هي أيضًا سابقة في المنطقة. وعاد الفنلنديون والإيرلنديون في قلب وحدة هندسة مختلطة. وكذلك أمر البرتغاليين والقوة البلجيكية التي أقامت مستشفى ميدانيًا، وهي تضم في صفوفها أفرادًا من لوكسمبورغ.

عاد النيباليون أيضًا إلى الأرض اللبنانية التي غادروها عام ٢٠٠٠. وقد اكتشفوا، إلى جانب الوافدين الجدد، وجميعهم مسلّحون بأفضل النيات، مهمّة حسّاسة في سياق أبعد من أن يكون بسيطًا. وجاءت ماليزيا وتركيا أو حتى إندونيسيا لتزيد في مجموعة بلداننا الثلاثين المساهمة. وهذه القوى، التي تضم نسبًا كبيرة من المسلمين، جاءت بضمان مفيد جدًا للقوة التي أخذت تظهر كثمرة المبادرات الغربية في بلد عضو في الجامعة العربية. وتميّز البعض بتمثيل رمزي، لكنه مع ذلك موضع تقدير، فلغواتيمالا مثلًا، ضابطان في هيئة الأركان، يشكّلان الوسيلة الفضلى لحسن الاطلاع ومعرفة آليات بعثة تابعة للأمم المتحدة. وآخر الواصلين سيكون القوة الكورية الجنوبية، توافقًا مع جنسية الأمين العام الجديد بان كي - مون.

وشكّل تمركز القوات مناسبة للدول للظهور بمظهر النجومية في المنطقة. وعُدّت أسبقية الوصول عامل تنافسي مرير. وأعلمني المستشار العسكري لفريق إدارة العمليات الجنرال مهتا بوصول ٢٠٠ جندي إلى الناقورة في غضون ٤٨ ساعة، وهو الوعد الذي قطعه له دبلوماسي في البعثة الدائمة لفرنسا لدى الأمم المتحدة. وأصرّ على أن أستقبلهم من دون تأخير. وعبثًا حاولت أن أشرح له حاجاتي إلى بعض المهل، أقله لأعثر لهم على ملجأ أمين في حال استئناف

الاعتداءات فلم يشأ أن يتفهّم الأمر. وكرر طلبه بحزم. ومن حسن الحظ أن هذه الأخبار لم تجد لها تجسيدًا سريعًا. وفي النهاية سيصل، بعد ذلك بأسبوع، ٩٧ من رجال الفوج الأول في فيلق الهندسة الأجنبي إلى مرفأ الناقورة الصغير على متن «الميسترال». إنه إنزال مصغّر لعملية النورماندي في ٦ حزيران/يونيو ٤٤، مع مرور للمروحيات قريب من سطح مخيمنا كاد يتسبب في حادث خطير مع طائرتنا الهيليكوبتر الوحيدة من طراز «أم آي ٨»، على الرغم أنها ظاهرة تمامًا في موقفها. ثم إن من الواضح، ومن المعروف مسبقًا، أن المجال الجوي في هذه المنطقة يقع تحت سيطرتنا. وجيء بالصحافيين إلى الرصيف قُبَيل وصول مركبَي الإنزال وأمكنهم أن يصوّروا وينقلوا كما يحلو لهم وصول التعزيزات الأولى. قاموا بذلك، فيما روى عطشهم إلى شرح الوضع أميرال نزل للتو من «الميسترال» لكن ثقته بالنفس توحي أنه لطالما كان موجودًا هنا. تأملت، وأنا مبتعد قليلًا، هذا التجمهر وتركته يحدث. وربما أتحفني المتحدث بزيارة لياقة قبل أن يعود إلى الإبحار.

وليست أسبقية الوصول أمرًا جيّدًا فحسب للصورة المميّزة، بل انها تسمح أيضًا بالاستقرار في المكان الأفضل. وقد شكّلت منطقة عمليات جديدة حددت فيها القطاعات التي ستحتلها في النهاية ثماني كتائب مشاة. ولنسمّها «كتائب» فحسب، دون أن نضيف الصفة إلا إلى الوحدات المتخصصة مثل «كتيبة الهندسة». وتطلّبت الأولوية على الأرض تعبئة جيب صور الخالي من أي وجود لليونيفيل. وهذا القطاع، في حال الأزمة والإخلاء، ومع انفتاحه على البحر، هو الأكثر ملاءمة وبالتالي محطّ طمع أكثر من غيره. وقرّرت أن يُعطى لأول قادر على ضمان السيطرة عليه في شكل مرض. وقد نزل الإيطاليون إلى الشاطئ بآلياتهم الهجومية البرمائية في الثاني والثالث من أيلول/سبتمبر. وتألّفت كتيبتهم من فوج جديد مُشكّل من فوج مشاة البحرية «سان ماركو»، ومن فوج البحيرات «سيرينيسيما» وارث الفرق المنقولة بالسفن في جمهورية

البندقية. وقد جهّزوا لعملية إنزال بالقوة الحيّة على شاطئ جنوب شرقي صور، ولاقيت صعوبة كبرى في إقناعهم بضرورة إعادة النظر في نياتهم. فقد تم في الواقع احترام وقف الاعتداءات والجيش اللبناني موجود وفي وسعه أن يرتّب حمايتهم. والأمر لا يتعلّق بإنزال في منطقة حرب، بل في التمركز بالتنسيق مع القوات الوطنية التي باتت موجودة بالفعل. وتظهر نيات أولئك الجنود الإيطاليين الجديرة بالثناء لولا أنها متزخرة عن الأحداث، الفارق في الرؤية بين من هم بعيدون ومن هم في الميدان. وسيؤمن الجيش اللبناني، فضلًا عن ذلك، حماية أمنية مناسبة جدًّا تستمّر حتى بلوغ الإيطاليين نقطة تمركزهم الأساسية. وهو سيفصل أيضًا ضابط ارتباط دائمًا مع الكتيبة.

ويبدو أن استخدام القوات البرمائية أصبح مدرسة، إذ إن إسبانيا أرسلت أيضًا مشاة بحريتها المجهزين هم أيضًا بآليات مماثلة لآليات الإيطاليين، وهي من طراز «AAVP7-A1» الأميركية الصنع. وقاموا أيضًا في ١٥ أيلول/سبتمبر بعملية إنزال على شاطئ صور وشقوا طريقهم إلى الداخل ليتمركزوا أولًا في قطاع أبعد صوب الوسط، حول الطيبة. وستحلّ محلهم لاحقًا الكتيبة الأندونيسية، فيمضون أبعد صوب الشرق ليتولوا مسؤولية القطاع الممتد من مرجعيون إلى كفركِلا.

أبلغني الإسرائيليون أنهم يفضّلون عدم وجود كتيبة ترتفع فيها نسبة المسلمين تنتشر على تماس مع الخط الأزرق. إلا أن مثل هذا الطلب لا يتوافق مع مبادئ المنظمة الدولية، فتصرّفتُ على العكس بطريقة تتولى فيها البلدان التي تؤمّن مثل هذه الوحدات مسؤولية جزء من هذه الحدود الجنوبية لمنطقة عملياتنا. فعلى كل كتيبة، أيًّا تكن جنسيتها، أن تشارك في المهمة المشتركة. ولن يسبّب هذا بالتالي أي مشكلة في التعايش.

من حسن الحظ أن الوافدين الجدد لم يتقدّموا جميعهم في الوقت نفسه، وقد أدى كل وصول جديد بالضرورة إلى توزيع جديد لقطاعات الانتشار. وكان الهنود الأكثر حظوة لأنهم لن يتحرّكوا من الطرف الشرقي لمنطقتنا. وقد رحّبنا بتدرّج عمليات الوصول, لأن علينا إيجاد أماكن لاستقرار الوحدات. ويتوجّب عادة على الحكومة اللبنانية تأمين الأماكن الضرورية، لكن تعاونها في هذا المجال شبه معدوم. فهي لا تجد ملّاكين على استعداد لتأجير قطع من أراضيهم. وهناك ما يوجب! فالجميع يعرفون هنا بالدعاوى القائمة منذ إنشاء اليونيفيل عام ١٩٧٨. فكثيرون استقبلوا حينذاك عناصر القبّعات الزرق في أراضيهم. وقد شيدت فيها مواقع بالإسمنت المسلح وحُوّلت أراض زراعية مستودعات أو مراكز قيادة، وفتحت طرق العبور إليها. ولم يحصل أي منهم حتى اليوم على ليرة لبنانية واحدة من التعويضات المستحقة على الدولة. فمن الذي يمكن أن يجرؤ على تكرار التجربة؟ وهكذا يتم الصراع المرير على كل شبر من الأرض. وقد أظهر مضيفونا أيضًا إشارات إلى التوتّر والنية السيئة. فقد أراد الإيطاليون إقامة مركز قيادة للكتيبة في معركة. ووجدوا أن السلطات المحلية لا تقترح عليهم إلا مكب النفايات البلدي مكانًا لذلك. جرّبت كل الطرائق ليرفضوا. لكن سينتهي بهم الأمر، وقد ضغط عليهم الوقت وإكراهات الانتشار، إلى الموافقة وهو ما وجدتُ أنه يلامس حدود المقبول. وحضّروا بجهود حثيثة، أمكنة إقامة صحيحة. وتمكنوا بهذا من مغادرة موقعهم الأول في كفركِلا، المركز القديم لقوة الردّ المتنقلة حيث يجب أن يتمركز بشكل طارئ جزء من الكتيبة الفرنسية التي لا تزال في بيروت. وقد تركوا على مضض منشآتهم الخرسانية ليعيدوا انتشارهم في قرية من الخيم، حيث عليهم إعادة بناء كل شيء. ودفعت أزمة السكن الحقيقية هذه بالبعض إلى الحديث، في غرف الطعام، عن استخدام نعل حذاء! وفي محاولة منّي لهز السلطات اللبنانية في لامبالاتها وصلت إلى حد إبلاغها أنني سأضطر إلى تأخير نشر بعض القوى.

وجاء رد الفعل بعيدًا عن توقعاتي، حتى لو لم يراودني أي وهم حيال نجاح مسعاي. فلم أتلقَّ أي اقتراح جديد بتقديم قطعة من الأرض. ولم يوفّر هذا الوضع الناقورة، حيث يصل ضباط الأركان بأعداد كبيرة، وأحيانًا من دون الإعلان المسبق عن مجيئهم. وسيضطر بعضهم إلى النوم لفترة في الممرات قبل أن يتمكنوا من العثور على مسكن لائق. إلا أننا رحبنا بهم جميعهم في ما بيننا، وقد انكبوا على العمل من دون تأخير. وها أنا خصوصًا أحظى برئيس للأركان، العميد فيليب ستولتز (فرنسا)، وهو دلفين[٣٢] (Marsouin) واسع الخبرة سيعرف كيف ينشئ من لا شيء هيكليتنا القيادية الجديدة. وسبق أن ألغي مركزه في اليونيفيل قبل مجيئي، ولم أتمكن قط من التوصل إلى إعادة إنشائه على الرغم من طلباتي الملحّة الكثيرة. وعشنا النزاع كلّه في غياب هذا العنصر الذي لا غنى عنه لكل هيئة الأركان للتمكن من العمل في تناسق. فهو قائد الأوركسترا وقد شعرنا قساوة غيابه.

ليس سهلًا على فريق إدارة عمليات السلام الحصول على كل الوحدات المنشودة للوصول إلى الشكل المقترح للقوة الدولية. فهناك بلدان كثيرة تجتذبها، بشدّة، التشكيلات ذات الطابع الإنساني الملحوظ، مثل الهندسة التي تشارك في الإعمار وفي نزع الألغام، أو جهاز الصحة بأطبائه ومستشفياته. صحيح أن الصورة المميزة هي بالتالي أكثر جاذبية وتمرّ عبر وسائل الإعلام بشكل أفضل مما تمر به وحدات القتال. وهي أيضًا الوسيلة لتوليد أقل مقدار من العداوات مع السكان من خلال الظهور بمظهر الأكثر تعاونًا والأقل إكراهًا. فمفهوم القوة محجوب جزئيًا بينما يسهل أكثر تسليط الضوء على مساعدة السكّان ودعمهم، وهذا ما يمكن تسويقه في شكل أفضل. ثم إن مخاطر الاصطدام بعناصر معادين من السكان أدنى كثيرًا. وتجاوزت العروض الحاجات بشكل كبير.

(٣٢) جندي من القوات البحرية.

واضطر محاورونا النيويوركيون إلى اعتماد الدبلوماسية لعدم تفتير همة الإرادات الطيبة.

كما يحدث لبلد ما، وافق على تقديم وحدة محدَّدة بوضوح أُعطيت في الواقع أن يفرض وسائل لم يتم طلبها في الأساس. ففي ٣٠ آب/أغسطس تابعت، ككل صباح، أخبار إذاعة فرنسا الدولية. واستمعت إلى وزيرة الدفاع الفرنسية السيدة ميشال أليوت ـ ماري تعلن أن فرنسا قررت المشاركة بقوّة في اليونيفيل الجديدة، وأنها سترسل دبابات «لوكليرك» ومدافع ذاتية الحركة من عيار ١٥٥ ملم إضافة إلى صواريخ مضادة للطائرات. اكتشفتُ الأمر ودُهشت لتجهيز معدّات لم نطلبها، ولم يتم إعلامنا بها. أكدت لي نيويورك الخبر بعد الظهر، وطلبت إليّ إظهار المرونة والتأقلم. فاستعادت هيئة أركاني نسختها وانتهت إلى إيجاد مهمّات متسقة لهذه الوحدات غير المنتظرة. وتشتهر دبابات لوكليرك خصوصًا بمدفعها وبنوعية منظومة إطلاق النار فيها. والمؤكد أن وزنها وصعوبة حركتها ليسا مثاليين للطرق اللبنانية الضيقة، غير أنها في ما عدا ذلك منصّة متميّزة للمراقبة تسمح بالرؤية إلى البعيد في النهار كما في الليل. وستجد هذه العيون الجديدة ما يمكن استخدامها من أجله. كذلك ستزيد رادارات رجال المدفعية من قدراتنا على المراقبة. وسارع الإسرائيليون، سواء كان لذلك ما يبرّره أم لا، إلى إيجاد الرابط بين تركيز أنظمة الدفاع الجوي «ميسترال» وما يؤخذ عليهم من انتهاكات يومية للمجال الجوي اللبناني. وعدُّوا هذه المبادرة بمثابة استفزاز، وأعربوا عن ذلك، في ٣١ تشرين الأول/أكتوبر، على طريقتهم. فأثناء زيارتي الأولى للكتيبة الفرنسية في مقر قيادتها في كفركلا، وفيما كان قائدها المقدّم دي سوفان يستعرض معي الوضع في خيمته التي تُستخدم كمركز للقيادة، قاطعه فجأة ضجيج يصم الآذان. إنها طائرة مطاردة «أف ـ ١٥» إسرائيلية قامت للتو بغارة وهمية على المعسكر. وهي من ضمن دورية مؤلفة من طائرتين. وقد حامت طائرتها المرافقة فوق المنطقة مراقبة، بينما انقضت هي نفسها على هدفها، ثم

عاودت الارتفاع في اللحظة الأخيرة. والتقط رادار البطارية المضادة للطائرات الطائرتين منذ اجتيازهما الخط الأزرق، والتحق سَدَنة الصواريخ بمركزهم على الفور. وأصبحت أصابعهم على الأزرار في مواجهة موقف الإسرائيليين المهدد، وكادوا لوهلة يطلقون النار. توقّف الأمر على بضع ثوان. فقد دخلت الطائرة في المجال الجوّي، حيث تُعدُّ أنها تشكّل خطرًا ويجب أن تُستهدف بالنار. غير أن مطلقي الصواريخ تمتعوا بالجرأة لانتظار قيام المهاجم بإطلاق النار قبل مبادرته بنيرانهم. وهو ما لم يحدث، وسمحت برودة أعصاب الفرنسيين بتفادي كارثة حقيقية. فلو أسقطت الطائرة لجاء الرد الإسرائيلي حتمًا قاسيًا جدًا، ولما استهدف الكتيبة الفرنسية وحدها. فهناك خطر في إعادة النظر في وجود اليونيفيل نفسه. وأخذ عليّ البعض بعد ذلك عدم إعطاء الأمر بإطلاق النار. إلا أنني أبقى على اقتناعي، على الرغم من حقي في مواجهة هذا الاستفزاز اللامسؤول تمامًا، بأن الرهان مثقل جدًا بالعواقب لكي لا أخاطر وأنتظر أن يذهب الإسرائيليون أولًا بعملهم إلى النهاية.

لم تكن كل هذه الوسائل الثقيلة هي التي أتمناها في الأساس، لأن عليّ بشكل خاص، وعلى الفور، تأمين السيطرة الصحيحة على منطقتي. ومن حسن الحظ أن الفرنسيين يمتلكون سرايا مشاة مؤللة متكيّفة تمامًا مع هذه المهمة. ثم أنهم دمجوا في عديدهم سرية مشاة قطرية هي نتيجة العلاقات العسكرية الممتازة بين البلدين. وهكذا وجد قائد الكتيبة نفسه على رأس وحدة هجينة ليست قيادتها بالأمر السهل. فهو مسؤول، من جهة، عن قطاع واسع عليه أن يحتله ويسيّر فيه الدوريات بشكل دائم، ومسؤول من جهة أخرى عن نواة قوة ردّ سريع عليها أن تكون جاهزة في أي وقت لمساندة أي وحدة تواجه الصعوبات. ولماذا مثل هذا الخيار؟ مما لا شك فيه أن هذا الانتشار القوي مؤثّر، ولكن يجب أيضًا، ربما، أن نرى فيه تلاؤمًا مع ما هو متوافر في لحظتها، لأن فرنسا منخرطة أيضًا في مسارح كثيرة أخرى في العالم.

الانسحاب الإسرائيلي وانتشار الجيش اللبناني

استعجل اللبنانيون إعادة بسط سيادتهم على أرضهم كاملة، وهم على أي حال تعهّدوا ذلك بقبولهم القرار. غير أن الإسرائيليين ليسوا مستعدّين لإخلاء المكان فورًا. فهم يحتلّون ما يقارب ثلثي المساحة الممتدة بين الليطاني والخط الأزرق. ويريدون، قبل الرحيل، أن يعيدوا إلى إسرائيل معداتهم المدمّرة وبالأخص تفكيك الحد الأقصى من منشآت حزب الله. وتوجّب علينا إذًا، بما أن القرار الرقم ١٧٠١ يكلّفنا ذلك، إنشاء آلية تسمح للجنود اللبنانيين بأن يسيطروا بالتدريج على الأرض التي يخليها أقرانهم الإسرائيليون.

أقمنا سريعًا جدًا لجنة ثلاثية تجتمع بدءًا من ١٦ آب/أغسطس، وكلما دعت الحاجة، في مركزنا ١-٣٢ أ في رأس الناقورة. وليس على الإسرائيليين، بقيادة الجنرال عودي ديكل، إلا فتح بوابة سياجهم واجتياز نحو مئة متر سيرًا للمجيء والجلوس في ما هو مقر قائد هذا المركز الغاني، حيث ينتظرهم الوفد اللبناني برئاسة العميد عبد الرحمن شحيتلي. وأنا دائمًا أول الواصلين لأستقبل ضيوفنا في الأرض الدولية وإجلاسهم إلى طاولتين كبيرتين موضوعتين بالطول الواحدة قبالة الأخرى، ولكن تفصل بينهما مسافة كافية. ونحن نشكّل من جهتنا قاعدة حرف U هذا. فما من مصافحات بين ممثلي الفريقين، بل تحية صغيرة سريعة فحسب لدى دخول قاعة الطعام التي حُوّلت قاعة اجتماعات. ولا يتوجه أحد، لدى النقاش، بالكلام مباشرة إلى من يجلس قبالته. بل هم يمرّون في شكل منهجي من خلالي، فأنقل السؤال أو الجواب من طاولة إلى أخرى. وسيستغرق الأمر وقتًا طويلًا جدًا قبل أن تدب الحرارة في الجو وتصبح العلاقات مباشرة أكثر. ولكن وبمساعدة من الروتين، ولأن المتحاورين هم دومًا أنفسهم، ولأن ردّ الفعل يبدو أحيانًا قويًا جدًا، سيفاجئ البعض أنفسهم في التحدّث مباشرة مع الخصم. وشيئًا فشيئًا يصبح التراخي مع المبادئ أكثر

تكرارًا، وأنا بالتأكيد أترك الأمور تأخذ مجراها. ولكن ما إن ترتدي المحادثات طابعًا مهمًّا، أو رسميًّا، حتى أُعاد إلى أداء دوري كوسيط. قرّرنا، بعد بضعة أسابيع، وقد تشجعنا بهذا التقدّم، عدم اعتماد إلا طاولة واحدة بالطول بحيث يمكن الموفدين أن يتواجهوا بجلوسهم على الجانبين. إلا أننا، ويا للأسف، ارتكبنا خطيئة المبالغة في التفاؤل. فقد أصرّ رئيسا الوفدين، لدى وصولهما، على العودة إلى المنكرات السابقة وإلا انسحبا على الفور. طلبت وأنا مرتبك خجلًا بعض الشيء إعادة الترتيب على شكل حرف U. فمن المهم جدًّا، في هذا الجزء من العالم، احترام المظاهر وقد ذكّرنا ردّ الفعل هذا بذلك وحتى إن كان على حسابنا. إلا أن النقاشات لم تتأثر.

توجّب علينا وضع آلية تسمح للإسرائيليين بالانسحاب، وللجنود اللبنانيين بأن يحلّوا محلّهم من دون أن يكون الواحد منهم على احتكاك مباشر بالآخر. انكببنا على خرائطنا، وقسّمنا المنطقة التي يحتلها الجيش الإسرائيلي قطاعات ذات حجوم صغيرة بالتوافق مع رغبات هذا الطرف وذاك. ثم سحبنا نسخًا عن وثائق أصبحت مرجعًا لنا جميعًا. فما أن تغادر إسرائيل قطاعًا معيّنًا حتى تحتله على الفور وتسيطر عليه وحدة من اليونيفيل، للتأكد من أن المغادرين لم يخلّفوا وراءهم أفخاخًا أو مقاتلين. ثم، وبعد إنجاز التدقيقات، تستقبل وحدة القبعات الزرق الجيش اللبناني في المكان، ثم تنسحب لتحتل منطقة عازلة أخرى. وكان تولّي قطاع ما ثمّ تسليمه إلى أصحابه يستغرق يومين أو ثلاثة. والعملية بطيئة لكنها تسير في شكل صحيح. وفي النهاية، فإن الإسرائيليين هم الذين يملون الإيقاع ويقومون بذلك وفقًا لعمليات التدمير التي يصرّون على إجرائها، ومخابئ أسلحة حزب اللّه التي يُفرغونها. ولن ينجزوا انسحابهم إلا في الأول من تشرين الأول/أكتوبر، عشية «يوم كيبور»[٣٣]، وسيصبح الجيش

(٣٣) «يوم الغفران الكبير» في الدين اليهودي.

اللبناني موجودًا عند أطراف الخط الأزرق بعد خمسة وعشرين عامًا من الغياب، باستثناء مدينة الغجر التي لا يزال الجيش الإسرائيلي يحتل قسمها الموجود شمال الخط الأزرق. وهذا البطء المقصود يشكّل أيضًا وسيلة ابتزاز تدفع الدول المساهمة إلى تسريع إرسال قواتها، وتجبر الجيش اللبناني على احترام إعلانه المتعلق بعدد العناصر الذين سينشرهم جنوب الليطاني. وانسحب الإسرائيليون عندما عدُّوا أن لدى اللبنانيين، ولدينا أيضًا، ما يكفي من الإمكانات لضمان أمنهم في المناطق المُعادة، أي إبقاءها فارغة من أي مقاتل تابع لحزب اللّه. ونشر الجيش اللبناني في النهاية ما يعادل أربعة ألوية. ويخضع هذا المجموع لقيادة العميد بول مطر الذي أقام مقر قيادته في صور. وستقام علاقات ثقة بين جنوده وبيننا بفضل انفتاحه وإرادته المؤكّدة في التعاون. وسرعان ما سنعمل معًا ونتشارك عن كثب في تطبيق الانتداب. فالنية اللبنانية الطيبة ملموسة على الرغم من المعدات المتقادمة والإمكانات الصغيرة.

بدا أن السكان اللبنانيين الذين لازموا أماكنهم يتأقلمون مع بطء هذه الانسحابات. وفي المقابل، فإن عودة الذين ذهبوا طلبًا للجوء في أماكن أخرى من البلاد تطرح إشكالية أكبر. فمنذ انتهاء النزاع سلك الكثيرون منهم طريق العودة إلى الجنوب، ليكتشفوا، في معظم الأحيان، أن منازلهم أصبحت ركامًا، وحقولهم مخرّبة، وأن جنودًا إسرائيليين لا يزالون موجودين في المكان. وتوجّب علينا السهر من أجل تفادي الصدامات، ومراعاة السكان المكلومين، وتوجب علينا بشكل خاص العمل على تفادي الخرق وحدوث اعتداءات. فما من أحد يرغب في الوصول إلى هذه النهاية والحكومة اللبنانية تبذل ما في وسعها لتهدئة تلهّف الذين يريدون العودة.

شكّلت الاجتماعات الثلاثية مناسبة أيضًا للتطرّق إلى موضوعات أخرى غير الانتشار اللبناني. حاولنا إقامة اتصالات أكثر أمانًا وسرعة بين المتنازعين

لنمنع إلى أقصى حد خطر التصعيد في حال وقوع أي حادث، مع استمرارنا في دور الوساطة مرغمين. وقد احتُرم وقف الأعمال العدوانية بيد أن التجربة برهنت، ولو في ١٢ تموز/يوليو فحسب، أن الوضع يمكن أن يتدهور بسرعة. وللمرة الأولى، سيستقر عنصر من اليونيفيل في إسرائيل. ويتعلّق الأمر بفريق ارتباط دائم مؤلف من ضباط سيتركّز في مقر القيادة الإسرائيلية الشمالية في زفّات. فمعرفته للقوة والأرض ستسمح لهذا الطرف وذاك بتقويم أفضل للوضع في حال الأزمة. ثم إن وسائل اتصاله تسمح بإقامة روابط فورية. ولن نعتمد على موافقة سنترال الهاتف الإسرائيلي للاتصال مع أقراننا.

تردّد الإسرائيليون كثيرًا حيال فكرة اضطرارهم إلى رفع حصارهم البحري وترك مسؤولية مراقبة السواحل اللبنانية لقوتنا البحرية وللسفن الحربية اللبنانية النادرة جدًا. وسيسمح الارتباط الوثيق والمستمر، بين الخلية البحرية في هيئة أركاننا والبحرية الإسرائيلية، بمتابعة أفضل للسفن المشبوهة التي تبحر مقتربة من انتشارنا، واستجوابها عندما تعرب عن نيتها دخول أحد الموانئ اللبنانية. وستسهم جديتنا وفاعلية وسائلنا البحرية في طمأنة الإسرائيليين وإقناعهم، ولو على مضض، بضرورة رفع وسائل الحظر الخاصة بهم.

حاول الإسرائيليون في كل اجتماع معرفة أخبار جندييهم المخطوفين، ليحظوا بالجواب اللبناني نفسه: «هذه مسألة سياسية، ليس من اختصاص بعثتنا البحث فيها». واستنكروا، في كل اجتماع، استمرار تهريب السلاح والذخيرة من سورية إلى حزب الله. وعلى الرغم أنهم يؤكّدون مزاعمهم بشدة وعلى الدوام، يجيبهم اللبنانيون في شكل محتّم أنهم لم يلاحظوا على حدودهم ما من شأنه أن يستوجب اللوم. واعترف الجنرال ديكل بالانتهاكات الجوية اليومية لطيرانه، وبرّرها بغياب التقدّم في النقطتين المشار إليهما آنفًا، واللتين أضاف إليهما مسألة نزع سلاح حزب الله التي لا تزال عالقة. وهذه إخلالات بالقرار

١٧٠١ تبرر، من وجهة نظره، إخلالاتهم. ولا تنقص اللبنانيين أيضًا المطالب. فهم يطلبون دائمًا من محاوريهم خرائط تحدّد المناطق المزروعة بالألغام، وتلك التي ألقيت فيها القنابل العنقودية. ويقطّر لهم الجيش الإسرائيلي المعلومات في هذا الصدد بشحّ كبير ولا يعطيهم إياها كاملة أبدًا. ولن يعرفوا أبدًا هل استخدم الإسرائيليون أم لا الذخيرة المخصّبة باليورانيوم.

حلول شباط/فبراير ٢٠٠٧

مرّت الأيام مسرعة بين تطبيق القرار الجديد وضمان نهوض هيكلياتنا الجديدة، إضافة إلى مواجهة الأمور اليومية مع ما تحمله من توتّرات. أضف إلى ذلك أن واقع وجود ٣٠ دولة مساهمة يجرّ معه تزايدًا كبيرًا جدًا في الزيارات، من وزراء مكلفين الملف جاءوا لرؤية مواطنيهم، ومن سياسيين في عزّ الحملة الانتخابية ويحتاجون إلى الدعاية. وعلينا الظهور مع الجميع بمظهر لائق، لأن كلًّا منهم يمثّل دولة شاءت عن طيب خاطر الانخراط في تنفيذ الانتداب. وعلى الرغم من أنهم يستأهلون الإكرام فإنهم يأتون ويأخذون الكثير من وقتنا. ويتم بلوغ الذروة مع أعياد نهاية السنة، إذ يأتي الكثير من المسؤولين الذين من الطبيعي أن يشاركوا جنودهم هذه اللحظات. وعلينا أن نحاول التخفيف من النشاطات العملانية، على أن نحتفظ في الوقت نفسه بوضعية اليقظة والاستعداد. ويجب أيضًا، مع وجود هذا العدد الكبير من الشخصيات في المنطقة، اتخاذ إجراءات أمنية تتطلّب تعبئة المزيد من العناصر. وينتهي الأمر بالجميع، تساعدهم في ذلك الخبرة، إلى الحصول على خطّة مختصة بالشخصية المهمة جدًا، ومجرّبة جدًا لإدارة هذا النوع من الأوضاع، من دون التخلّي عن شيء من الأمور العملانية.

اقترب الاستحقاق النهائي المتعلّق بي بخطى واسعة، لكنني لا أحس متعة الاهتمام بذلك. وسيكون خليفتي جنرالًا إيطاليًا ترغب بلاده، كمرحلة أولى، في أن يتولّى مسؤولياته قبل وقت من انتهاء إقامتي الرسمية في أواسط شباط/فبراير. وافتُرض به الوصول، أوائل كانون الثاني/يناير، لكن مجيئه تأخّر مرّات عدّة. فهل تحث تعقيدات مهمته الدولة الطالبة على استعجال أقل؟ وأجريت في النهاية مراسم نقل السلطة في الثاني من شباط/فبراير في الناقورة بحضور سفراء كثر ومعظم السلطات المدنية والعسكرية التي عملت معها طوال ثلاثة أعوام، باستثناء البعثة الإسرائيلية! والسبب مفهوم! ومرّت الأمور بسرعة فائقة لم يتسنّ لي معها بعد الشعور بالحنين أو بالحزن. فهذا الانتقال المشهود يأتي في التسلسل الطبيعي للأمور. وقد تملّكني شعور أنني أعهد إلى العميد كلاوديو غرازيانو قوّة جديدة قادرة على إنجاز انتدابها. فنهوضها يكاد ينتهي، وها إنها قد سجّلت نجاحات فعلية، على الرغم من أن ثمة الكثير مما لا يزال يجب القيام به. قضينا أسبوعًا معًا، وهو الوقت الكافي لجولة سريعة على كل ما ينتظر القائد الجديد للقوة، ناهيك بما لا يمكن توقّعه. استأذنت بالانصراف وأنا أعرف أنه ليس وحده، بل يعضده أولئك الذين يعايشون المغامرة منذ بضعة أشهر. بيد أنني لا أتركهم حقًّا، لأنني سأطير إلى نيويورك حيث سأقيم حتى السابع عشر من شباط/فبراير، موعد انتهاء عقدي مع الأمم المتحدة، أي الوقت اللازم لوضع تقريري الخاص بنهاية المهمّة.

ها أنا أترك اليونيفيل التي تتمتع بكل أسباب بقائها جنوب لبنان. فالاختراقات التي عرفتْ كيف تدفع إلى تحقيقها لا يُستهان بها بالتأكيد.غير أن عليها مواصلة جهودها من دون استكانة لتتمكّن من طبيق انتدابها بكلّيته. وعليها أن تبقى صلبة، قويّة ومُصمّمة، ولكن لا يمكنها تحقيق تقدّم من دون تعاون الأفرقاء، ونياتهم الطيبة.

لا يزال مصير الجنديين الإسرائيليين المخطوفين مجهولًا. ويرفض حزب الله، بعناد، إعطاء أدنى إشارة من شأنها طمأنة أهاليهما وبلدهما. فهل تملك الحكومة اللبنانية، من جهتها، معلومات؟ ما من شيء أقل تأكيدًا، غير أن صمتها مطبق. ربّما لأنها لا تريد أن تعترف بأنها ليست سيّدة اللعبة، وبأنها في هذا الملف لا تزال تحت الرحمة الكاملة لأولئك الذين أركعوا الجيش الإسرائيلي. لم يحن بعد وقت مبادلة هذين السجينين بلبنانيين محتجزين في إسرائيل.

يطمح القرار الدولي إلى إحلال وقف للنار دائم بين إسرائيل ولبنان. ولا تزال الطريق طويلة جدًّا قبل الوصول إلى ذلك، ولا يوجد في الوقت الحاضر إلا وقف للأعمال العدوانية. وقد اتفق الجميع على عدم إدخال عناصر مسلّحة إلى المنطقة الواقعة بين الليطاني والخط الأزرق، وعلى عدم الشروع في عمل هجومي. وهو اتفاق بين الأطراف لا يحمل أي توقيع، بل ينطوي على قبول بالشروط التي اقترحها كوفي أنان فور نشر القرار ١٧٠١ وطُبّقت صباح الرابع عشر من آب/أغسطس. والوضع في مجمله هادئ، والأمن مستتب، لكنه يبقى هشًّا من دون أي قاعدة للتنسيق أو الإشراف، متفق عليها رسميًّا بين الأطراف. ويقع على عاتق اليونيفيل أن تخفّف من هذه النواقص في انتظار الأحسن. وقد تأمّن الحدّ الأدنى من خلال الارتباط المستمر والفوري، إن مع الإسرائيليين أو مع اللبنانيين.

يظهر أن حزب الله انسحب إلى شمال الليطاني، أو على الأقل لم يعد من مقاتلين مسلّحين في منطقة عملياتنا. غير أن ذلك لا يمنعه من أن يكون حاضرًا جدًّا. فهو ليس ميليشيا فحسب، بل حزب أيضًا، ولاعب مُعترف به في الحياة السياسية اللبنانية. ولديه نوّابه ووزراؤه، ويقود عناصره القرى ويديرونها وكذلك المدارس أو المستشفيات والمستوصفات. ولهذا الجزء الظاهر من جبل الجليد

اتصالاته مع القبعات الزرق، لكنها اتصالات محدودة بما هو ضروري محض. ثم إن المقاتلين هنا، وقد عادوا إلى منازلهم حيث أودعوا أسلحتهم الفردية. ولكن كيف يمكن تمييزهم من باقي مواطنيهم؟ ليس طبعًا بالزي الذي يرتدونه. وفي المقابل، سُحبت الغالبية الكبرى من الأسلحة الثقيلة والصواريخ والمقذوفات. وقد أكد حسن نصرالله ذلك في خطابه في ١٦ شباط/فبراير ٢٠٠٧: «نقل حزب الله عتاده إلى شمال منطقتنا، وهو يمتلك ٢٠ ألف صاروخ». وأوضح جيّدًا من جانب آخر أن لا نية لديه للمس باليونيفيل ما بقيت محدودة في منطقة عملياتها، ولا تهتم بما يحدث خارج نطاقها. وهو يتقن إتقانًا تامًا اللعب بحدود انتدابنا. ثم أن لديه اطلاعًا جيّدًا جدًّا على يوميات منطقتنا. فلديه فيها مئات المترصّدين ولديه مؤيدون يتابعون تطوّر انتشارنا ويصوّرونه. وفي وسعهم الإفادة عن أي حادث بفضل شبكة اتصالات متقدّمة جدًّا لا يمكن المس بها، لأنها متداخلة كلّيًا مع شبكة الهاتف الوطنية اللبنانية. كما أنهم يسهرون دائمًا على الخط الأزرق، بنيات ليست بالتأكيد مشابهة لنياتنا.

يحظر حزب الله في الوقت الراهن أي عمل ضد إسرائيل انطلاقًا من منطقة عملياتنا، لأنه يعطي الأولوية لأهداف وطنية محض: دعم المواقع التي اكتسبها على الرقعة السياسية اللبنانية، وبالتالي تحسينها. ولا يحتاج، لذلك، إلى أن يسبب لنفسه مشكلات إضافية مع اليونيفيل من خلال انتهاك شروط القرار في جنوب الليطاني. وهكذا قام تعايش تحرّكه مصالح مفهومة تمامًا. لكن إلى متى؟

أصبح لدينا الآن في منطقتنا، وقد أخذنا على عاتقنا جيب صور، مخيمات فلسطينية عدة. فعلى بعد ثلاثة كيلومترات جنوب المدينة، على الشاطئ، يقع مخيم الرشيدية بسكّانه الثلاثين ألفًا، أما البص (١٠ آلاف نسمة) ففي المدينة عند طرف الآثار الرائعة لصور القديمة. كذلك يمتد البرج الشمالي (٢٠ ألف

نسمة) عند مخرجها الشرقي. وجاءت موجات متعاقبة من اللاجئين الذين طُردوا من فلسطين للتكوّم فيها منذ العام ١٩٤٨. وأول المولودين هنا فاقوا الخمسين من العمر، ولم يعرفوا شيئًا آخر سوى ظروف الحياة غير المستقرّة، خاضعين للمساعدة الدولية من دون أي مستقبل مهني في لبنان الذي يرفض دمجهم، وبجنسية تُختصر بوضع غير المجنّس. وتشكّل هذه الغيتوهات قنابل موقوتة حقيقية تنمو فيها وتُجنّد كما يحلو لها تنظيمات متطرفة مثل الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، وفتح - الانتفاضة. ويمكن هذه المخيمات أن تشكل قواعد لفرق تقوم أحيانًا، من منطقتنا، بإطلاق صواريخ على القرى الإسرائيلية الواقعة تمامًا شمال الخط الأزرق وشرقه. وعلى رغم يقظتنا، وأيضًا يقظة حزب الله الذي لا مصلحة له قط في أن يؤدي مثل هذه الأفعال إلى تشكيك السكان بفاعلية سيطرته على المنطقة، يتمكنون من التسلّل إلى الأماكن التي لديهم فيها متواطئون، ويمكنهم منها إطلاق النار. ويبرهن الإسرائيليون ضبطًا كبيرًا للنفس ما لم تسقط لهم ضحايا، ولكن لا يمكن أبدًا التكهّن بردّ فعلهم. ويشكّل منع مثل هؤلاء العناصر المسلّحين من ضرب القرار تحدّيًا حقيقيًّا، ولا نملك نحن وجيراننا في الجيش اللبناني أكثر مما يلزم لمواجهتهم باستمرار.

وفي المقابل، تتواصل الخروق الجوية الإسرائيلية، على الرغم من الاحتجاجات المستمرة لممثلي الأمم المتحدة، على كل المستويات، وأحيانًا من أرفع المسؤولين الوطنيين. ولا تمتلك اليونيفيل الوسائل التقنية لمنعها، وكذلك الجيش اللبناني. وتحلّق الطائرات على علو مرتفع جدًّا بعيدًا عن مدى صاروخ محتمل، فيما تشكّل الطائرات التي تطير من دون طيّار أهدافًا صغيرة جدًّا على الرشاشات أو المدافع اللبنانية المضادة للطائرات. وتحاول تل أبيب تبرير هذا التحليق اليومي بالتقاعس اللبناني عن تنفيذ القرار. وهو في معظم الأحوال طيران استطلاع. لكن يمكنه أن يتحوّل أيضًا إلى الترويع والاستفزاز

بحسب الظروف، وعلى مواقع يتم دومًا اختيارها في عناية: خطاب لسلطة لبنانية، تاريخ مناسبة، موقع احتفال بذكرى ما.

لكن على الأرض يتم احترام الخط الأزرق، ويندر وقوع الأحداث. لكنها تقع. ولا يمكن للتعايش أن يتحسّن إلا مع مرور الوقت الطويل. ويحدث أن يصوّب الجنود الإسرائيليون على أحد جنود القبعات الزرق أو على مدني لبناني بنظام التسديد الذي يعمل بالليزر المركّب على سلاحهم، بحيث يجعلونه يدرك، من خلال هذه النقطة الحمراء المتنقلة على صدره، أنه فعلًا تحت مرمى نيرانهم. ويمكن من جهة أخرى أن يتعرّضوا بهذا الشكل لراعٍ لبناني يتقصّد رعاية خرافه جنوب الخط الأزرق، على أرض باتت ممنوعةً عنه مع أنها تخصّه. فقد أدى خط الأمم المتحدة إلى شطر ملكيته شطرين، وهو يريد تسجيل استيائه. لكنه يخاطر بأن يطلق عليه الإسرائيليون النار، الأمر الذي يمكن دومًا أن يولّد تصعيدًا جديدًا. ولا يزال المهرّبون يجتاحون المنطقة، ويحاولون مواصلة نشاطاتهم المحظورة عن جانبي السياج، أي عن جانبي الخط الأزرق القريب جدًّا: فحشيشة الكيف في البقاع ستشتري المهربين الدروز الإسرائيليين. وتسمح دورياتنا الكثيرة، إضافة إلى دوريات الجيش اللبناني بالحد من هذه النوع من الانحراف.

حاولنا تجسيد الخط الأزرق ميدانيًا لتفادي حوادث الاجتياز هذه. واقترحنا على البلدين نصب معالم مرتفعة مطلية بالأزرق سهلة الرؤية، بدءًا بالأماكن الأكثر حساسية، بحيث يُدرك كل امرئ جيّدًا أنه على وشك انتهاك خط محظور. لم يظهر لبنان حماسة تذكر لأنه يخشى أن يؤدي تجسيد هذا الحد الفاصل إلى ما يشبه الحدود. فمن شأن خلق سابقة كهذه أن يجعل تحقيق مطالبته بالأجزاء التي يعترض عليها أكثر صعوبة. والغجر هي المثال الأكثر شهرة، لكنه ليس الوحيد قط. ووافقت إسرائيل أيضًا على مبادرتنا ولكن

بفتور. وأدى وضع كل معلم إلى نقاشات طويلة. فالإسرائيليون واللبنانيون لا يمتلكون أنظمة الإحداثيات الجغرافية نفسها، وها إن اليونيفيل تأتي وتضيف إلى ذلك نظامها! ولكن تمت في النهاية الموافقة على المبدأ، وقد اتخذت المعالم الأولى أماكنها، ولم يبقَ سوى المثابرة.

تبقى هناك طبعًا أمور كثيرة يجب إنجازها، وسيكون لصديقي كلاوديو ما يشغله. سوى أنني أعتقد أننا تمكنّا في ستة أشهر فقط من وضع معالم تحسين ملموس في حالة المنطقة المنوطة بنا. وها إن الجيش اللبناني أصبح بالفعل هنا، واستعاد بوجوده الفاعل ثقة السكان. وقد نشر عناصره في ١٤٢ مركزًا، بينها ١١٤ نقطة تفتيش، أقيم ٤٥ منها على مقربة مباشرة من الخط الأزرق، في مواجهة الجيش الإسرائيلي. إلا أنه لم ينشر في النهاية إلا ثمانية آلاف عنصر من أصل ١٥ ألفًا تم التفكير فيهم في البداية، وهو لا يستطيع أفضل من ذلك، على رغم حسن نياته الكامل. إنه جيش صغير من نحو ستين ألف رجل يكرّس في الوقت نفسه ثمانية آلاف عنصر لمراقبة حدوده مع سورية. وهو، إلى ذلك، يشارك في أمن البلاد الداخلي وهو الذي يدأب دومًا على العمل في حال الاضطرابات. لكنه يتمكن من الاضطلاع بالأمور وهو نشط حتى في منطقتنا. فدورياته متكرّرة، في النهار كما في الليل، ولا تبقى طلباتنا بالتدخل أبدًا من دون جواب. أقمنا تعاونًا وثيقًا، وهو دليل ثقة أخذت تؤتي ثمارها. وتعلّمنا التعرّف بشكل أفضل بعضنا إلى بعض بفضل ضباط الجيش المفصولين إلى المقر العام في الناقورة، وضباط الارتباط في كتائبنا، ودورات التعليم والتدريب التي نقترحها، بل نحن بدأنا حتى بالقيام بعمليات مشتركة. وعندما نكتشف مخابئ أسلحة أو ذخائر، وفي حالات أكثر ندرة أشخاصًا مسلحين، ننادي الجنود اللبنانيين الذين يتولّون على الفور مهمة استعادة المعدات أو تجريد الأفراد السلاح. ولا يمر ذلك أحيانًا من دون مخاطر لأننا ندوس الآن في مجال لا تريد «المقاومة» أن ينافسها فيه أحد. ففي الخامس

من كانون الأول/ديسمبر، اكتشفت الكتيبة الاسبانية مخزن صواريخ وقنابل هاون مموّهًا جيدًا في قلب الطبيعة بنطقة كفرشوبا. وبما أن الليل هبط سريعًا، انسحبت الوحدة، على أن تعود إلى المكان مع بزوغ الفجر. وتم إبلاغ الجيش اللبناني. وفي الصباح التالي، وفيما اقترب من قاموا بالاكتشاف في المساء الفائت من المخبأ، عثروا في الطرق المؤدية إلى المكان على خمسة أفخاخ موصولة بقنابل يدوية وألغام. وتمكنوا بحرص شديد من تعطيلها. لقد عاد أصحاب الذخائر ليلًا بهدف واضح هو التسبب بخسائر في صفوف هؤلاء الجنود الفضوليين أكثر مما يجب.

ارتفع عددنا الآن من ألفي عسكري في تموز/يوليو إلى ١٢٤٥٠ بينهم ١٧٥٠ بحارًا في قوة التدخل البحرية. وقامت هذه القوة البحرية، منذ إنشائها، بالتدقيق في أكثر من ثلاثة آلاف سفينة بينها عشر مشبوهة سُلّمت إلى السلطات اللبنانية لتفتيشها. ولم تجد فيها إلا سجائر مهرّبة. وتدخّلت سفن العلم الأزرق كذلك في حالَتيْ غرق وتمكنت من إنقاذ حياة ١٨ بحّارًا. وأبقينا على مراقبي الهدنة الواحد والخمسين الذين يستمرون في مدِنا بدعم أساس. وارتفع عدد العناصر المدنيين في شكل كبير: ٤٧٣ شخصًا بينهم ٣١٠ موظفين لبنانيين من ضمن السقف المسموح به وهو ١٠٧٨، بينهم ٦٦٨ لبنانيًا. وسوف ترتفع أعدادهم أيضًا، إذ تضاعفت عمليات البناء. ولدينا الآن ٦٣ معسكرًا و١٥٠ مركز مراقبة. ونسيّر ٤٠٠ دورية في الساعات الأربع والعشرين، مما يعني وجود وحدات تتحرك بشكل دائم على الأرض.

أعيد تنظيم مجمل القوة وارتفع بشكل شكل محسوس عدد أفراد هيئة أركانها. ووُسعت كفاياتها، ولم تعد تقتصر على تنفيذ الأمور اليومية. فقد بات في وسعها التخطيط لعملها على المدى المتوسط. وأصبح بإمكانها الآن تنفيذ انتدابنا بشكل أكثر شمولًا، بفضل تعاضد أقوى بين عسكريي الأمم المتحدة

ومدنييها. يبقى، طبعًا، أن الجانب العسكري هو الطاغي، إلا أن الجانب الإنساني والمساعدة المقدّمة إلى السكان المدنيين عرفا تطوّرًا لا سابق له، في جزء كبير منه، بفعل زيادة عدد البلدان المشاركة في القوات، مما يضاعف المبادرات التي تصب في مصلحة سكان المنطقة.

سوى أننا مدركون تمامًا أن مثل هذا الوجود يثقل على السكّان. فالتوجّس من الوافد الجديد، والإزعاج الذي يسبّبه جار مزعج وضاجّ، وبعض الأضرار المادية التي يمكن أن تنشأ، كلها أسباب تُعطى لمن ينزعجون منّا ليحّرضوا، سرًّا، السكان للاعتراض على وجودنا. وتتعرّض الدوريات المؤللة أحيانًا للرشق بالحجارة. وهذه الظاهرة، على ندرتها، يكمن ورائها أولاد بصورة عامة. وقد يأتي مختار محتجًا لأن ضجيج الدبابات التي تجتاز قريته ليلًا يوقظ الأطفال ويتسبّب في بكائهم. وآخر تضررت حافة رصيفه من جراء مرور جنزير أخرق، أو يأتي آخر انهار مجرى مائه تحت ثقل إحدى المدرعات ليطالب بتعويض فوري. ويرفض في الغالب تدخّل فريق التصليحات العائد إلينا، ويصرّ، من دون نجاح، على تعويض مالي عدًّا ونقدًا. ونعيد البناء. وقع حادث ذو أهمية، لكنه ولحسن الحظ شبه فريد. فقد عارضت سلطات بنت جبيل في أحد الأيام، معارضة قاطعة، أن يفتح الفريق الفرنسي مستوصفه المتجوّل أمام القرويين. يرحل أطباؤنا مستائين الوقت الكافي لتتم تسوية هذا التصرّف السيئ، مع تقديم عضو البلدية الفظ اعتذاره. ويعود الأطباء بعد مدة قصيرة ليحظوا باستقبال حار خاص، وينتظرهم عدد كبير من المرضى!

يطرح هذا النوع من الأحداث مشكلات العمل الإنساني الذي يشكّل جزءًا مهمًّا من نشاطاتنا، وهو طريقة جيّدة «لاستمالة بالقلوب». وتمتلك اليونيفيل في موازنتها ما يمكّنها من تحقيق «مشروعات سريعة الوقع» (Quick impact project). ويقوم مكتب الشؤون المدنية بتحديد هذه الورش الهادفة إلى

تحسين حياة الجماعات، وتأمين متابعة تنفيذها: بناء خزّان لجمع مياه المطر، ترميم مدرسة، شق طريق إلى قرية ما. ثم إن للبلدان المساهمة برامجها الخاصة التي تموّلها. وتحاول قيادة القوة تنسيق أعمالها، لكن فاعليتها نسبيّة جدًّا لأنها خاضعة لتفهّم كل دولة وحسن نيّتها. فالموازنة الوطنية تعطي استقلالية تامة في اختيار الأهداف، مما يجعل التلاحم العام يعاني أحيانًا، بما في ذلك مستوى الخطاب السياسي الذي لم يعد خطاب الأمم المتحدة. صحيح أن كل تلك المساعدات تحظى بالترحيب، ولكن يجب أن تُقدّم في كثير من التبصّر. فيجب أولًا ألا يطرح الواحد نفسه منافسًا للاعب اجتماعي آخر، هو هذه المرّة لبناني، وإلا خاطر بإفقاده ماء الوجه. وقد شعرنا ذلك، بوضوح، مع حزب الله خصوصًا. وما حادث مستوصف بنت جبيل الذي سبق ذكره إلا أحد المظاهر. فنحن من خلال أعمالنا نقلّل من اعتماد المحليين على تنظيمات حزب الله الاجتماعية ويمكننا بذلك أن نضر بسلطته وبغلبته في المنطقة. وعلى هذا الأساس نعمل، عمومًا، جاهدين على التصرّف كمكمّلين للمبادرات المحلّية. وعلينا، كذلك، تفادي الحلول محل المسؤولين الوطنيين الذين قد يتجهون إلى عدم المبالاة بمنطقة نقدّم إليها الكثير. وكلما قلّ وجودهم ونشاطهم، صعب علينا تأمين العودة إلى وضع طبيعي يتم الانخراط فيه على مستوى الدولة.

ويشكّل نزع الألغام أيضًا جزءًا من مهماتنا الإنسانية. ونحن نكرّس له أقصى الإمكانات بالارتباط مع أجهزة دولية متخصصة أخرى إضافة إلى اللاعبين اللبنانيين. فإضافة إلى الألغام المتروكة خلال مختلف النزاعات، أثرى الإسرائيليون للتو حقول الموت هذه بنحو مليون قنبلة عنقودية على مساحة ٣٤ مليون متر مربع. ولم يتم تطهير سوى عشرة في المئة فقط من هذه المساحة، وتفجير ١٠٣ آلاف قنبلة عنقودية. لكن من المحتّم مواصلة الجهد المبذول من دون هوادة، لأن الخسائر تتراكم. فقد سقط حتى الآن ٢٢ قتيلًا و١٥٩ جريحًا بين المدنيين، قسم كبير منهم من الأولاد؛ كذلك جُرح أربعة خبراء نزع ألغام

مدنيين، وخمسة غيرهم من الكتيبتين البلجيكية والصينية. وطالبنا إسرائيل، من دون توقّف، بالمزيد من الدقة في شأن تحديد أماكن القصف وخرائط لتحديد أفضل لأماكن الخطر. غير أننا اصطدمنا لسوء الحظ بجدار من الصمت بعد القليل من فضلات المعلومات الأولية.

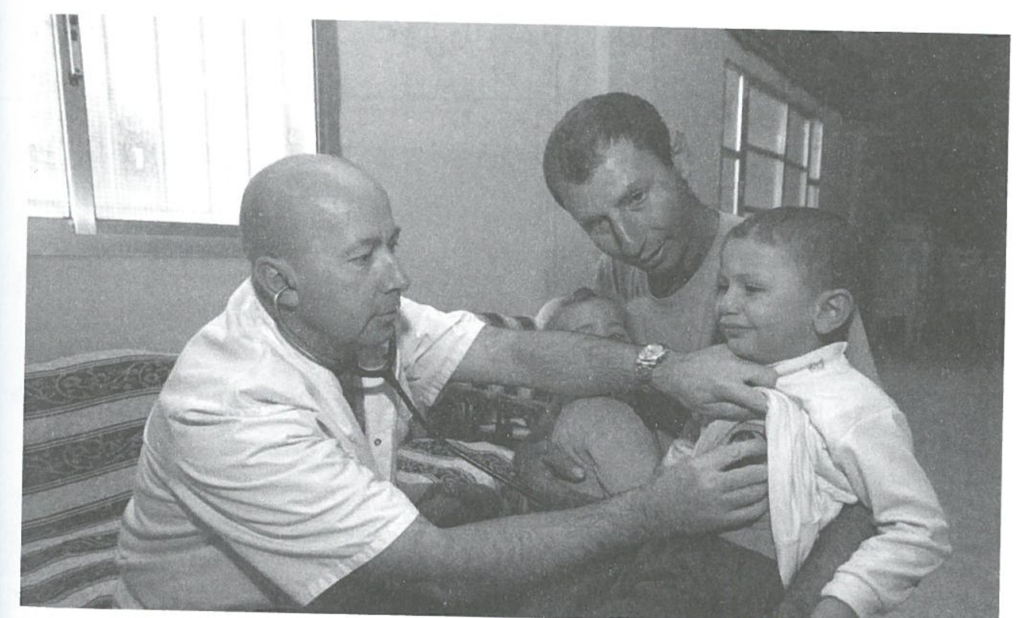
وأنا في الثاني من شباط/فبراير ٢٠٠٧ هذا لا أغادر معسكر الناقورة مرتاح البال. وسوف تراودني الذكريات في ما بعد. غير أنني في هذه اللحظة أحس، خصوصًا، بثقل أوقات التوتّر التي أعيش، والتجربة المكتسبة، وواقع أنني أجد نفسي فجأة وحدي بعدما كنت محاطًا بفريق حقيقي. فالروابط التي جمعتنا تذهب إلى ما هو أبعد من الاستعداد الدائم واحترام الرتب. إنها حصيلة الإخلاص الحقيقي للمهمة المشتركة، والفكرة السامية التي تجمعنا حول الانتداب الموكل إلينا، والالتزام الذي لا لبس فيه في مواجهة الصعوبات. فبرج بابلنا، المؤلف من مدنيين وعسكريين وافدين من بلدان كثيرة، يواصل في إصرار، وبتحقيق نجاحات، المهمة التي تبنَّتها الأمم المتحدة في هذه المنطقة المضطربة. ولا يمكنني أن أنسى أولئك الذين، منذ البداية، بذلوا حياتهم دفاعًا عن طموحات السلام.



٩ آب/أغسطس ٢٠٠٦ – تبنين – مكتب النقيب قائد كتيبة الصيانة البولندية وقد خرّبته إحدى القذائف.



١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٦ – الناقورة – هبوط المروحية الروسية «أم آي ٨» الوافدة من قبرص.



جولة تفقدية طبية مجانية لأحد أطباء الكتيبة ٤٢٠.

الفصل السابع

اليونيفيل في اختبار الزمن

هل المهمّة رهينة المتنازعين؟

أنشئت القوة في لبنان بصفتها مهمّة موقتة، كما يشير اسمها «قوة الأمم المتحدة الموقتة في جنوب لبنان». وقد أقيمت عام ١٩٧٨ بسرعة تطوّرت من ثم عام ٢٠٠٦ في العمق تحت ضغط الأحداث. غير أن موقتها يدوم الآن منذ أكثر من ثلاثين عامًا، ومن المجازفة القول بموعد لانسحابها. وقد سهل إنشاؤها نسبيًا، على غرار معظم مهمات الأمم المتحدة، غير أن تسليم الأمور الآن إلى السلطات المحلّية يخلق إشكالية.

يتعلّق الهدف النهائي بأن يتمكن اللبنانيون من إعادة بسط سيادتهم الكاملة على هذا الجزء الدامي من أرضهم، مع وجود علاقات هادئة وأكثر وثوقًا، في الوقت نفسه، تستند إلى وقف دائم لإطلاق النار، مع جارهم الإسرائيلي. لكنه لا يزال يبدو هدفًا بعيد المنال، بسبب الظروف الإقليمية ورغبة الفريقين الملحوظة، بدرجة أو أخرى، في تطبيع العلاقات بينهما؛ وبسبب الحدود الخاصة بالمهمة والمتعلقة بتنفيذ انتدابها. وأصبحت اليونيفيل لاعبًا معروفًا جدًا، وقد حُددت قيودها ونقاط ضعفها، بوضوح على مرّ العقود، ويعرف شريكاها استيعابها، بل استخدامها.

تعوّدت، عند الحديث عن مكانتنا في قلب الحياة السياسية الإقليمية، أن أقول لمحدّثيَّ اللبنانيين أننا جزء من العائلة ومن المشهد. ولم يفعلوا قط ما من

شأنه تكذيبي. بل إن الجيل الشاب الذي يعيش في البلاد لم يعرف قط أرض موطنه من دون الوجود الدولي. ويبدو أن الجميع أَلِفوه ويتعايشون معه. وينتفع السكان المحليون منه عبر المساعدة الإنسانية التي تقدّمها الدول المساهمة إلى المنطقة؛ وكذلك عبر الانتشار العسكري الذي يحدّ، بشكل محسوس، من فلتان الأمن اليومي إن في داخل منطقة العمليات وإن في مواجهة اجتياز الوحدات الإسرائيلية المفاجئ للخط الأزرق.

بيد أن هذا الوجود الدائم قد يبدو، من جهة أخرى، مزعجًا للمخالفين المحتملين. غير أنهم اكتشفوا مع الوقت الخدع والوسائل للالتفاف على العقبات الموضوعة أمام ارتكاباتهم. فالتهريب مستمر عبر الخط الأزرق، وخصوصًا المخدرات من لبنان إلى إسرائيل، ولو تم الحد منه. ويحدث أحيانًا، عندما يشعر مخبرون لبنانيون يعلمون لمصلحة إسرائيل بالخطر، أن يتمكنوا أيضًا من بلوغ أرض من يعملون لحسابهم مع عائلاتهم وحاجياتهم.

وفي الحصيلة، فإن وجود القوة وعملها أكثر إفادة بكثير من ضررها؛ ويدرك اللبنانيون ذلك جيّدًا. ويوم تنسحب لن يُعاد النظر في مستوى الوضع الأمني، بل وإن جزءًا كاملًا من الاقتصاد المحلي سيختفي. وسوف تضطر المبادرات الحكومية إلى إعادة إحيائه. ويمكن تقدير مساهمة اليونيفيل السنوية في النسيج الاقتصادي المناطقي بما لا يقل عن ٧٠ مليون دولار، من خلال تأمين الوظائف والاتفاقات المعقودة مع المؤسسات والمزوّدين المحليين، والمنح المقدمة في مجالي الدراسة والصحة خصوصًا، إضافة إلى أعمال البنى التحتية. ولا تبدو الدولة اللبنانية مستعدّة لرفع التحدّي؛ ولها في النهاية مصلحة كبرى في استمرار وجود القوة.

بيد أن هذه الأخيرة في نزاع بين خيار الإقامة الموقتة، غير المستقرّة نسبيًا، وخيار الاستقرار بشكل شبه نهائي، وبالتالي أكثر راحة. وإذا لم يكن بشكل

نهائي، فأقله أن تقدر على الاستمرار في أفضل الظروف الممكنة. وهذه المعضلة ناشئة على مستوى الهيكليات التي على القوة أن تبنيها، وعدد المدنيين الذين يجب توظيفهم. فكيف الوصول إلى التوازن الصحيح بين الضروري والفائض المرتفع الثمن أحيانًا، خصوصًا أن لدى اللوجستيين النيويوركيين ميلًا ملحوظًا إلى السخاء وهم يستذوقون الحداثة؟. وينطلق هذا بالتأكيد من شعور جيّد. لكن يجب أحيانًا معرفة كبح هذا النوع من النزوات التي قد تكون مكلفة. وفي الوقت الراهن بدأ العمل، على سبيل المثال، في شق أجزاء من طريق يحاذي الخط الأزرق كاملًا من الجهة اللبنانية. وهو ما سيخفض، بشكل محسوس، مدة التدخّل عند وقوع حادث ما. وستمتد هذه الورشة الكبرى على مدى سنوات كثيرة وليس للبنان مصلحة في انسحاب اليونيفيل قبل الانتهاء منها لأن وحدات هندسة تابعة للقوة تشارك فيها.

ولمفهوم المساعدة، كما يجد ترجمته في روحية الانتداب، تأثيرات فاسدة أخرى. إذ يبدو أن لبنان لا يمتلك الوسائل الضرورية لتطبيق شروط القرار. فجيشه يفتقر إلى التجهيزات الحديثة ويستند إلى موازنة محدودة. ولا يمكن محاربة نفوذ حدوده إلا بتركيز معدّات جديدة، وعناصر أفضل تدريبًا، ضمن جهاز جمارك أكثر فاعلية. وتحتاج قوى الأمن الداخلي كذلك إلى التحديث. والبلاد تدرك هذا كلّه وتعترف بضعفها، بل هي تجهر به بصوت مرتفع من أجل الحصول على الدعم من كل حدب وصوب. فقد حصلت البحرية على سفن قدّمتها بلدان عدّة، بينها فرنسا وقطر. وخصّصت الولايات المتحدة ٢٧٠ مليون دولار للجيش عام ٢٠٠٧، عدا الآليات الخفيفة التي زودت بها، وانخرطت ألمانيا في برنامج لتحسين مراقبة الحدود. وهناك مساعدات كثيرة أخرى في الانتظار. وكثيرة هي البلدان التي تستجيب للابتزاز الهادىء للحكومات المحلّية، أملًا منها في أن تراها وقد أمسكت قدرها بيديها. وتعرف هذه الأخيرة كيف تظهر راغبة في التقدّم ومنفتحة عليه، لكنها، وبلا حياء، تشترط انخراطها في جهود تعاون بلد ثالث.

إذًا، الأسباب اللبنانية لتحاشي رحيل القبعات الزرق متعدّدة، والحماية التي يمكن أن توفّرها البعثة في مواجهة الاعتداءات الإسرائيلية المحتملة أبعد من أن تكون سببها الوحيد. بشكل معاكس، تتهم إسرائيل اليونيفيل بشكل منتظم بأنها موجودة في جنوب لبنان لحماية حزب الله، وكثيرًا ما تكون القوة عرضة لانتقاداتها، بل وحتى تهجماتها الكلامية أو المكتوبة. وهي كثيرًا ما تفعل ذلك عن سوء نيّة لهدف أساس هو الدفاع عن سياستها الإقليمية. غير أن هذا البلد، بما يتوافر له من إمكانات بصفته عضوًا في الأمم المتحدة، لم يعارض قط التجديد لانتداب القوة. ويعني هذا جيّدًا أن هذا الوجود الدولي عند حدوده مفيد له، وأنه هو أيضًا لا يرغب في رؤيتها تختفي. وسواء شاءت إسرائيل ذلك أم أبت، فإن اليونيفيل تمسك الآن بهذه المنطقة الأمنية الخاصة التي أراد الجيش الإسرائيلي إقامتها، صيف ٢٠٠٦، بل أكثر منها. وبالتالي فإن إسرائيل لا تريد إقفال قناة الاتصال الوحيدة القائمة مع بيروت من خلال القوة الدولية. وربّما كانت هناك بالتأكيد قنوات أخرى سرّية جدًّا، لكن هذه القناة تسمح بالتحدّث بشكل طارئ ومحاولة تفادي التصعيد في الأزمات.

وليس تحقيق وقف دائم للنار بين المتنازعين إلا واحدًا من الجوانب المتعددة للتسوية الشاملة للأزمة التي تجتاح الشرق الأوسط. ولا يمكن فصل الحالة اللبنانية الخاصة عن البحث عن وضع جديد للأراضي التي تحتلها إسرائيل، وعن اتفاق سلام بين إسرائيل وسورية، وعن حلّ لمنفى اللاجئين الفلسطينيين. فهل تشكل مشكلة جنوب لبنان أولوية؟ هذا غير مؤكّد، ولا يوجد إلحاح في دفع الأمور نحو التطوّر ما دامت اليونيفيل تحافظ على مستوى المواجهة ضمن حدود مقبولة. فالتقدم، عندما يحدث، يحدث ببطء شديد. ويمكن لفورة مفاجئة في العنف،أن تعيد النظر فيه. وبالتالي يجد التنفيذ النهائي لبنود الانتداب نفسه وقد تأخّر بالقدر نفسه. وبما أن القوة ليست سيّدة صيرورتها في المنطقة، فمن المؤكد أنها ستبقى هنا سنوات طويلة.

حدود الممارسة

مهما بلغت النيات الطيبة لمنتديات الأمم المتحدة، والجهود المبذولة على الأرض، والبحث عن مبادرات جديدة للتقدم في اتجاه الهدف النهائي، فإن اليونيفيل أسيرة حدودها الذاتية، أي تلك التي حدّدها لها انتدابها.

وهي جغرافيّة في الأساس من خلال منطقة عمل حُدّدت بعناية: نطاق برّي يمتد بين الليطاني والخط الأزرق. ولكن يجب أن يُضاف إليه مجال بحري واسع يصل حتى قبرص، ويجيز مراقبة فاعلة للحركة قبالة الشواطئ. إلا أن هذا لا يسمح بمراعاة مجال الحدود البرّية للبلاد الذي تطلّب الكثير من العمل. وسيتوجب تعديل منطقة العمليات إذا طلب لبنان مساعدة في هذا المجال، كما ينص القرار. لكن هذا سيلقى معارضة من الكثيرين وبالأخص حزب الله. والواضح أن التنفيذ الفاعل للانتداب من شأنه أن يتطلّب توسيع هذه المنطقة لتشمل الأراضي اللبنانية كاملة. وقد بلغنا إذًا تسوية تعطي حزب الله الحرّية الكاملة شمال الليطاني. وأقام فيها، منذ تموز/يوليو ٢٠٠٦ خط دفاعه الأول بشرائه، أحيانًا، الأراضي اللازمة لمنشآته الجديدة. وأعاد أيضًا بناء ترسانته من الصواريخ والمقذوفات التي، وبحسب الإسرائيليين، تضاعفت عن تلك التي امتلكها في تموز/يوليو ٢٠٠٦. وقد يمتلك الآن ٤٠ ألفًا، تُضاف إليها معدّات أكثر فاعلية، تسمح له بتعويض المسافة الإضافية ليتمكن اليوم من أن يستهدف إسرائيل. فقطاع الأرض الذي تحتلّه اليونيفيل يفرض عليه في الحقيقة أن يطلق النار من مسافة أبعد، لكنه يمتلك في شكل كبير الوسائل لذلك. فهو لم يستعد فحسب قدراته العسكرية، بل حسّنها من دون لا رادع ولا وازع. فاليونيفيل لا تمتلك الحق في العمل خارج منطقة عملياتها، رغم أنها شهدت على أبوابها مناورة كبرى لحزب الله عام ٢٠٠٨، شملت استخدام كل وسائلها التي نشرها في أنحاء البلاد. فما من خلاص خارج الانتداب! وحسن نصرالله

فهم الأمر تمامًا ويلعبه بمهارة فائقة. فهو يفعل أي شيء لعدم الدخول في نزاع مع القبّعات الزرق ما دام هؤلاء يطلقون يديه في خارج مجالهم.

يشكّل الخط الأزرق الذي يفصل بين لبنان وإسرائيل، في الوقت الراهن، مرجعية حدود، غير أنه يبقى في ذهن الأطراف موقتًا. وبالتالي فإن مشروعيته مهتزّة بشكل كبير. فهو يحتوي مناطق كثيرة متنازعًا عليها بين هذا الفريق وذاك، وقضية الغجر هي الأكثر شهرة بينها. تقع هذه القرية على جانبي الخط، مع جزء منها، إذًا، في لبنان، ويسكنها علويون، تفرّعوا من الشيعة. يشكّل العلويون ١٠٪ من شعب سورية التي يحملون هويتها. وصكوك ملكيتهم مسجّلة من الأساس في سورية. وهم تابعون للجولان السوري الذي احتلته إسرائيل عام ١٩٦٧ ثم ضمّته من طرف واحد عام ١٩٨١. وأصبحوا مذذاك، على غرار سكان هذه المنطقة، يحملون أيضًا الجنسية الإسرائيلية، وهو ما يزيد في تعقيد الوضع. وتحجّجت إسرائيل بذلك لعزل منطقة البلدة الموجودة شمال الخط الأزرق كاملة، ومنع اللبنانيين من الوصول إليها، في تناقض كامل مع بنود القرار ١٧٠١. وحاولت اللقاءات الثلاثية، منذ بدايتها، العمل على عقد اتفاق لتنظيم هذا الوضع تحت إشراف اليونيفيل. وقبل الطرفان الإجراءات المطروحة، رغم أنها لم تُطبّق بعد. فالأمر يتطلّب أمورًا صغيرة قبل الوصول إلى اتفاق. غير أن الغالبية العظمى من سكان القرية لا ترغب في رؤية الأمور وقد تغيّرت. فهم في الحقيقة يستفيدون، بصفتهم مواطنين إسرائيليين، من كل المنافع الاجتماعية التي يؤمنها لهم هذا الوضع. ولا يميل المقيمون في الجزء الشمالي إلى الخضوع للنظام اللبناني الأقل استقرارًا، وبالأخص دفعهم الضرائب له. ثم إن الكثيرين منهم يعملون في إسرائيل ويتلقون أجورًا أفضل. والبلدة أيضًا مكان نشط جدًّا للتهريب يأتي إليه التجار الدروز ليتموّنوا بالمخدرات. وهذه أسباب كثيرة تدفع إلى استمرار الوضع على ما هو عليه، غير أنه محفوف بالخطر.

ويعبر الخط الأزرق الحقول في أماكن أخرى. بيد أن المزارعين اللبنانيين يدأبون على الذهاب للعمل في أراضيهم التي أصبحت الآن في المقلب الإسرائيلي. بل يوجد أيضًا مقام الشيخ عباد الذي يجلّه في الوقت نفسه المسلمون واليهود، وقد قطعه الخط الأزرق في الوسط. أضف إلى ذلك أن السياج الذي أقامه الإسرائيليون يتبع تمامًا الخط الذي رسمته الأمم المتحدة! ومن غير المتوقّع أن يتوقف الجدل قبل التمكن من الوصول إلى ترتيبات ما. وعلى الرغم وجود حالات تتناقض أحيانًا مع المنطق السليم، لا يسع اليونيفيل إلا أن تتمسّك بما هو مسجّل على الخريطة.

وكما أسلفنا، فإن اليونيفيل عاجزة من دون النيّات الطيبة للمتنازعين. وهي تحت الفصل السادس، رغم قواعد الاشتباك المتشدّدة. ولا يسعها تقريبًا فرض أي شيء كما أنها تضطر إلى دعوة هذا الطرف وذاك إلى التعاون.

ويتعلّق الموقف الإسرائيلي بالسعي إلى التطبيق الكامل للقرار ١٧٠١، وهو يُترجم بسياسة واحدة بواحدة. فإذا تبيّن تحقيق تقدّم، يعمد الإسرائيليون إلى موازنة الأمر، ولكن ليس كثيرًا قط. فالمناطق التي ألقى فيها الجيش الإسرائيلي القنابل العنقودية، صيف العام ٢٠٠٦ ليست كلها معروفة ومحدّدة، ويستمر الإسرائيليون في إعطاء المعلومات بالقطّارة. وينطبق الأمر نفسه على المناطق المزروعة بالألغام حتى ما قبل العام ٢٠٠٦. ومسألة الغجر، كما رأينا سابقًا، لم تُحل بعد، لكن الطرف الإسرائيلي يبقى منفتحًا على كل نقاش! ما من عرقلة قط، ولكن على المرء أن يتعلّم الانتظار.

بيد أن عمل اليونيفيل يتوقّف أساسًا على العلاقات التي تقيمها مع لبنان. فهو «البلد المضيف» وأيضًا البلد صاحب العلاقة الأكبر بالقرار الدولي. فهو الذي عليه إنجاز العدد الأكبر من المهمات الناتجة خصوصًا عن مفهوم المساعدة. ساعد نفسك تساعدك اليونيفيل. وعليه إذًا، في المطلق، أن يبرهن

المخيّلة والتصميم والالتزام التام. ولكن يجب الاعتراف بأن لديه أولويات أخرى. فقد اضطرّ إلى إعادة إطلاق الإعمار الذي قطعه نزاع العام ٢٠٠٦، وهو يواجه في الوقت نفسه التحديات التقليدية، الداخلية منها والإقليمية.

كان المُحاور في السلطات العليا في لبنان المفضّل لدى قيادة القوة هو العميد المكلّف التنسيق بين الحكومة اللبنانية واليونيفيل. غير أن لقائد القوة وصولًا مباشرًا إلى رئيس الحكومة ورئيس مجلس النواب ووزيري الخارجية والدفاع، بل إلى رئيس الجمهورية. وتحظى حرّية التواصل هذه بالتقدير الشديد، لكنها ولسوء الحظ متدنية في الغالب في الأفعال، بسبب التقلّبات التي تشهدها الحياة السياسية المحلّية. وسبق انتخاب الرئيس الحالي العماد ميشال سليمان فراغ في موقعه استمر بضعة أشهر، كانت سبقته أيضًا ثلاث سنوات فقد فيها سلفه، العماد إميل لحود، كل سلطة عقب التمديد الذي فرضته سوريا وعدّه المجتمع الدولي غير دستوري. ولم يعد أهلًا للتعامل معه. ومرّات عدّة، عد وزراء على خلاف مع الحكومة، أعضاء في حزب الله أو مقربين جدًّا منه، أنفسهم مستقيلين وكفّوا عن أي نشاط مفضّلين ملازمة منازلهم. وفي مدة أقرب تطلّب الأمر مرور أسابيع عدّة قبل التوصّل إلى تشكيل حكومة وحدة وطنية. وأدّى كل هذا الغياب إلى التراجع في متابعة الملفات، واتخاذ القرارات، وتأثّرت القدرة على التحرّك تأثّرًا كبيرًا. وغاب المحاورون المسؤولون مما هدد بإضعاف كبير للزخم الذي بثّه القرار ١٧٠١. فالأمر يتطلّب الإيحاء ومتابعة الانطلاق واستثارة المبادرة.

وتبيّن من ذلك أن الهيكلية الرسمية الوحيدة التي عرفت نوعًا من أنواع الاستمرار والتي يمكن الاعتماد عليها بشكل مستمر هي الجيش. ولكن لا يمكن لجهوزيته واحترافه أن يكفيا لأنه هو نفسه خاضع للإرادة السياسية التي غالبًا ما تتأخر في التعبير عن نفسها أو الالتزام. ومع ذلك، يشكّل الدعامة

المؤسساتية الوحيدة التي يمكن، حقيقة، الاعتماد عليها. فهو الضامن لاستقرار البلاد كما برهن ذلك بشجاعة عام ٢٠٠٧، عندما اضطر إلى إخضاع سلفيي[٣٤] مخيّم نهر البارد الفلسطيني في شمال طرابلس. وخاض صراعًا استمرّ ثلاثة أشهر خسر فيه ١٦٣ رجلًا، لكنه خرج منه منتصرًا. ودعمه ومساعدته في جهوده أساسيان للتحديث والتطوّر. وعليه أن يتمكن في يوم من الأيام من الحلول محل اليونيفيل التي تعمل كل ما في وسعها لتحضيره من أجل هذا الأمر، رغم أن الموعد النهائي لذلك لا يزال بعيدًا. ومن الضروري المثابرة على هذه الطريق، غير أن ذلك يتطلّب التزامًا حقيقيًّا ومستمرًّا من الشركاء اللبنانيين.

وتريد إسرائيل، هي أيضًا، جيشًا لبنانيًّا فاعلًا، لكنها قلقة في الوقت نفسه من نهوضه الذي يمكن أن يشكّل مع الوقت خطرًا. وهي تتمنّى، في النهاية، وجود حرّاس حدود جيّدين عند طرفها الشمالي، ولكن مع قدرات هجومية، بل وحتى دفاعية، محدودة.

وتعرف القوة الدولية خلافات في قلب تنظيمها نفسه، واختلافات في التقدير من جانب الدول المساهمة لجهة الطريق التي يجب فيها تنفيذ الانتداب. وهي غير محسوسة جدًّا في الحياة اليومية، ولكن يمكنها أن تتفاقم في حال الأزمة. وأحد الأمثلة على ذلك هو تفسير قواعد الاشتباك. ولنفترض أن وحدة دبّابات إسرائيلية اجتازت الخط الأزرق للتو، ففي إمكان اليونيفيل مواجهتها، في آخر حدّ، باستخدام أسلحتها بما في ذلك مدرعاتها ومدفعيتها. وعندما يُثار مثل هذا الاحتمال مع بعض المسؤولين الإسرائيليين، يعربون عن اقتناعهم بأن دولًا مثل فرنسا أو إيطاليا لن تخاطر بمثل هذا التصعيد. غير أن ما من شيء مؤكّد إلى هذا الحد. ومن غير المحتمل أن نستبعد كلّيًا احتمال استخدام

(٣٤) مسلمون سنّة يدعون إلى العودة إلى أصول الإسلام.

بلد مساهم حق النقض لأن هذا الرهان كثير المخاطر. وها إن بعض القوات تخضعها حكوماتها، في الأيام العادية، لقيود في تنفيذ مهماتها. وتقبل الأمم المتحدة بهذه التحذيرات المُعلنة والدائمة، وإلا فإنها ستخسر أحد المشاركين في المهمة. فلبنان بلد لا يزال يُطبّق حكم الإعدام. والكثير من البلدان التي ألغت هذه العقوبة وتساهم ببعض القوات وقّعت على الميثاق الدولي المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية أو أبرمت الميثاق الأوروبي لحقوق الإنسان. وبالتالي فإن الكثير منها يرفض أن يسلّم إلى السلطات اللبنانية مشبوهين ممن قد يُحكم عليهم بالإعدام. فاللبنانيون الذين ذهبوا مع الجيش الإسرائيلي عام ٢٠٠٠ ويتقدّمون الآن من معبر رأس الناقورة للعودة إلى بلادهم، حكمت عليهم الدولة اللبنانية غيابيًا بالموت. ويجب لتولّي أمرهم إما اختيار واحدة من القوات وفقًا لذلك، وإما تسليمهم إلى طرف ثالث، هو في هذه الحال الصليب الأحمر الدولي. ويفرض احترام هذه الحالات الخاصة أحيانًا اختيار حلول تحدّ من تطبيق المهمّات المطلوبة. فالأمر يتطلّب معرفة طريقة اللعب على ذلك.

وإذا بدا في الظاهر أن الجميع يلتزم الانتداب المشترك، فإن عمل كل دولة يضمر مصالح خاصة ترتبط بالعلاقات الثنائية مع لبنان، وأيضًا مع إسرائيل. ولا تفهم البلدان المتوسطية مهمتها بالطريقة نفسها التي تفهمها بها بلدان أخرى أصبحت ذات احتراف حقيقي في حفظ السلام، ولا وجود لجيوشها إلا بمقدار انخراطها في مهمات الأمم المتحدة. كذلك ليست لدى القوات ذات النسب العالية من المسلمين الحساسية التي لغيرها حيال المشكلات المحلية. فكل يتصرّف بحسب ثقافته والتوجيهات المعطاة له من بلاده. وهذا التنوّع يشكّل غنى في الأوقات العادية، لكنه قد يثبت أنه يأتي بنتائج عكسية في الأزمة الحادة، عندما يُحشر المُساهم في الزاوية ويُضطر إلى تأكيد التزامه الدولي، برزانة.

تعاود هذه الانتحاءات الظهور أحيانًا في أحاديث المسهمين. فمن الطبيعي أن يتوجهوا إلى مواطنيهم بخطاب وطني يبرزون فيه خصوصية التزامهم، ولكن يجب عليهم في أي حال عدم الإضرار بسمعة القوة أو بصورتها. ولا تصدر حالات الأخطاء في التقدير هذه عن المسؤولين الذين يعيشون يوميات الميدان، بل هي تتعلّق بالأحرى بالعواصم. ويمكن للتصريحات الصادرة في غير محلّها، والبعيدة كل البعد عن وقائع المنطقة ولا تعرف أخذ العقلية المحلّية في الحسبان، أن تتسبب بردود فعل معادية تصعب في أغلب الأحيان تهدئتها.

وتؤدّي مثل هذه التأثيرات السلبية إلى إعادة النظر في جهود القبعات الزرق المستمرّة لجعل وجودهم ومهمتهم يتمتعان بأفضل قبول ممكن. فالتوازن دائم الهشاشة، ويمكن لأدنى حادث أن يؤدي إلى تدهور الوضع مع ما يُضمر من إرادة لعرقلة قدرة القوة على العمل، خصوصًا إذا أمكن المبادرات المتخذة أن تُضرّ بتنظيم محلّي سائد. وقد تم التحقق من ذلك عندما أرادت اليونيفيل القيام بتحقيق ميداني في شأن انفجار مستودع سرّي للذخيرة في منطقة عملياتها في ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٩ في خربة سلم. فبعد ذلك ببضعة أيام اعترض سكان القرية، بعنف، على إرادة فريق التحقيق تفتيش منزل مشتبه به. ولما عاد الفريق برفقة ضبّاط من الجيش اللبناني جُرح ١٤ جنديًا دوليًا من جراء الرشق بالحجارة وتضررت ١٨ آلية لهم. وعندذاك تصبح العودة إلى التعايش الهادئ صعبة، لكنها عودة ضرورية لأن وجود القوة سيمتد حتمًا في الزمن.

ولعمل اليونيفيل أيضًا حدود أكثر تفاهة، وبخاصة المالية منها، مع أن الأمم المتحدة تسدّد جزءًا كبيرًا من المصاريف التي تتحمّلها الدول. فلم تعد القوة البحرية التي تألفت من ١٤ سفينة عند إنشائها تملك إلا ٨ سفن في حزيران/يونيو ٢٠١٠، وهو ما عدّه الأمين العام غير كافٍ قط. غير أن الإبقاء على السفن في البحر وقتًا طويلًا، مكلف جدًا. ثم إن البلدان تحتاج أحيانًا،

طبقًا للظروف، إلى وسائلها لمهمات أخرى. وهكذا سحبت بولندا وحدتها اللوجستية إثر انخراطها في أفغانستان. وحلّت محلّها الدانمارك بعد نداء مجهد كي تساهم. ولم تعرف القوة حتى الآن، في ما عدا الجزء البحري، مشكلة حقيقية في المشاركة، غير أنها لا تزال تواجه خطر تراجع عديدها من جراء انسحابات تحدث، إما بسبب حوادث دولية غير متوقعة، وإما نتيجة توجهات جديدة في السياسة الداخلية.

أما القدرات نفسها الممنوحة للقوة، فلا تسمح بفرض احترام القرار ١٧٠١ بكلّيته. فهو ينص على موانع ليست، في النهاية، رغبات ورعة، ما دام المخالف لا يشعر أنه في الحقيقة مُهدد، كما سبق أن رأينا بصدد انتهاكات الطيران الإسرائيلي للمجال الجوّي اللبناني. وأضحت هذه الانتهاكات يومية ولا يمكن لليونيفيل، مع أنها تحظى بدعم المنسق الخاص للأمم المتحدة في لبنان السيّد مايكل وليامز (المملكة المتحدة)، أي من نيويورك مباشرة، إلا أن تقدّم احتجاجات رسمية على هذه الأعمال التي تصفها بأنها «غير مقبولة». فقد سُحِقَتْ قرارات عدة صادرة عن الأمم المتحدة، كما من القوانين الدولية المتعلقة باحترام المجالات الجوّية الوطنية. بيد أن القوة لا تمتلك الوسائل المادية لمواجهة الاختراقات الإسرائيلية ناهيك بأن من الواضح أن ما من أحد يريد تزويدها بهذه الوسائل. ولا يمكنها بالتالي إلا أن تعاين. وينتهي الأمر هنا من جانب الأمم المتحدة إلى إيماءات خفيفة الحدة جدًّا لا تهدف إلا إلى تذكير الإسرائيليين بأنهم ينتهكون قرارات المجتمع الدولي. فكثيرة هي البلدان التي لا ترغب في الذهاب إلى ما هو أبعد من التشديد على ضرورة احترام النصوص، وتدرك تل أبيب ذلك تمام الإدراك. وهي تعرف كيف تقدّر المدى الذي يمكن لحصانتها بلوغه، وتعمل على تغطية نفسها من خلال محاولة اتهام الأمم المتحدة بالتقصير. وهكذا فإنها تطرح نفسها بشكل منهجي على أنها ضحية البنود التي لم تُطبّق بعد في القرار ١٧٠١، في ما يسمح بتمرير

أفضل لانتهاكاتها. أما الجيش اللبناني فلا تسمح له أسلحته المضادة للطائرات التي عفّ عليها الزمن بتعويض العجز الدولي. ومن المؤكد أن الإسرائيليين يسهرون، بحرص شديد، على ألا يشمل التحديث الجاري للعتاد اللبناني تزوّد معدات تشكّل خطرًا على طيرانهم.

وتشكّل اليونيفيل أيضًا، بصفتها بعثة من الأمم المتحدة، واجهة للمنظمة الدولية. فتنفيذ انتدابها ليس حكرًا على استخدام الوسائل العسكرية فحسب، بل عليها تطبيق كل المبادئ الكبرى التي تدافع عنها الدول الأعضاء. وينطلق ذلك من زيادة الحصة النسائية في عديد العناصر إلى مكافحة التحرّش الجنسي، مرورًا بالوقاية من الإيدز أو احترام البيئة. هذا الكم من المتطلّبات التي لا يعرفها البعض، بالضرورة، وهي غير مطبقة في بلدانهم. ويجب عندذاك إقناعهم باحترام هذه القواعد التي يجب بالتالي الإفادة عنها بانتظام في حال عدم توجّه فريق مختص لإجراء تفتيش. وتأتي هذه الإكراهات لتُضاف إلى الإجراءات العملانية الخاصة بالقوة، وإلى قواعد الاشتباك التي يجب السيطرة عليها بشكل تام، وهي تزيد أيضًا في تعقيد التأقلم مع المحيط الجديد الذي هو جنوب لبنان.

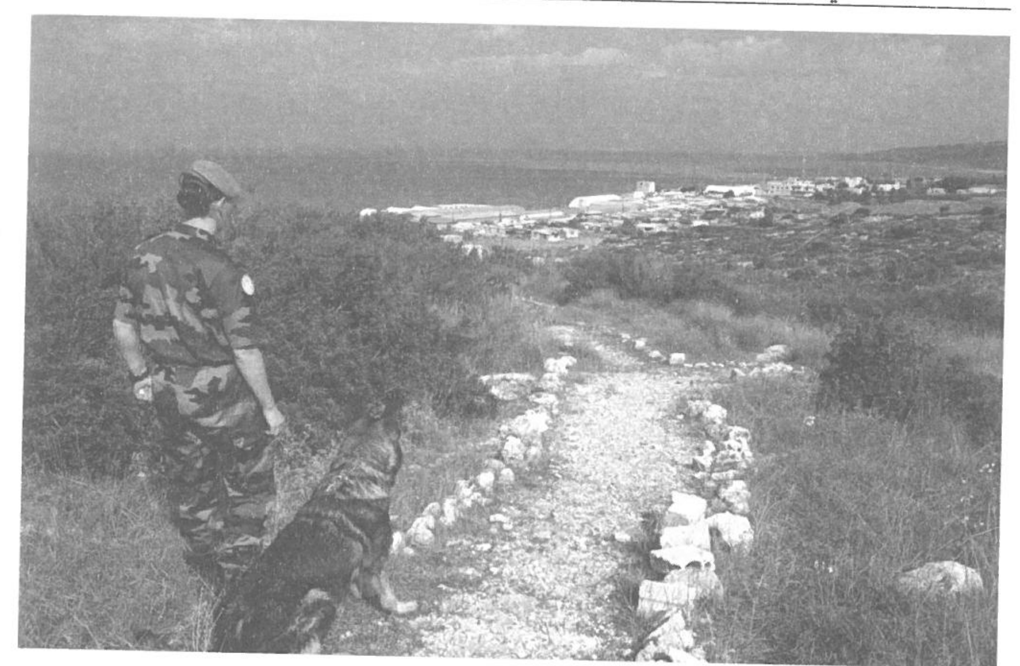
شاهد محايد وشفاف ولا يمكن تجاوزه

سمح تطوير انتداب اليونيفيل بعد صيف ٢٠٠٦ بإعادة هدوء هش إلى لبنان، مستمر منذ بدء وقف الأعمال العدوانية. وهذه المرّة الأولى في تاريخ القوة تعرف مثل هذه المدة الطويلة من دون حوادث كبرى، أي أكثر من ثلاث سنوات حتى بداية ٢٠١٠. حدث بالتأكيد تبادل عنيف لإطلاق النار

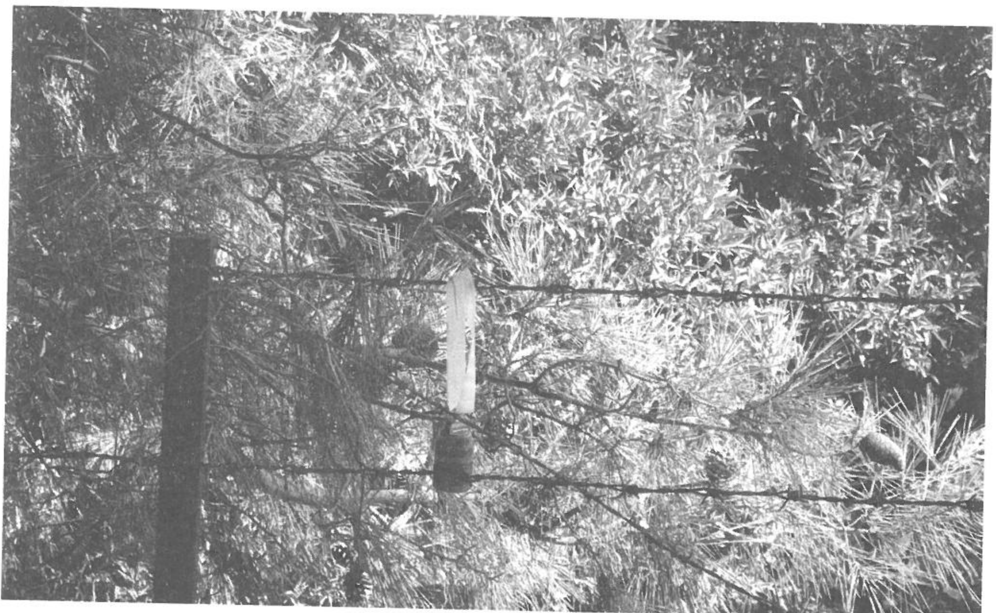
بين الجيش اللبناني والجيش الإسرائيلي في الثالث من آب/أغسطس على مقربة من العديسة. وأوقع ضحايا في هذا الجانب وذاك. ولكن، ورغم خطورة الحادث، أمكن إعادة الهدوء سريعًا بفضل نوعية الارتباطات التي أنشأتها اليونيفيل مع الطرفين المعنيين، وانتشارها الناجم عن ذلك في مكان النزاع. وهي تدين بالتأكيد بهذه النتائج لمظهرها الجديد، ولكن أيضًا لبحثها الدائم عن توازن صعب بين انخراطها التام في الميدان والنأي بنفسها عن الاضطرابات المحلية والإقليمية. فالشؤون الداخلية اللبنانية هزّت أحيانًا بيروت، بقوّة، لكنها لم تنعكس على جنوب الليطاني. فجهود السعي إلى السلام الشامل في الشرق الأوسط تجري في فناءات أخرى، ولا يمكن للخط الأزرق الهادئ إلا أن يساهم في الحوار. ويبقى دور القوة محلّيًا، لكنه أبعد من أن يتم التهاون فيه. فهي لا تشارك في التطورات الكبرى، لكنها تشتغل على تربة مؤاتية للحفاظ على السلام والأمن في منطقة عملياتها. ولا يمكنها بالتأكيد منع نشوب نزاع جديد بين إسرائيل ولبنان، لكنها تبقى قادرة مع ذلك على توجيه تأنيب شديد إلى المعتدي، وتسجّل بذلك تصميم المجتمع الدولي على معارضة كل مواجهة. وعلى هذه الإيماءة القوية أن تتبعها مباشرة أعمال أخرى تُتخذ على أعلى مستويات الأمم المتحدة، تحت طائلة أن نجد القبعات الزرق وقد انتهت أيضًا إلى العجز. ولن يبقى لها، من جراء التأخير الكبير، إلا أن تؤدي دور الشاهد ذي الصدقية الذي يسمح بتقدير أفضل للوضع، وموازنة تصريحات المتحاربين المُوجهة دائمًا. ومن ثم، طبعًا، وأيًّا يكن الوضع، ستحمل القوة دومًا في قلبها إنجاز مهمتها الإنسانية، والتخفيف ما أمكن من معاناة السكان. ولأنها ليست طرفًا في النزاع، تبقى الوسيلة الوحيد للحد من مفاعيله.

ويُطلب إلى اليونيفيل البقاء ما دامت إسرائيل ولبنان لم يتوصلا إلى التفاهم على وقف دائم لإطلاق النار، وما دامت القوات المسلحة اللبنانية أيضًا لم تتمكن من الحلول محل القبعات الزرق. لأن أحد الأهداف النهائية هو استعادة

لبنان سيادته الكاملة على جنوب الليطاني من دون الوجود الإضافي للأمم المتحدة. وتمكّنت القوة حتى الآن من تفادي استئناف الأعمال العدوانية بين الجيش الإسرائيلي وحزب الله، ولكن لم يتبدّل أي شيء في المنطقة. فالقوة جزء من كل، مثلها مثل هيئة مراقبة الهدنة وقوة مراقبة فك الاشتباك. ولا تستطيع وحدها الإتيان بِحل دائم لمشكلة تتجاوز كثيرًا جنوب لبنان. وعليها أن تتحمّلها. إلا أنها تمكّنت من أن تخلق في منطقتها مناخًا ومجالًا مناسبين لتفاوض الأفرقاء. وهو مناخ قابل بالتأكيد دومًا للاكتمال. وعليها أن تسعى من دون توقّف إلى تحسينه بالاقتراحات والمبادرات الجديدة، من دون أن تكتفي بالنتيجة الملموسة التي تبقى في الحقيقة غير كافية. وهكذا يمكن خلق ظروف يجب أن تسمح للدبلوماسيين بتولّي الأمر والعمل على سلام دائم، بدءًا بتسوية قضية العلاقات الثنائية بين لبنان وإسرائيل، ولمَ لا؟



الناقورة – المقر العام لليونيفيل بحراسة كلاب الكتيبة ٤٢٠.



١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٦ – الحنيّة – أكاليل الموت التي ألقى بها الجيش الإسرائيلي.

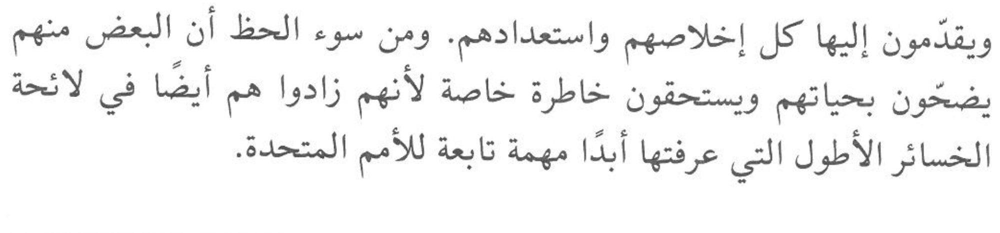
خاتمة

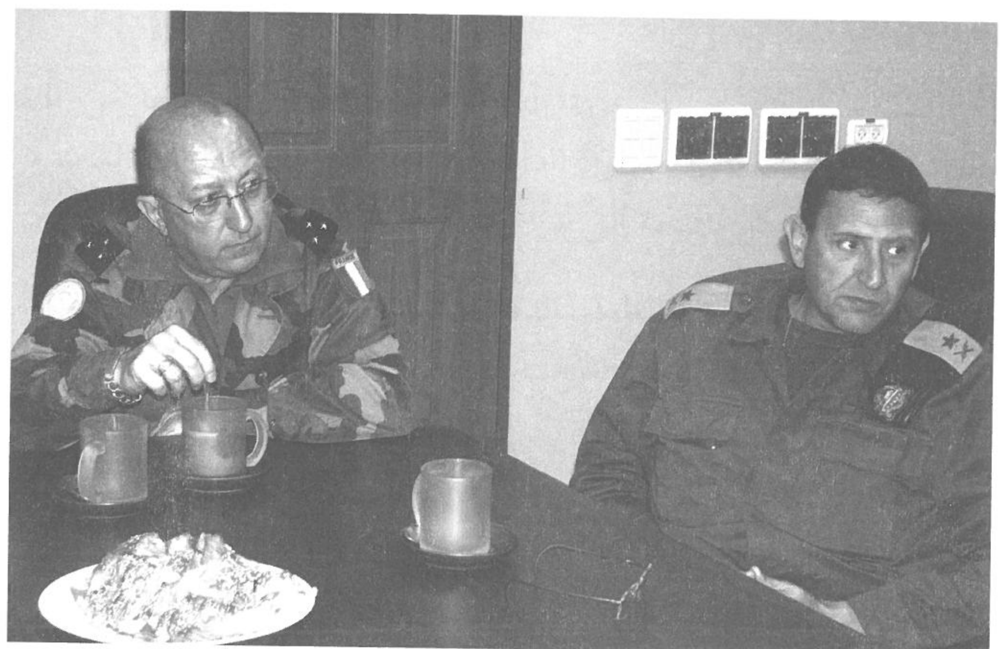
لو أنني رويت القسم الأكبر من ملاحظاتي وتأملاتي في هذا المؤلّف بمثل هذا التفصيل في الأسابيع التي تلت نهاية مهمتي لسُمّي ذلك جمعًا للمعطيات التي في حوزتي. وليس الأمر على هذا النحو. فقد اختصرت مساعيّ الأخيرة بتقرير نهاية المهمّة الذي رفعته إلى الأمين العام، وجولة الوداع التي قمت بها في نيويورك ومن ثم في باريس. واستمررت، بعدما انتقلتُ إلى ملاك الاحتياط، في متابعتي الدائمة لتطوّر الوضع في هذا الجزء من العالم. وكيف يمكنني العكس وأنا قد عشت فيه!؟ فما بين الأحداث ونهاية الكتابة، مرّ من الوقت ثلاثة أعوام سمحت لي بالعمل على تقاطع معلوماتي وبالتالي على إكمالها، ولأعرف أيضًا الطريقة التي ينظر فيها السياسيون الذين يعيشون بعيدًا من اليونيفيل إلى تطبيق انتدابها. فهذه الطريقة في النظر إليها تختلف في الغالب اختلافًا كبيرًا عما يفكّر به المرء في الميدان. ومن الأفضل أحيانًا عدم تعليق أهمية كبرى على ذلك تحت طائلة الإصابة بالإحباط. ولكن لا شك في أن الموجود في الميدان تمنعه انشغالاته الآنية، ورؤيته الأقل شمولًا، من الارتقاء إلى مستوى اللاعبين الكبار في السياسة الدولية. بيد أنني أعتقد أن الشهادة التي أردتها صادقة وأقرب ما تكون إلى ما عشته وسط قبعاتي الزرق، هي بمثابة انكباب على ملفّ من ملفات التاريخ. ويجب أن تسلّط ضوءًا جديدًا خاصًا على العلاقة بين جنوب لبنان واليونيفيل في سياق مرحلة خاصة جدًا.

فمجموع السنوات السبع التي قضيتها في بلاد الأرز أحدث بي تأثيرًا عميقًا. وقلّة كذلك هم الأشخاص الذي أعرف أنهم خرجوا سالمين من إقامتهم في المنطقة. فهذا المزيج من المناظر الجليلة والأبنية الفوضوية، والضيافة

والعنف، والأنفة المبالغ فيها والتسويات، والوطنية وعدم احترام القوانين، تسحر وتصيب بالقلق في آن. ويصعب كثيرًا التخلّص منها. وإذا كانت ضفاف فينيقيا القديمة تركت بالنسبة إلي المكان لبحرنا المتوسط الجنوبي، فلا يزال البحر نفسه هو الذي أتأمله. وهو منذ آلاف السنين صلة الوصل، فأجد في ذلك سببًا إضافيًا لمتابعة أحداث هذا البلد المضطرب الذي بذل المجتمع الدولي الكثير من أجله. والجهود لن تذهب هباء ولن تلبث أن تسمح بالوصول إلى حال السلام التي يرغب فيها الجميع حقيقة. لكن كل واحد ينظر إلى السلام بحسب معاييره الخاصة، وتكمن المشكلة الحقيقية في الاتفاق على تلك المقبولة من الجميع. ولا تزال الطريق، بلا شك، طويلة، ولكن لا خيار سوى المثابرة تحت طائلة رؤية الفوضى وقد عادت، لا بل انتشرت. وعلى رغم العنف، المتكرّر بدرجة أو أخرى والمؤكّد، لم يتوقف الحوار كليًّا قط، مهما بلغ حدًّا من الضعف. ويجب بالتالي التمسّك به، وتشجيعه، والمثابرة على الانفتاح لأنه الطريقة الوحيدة للمعرفة والفهم المتبادلين. فهو يسمح على الأقل بالتوصل إلى تسويات في غياب إمكان الحلم بأخوّة لا تحفّظ فيها. وأسوأ الأمور هو في إقفال الباب نهائيًّا. ومن حسن الحظ أن هذا الأمر لا يكاد يحدث في الشرق الأوسط ما دام يمكن الحفاظ على المظاهر. بل يكاد العنف يشكّل جزءًا من الحوار، وقد تمت طمأنتي مرارًا: «لا يعني هنا إطلاق النار بعضنا على بعض أننا نتوقف عن تبادل الكلام». يبقى إذًا العمل، بحيث يصبح الكلام أقوى من ضجيج السلاح، وتشكّل الأمم المتحدة بوجودها في الجنوب مكانًا متميّزًا لرفع هذا التحدّي.

لا يمكنني الانتهاء من دون أن أكرر عرفاني بالجميل لجميع الرجال والنساء، المدنيين والعسكريين، الوافدين من كل الآفاق والذين طوال وجودهم تحت الراية الزرقاء يعطون، أو أعطوا، أفضل ما عندهم لنجاح مهمة، عليهم لدى وصولهم اكتشاف كل ما يتعلّق بها. وهم مع ذلك يؤدونها من دون تحفّظ


ويقدّمون إليها كل إخلاصهم واستعدادهم. ومن سوء الحظ أن البعض منهم يضحّون بحياتهم ويستحقون خاطرة خاصة لأنهم زادوا هم أيضًا في لائحة الخسائر الأطول التي عرفتها أبدًا مهمة تابعة للأمم المتحدة.



٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٦ – زفّات (اسرائيل) – لقاء مع الجنرال عودي آدم قائد المنطقة الشمالية.

شكر

إلى من لم يكن لهذا المؤلف أن يعرف خاتمة سعيدة لولاهما:

السيّدة كلود غيتر، المحرّرة الدقيقة والفطنة بفضل تمكّنها من اللغة الفرنسية. وأيضًا بفضل فضولها، الدائم اليقظة، الذي أجبرني على المزيد من الوضوح، وقد شكل بالنسبة إلي أمرًا مفروغًا منه.

السيّد بيار دوفولوي، العارف الدقيق والمغرم بلبنان، الذي أسهم، في قوّة، في وضع هذه العلاقة ضمن إطار متناسب مع هذا البلد الفريد جدًّا.



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة السياسة

مجموعــات

مجموعة الصحفي روبرت فيسك

- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - (في كتاب واحد)
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الأول الحرب الخاطفة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثاني الإبادة
- الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة - الجزء الثالث إلى البرية
- ويلات وطن
- زمن المحارب

مجموعة د. عصام نعمان

- هل يتغيّر العرب؟
- العرب على مفترق
- أميركا والإسلام والسلاح النووي
- حقيقة العصر - عصام نعمان وغالب أبو مصلح
- على مفترق التحوّلات الكبرى... ما العمل؟

مؤلفات د. محمد حسنين هيكل

- الحل والحرب!
- آفاق الثمانينات
- قصة السويس
- عند مفترق الطرق
- لمصر لا لعبد الناصر
- زيارة جديدة للتاريخ
- حديث المبادرة
- خريف الغضب
- السلام المستحيل والديموقراطية الغائبة
- وقائع تحقيق سياسي أمام المدعي الاشتراكي
- بين الصحافة والسياسة

مجموعة د. سليم الحص

- صوت بلا صدى
- تعالوا إلى كلمة سواء
- سلاح الموقف
- في زمن الشدائد لبنانياً وعربياً
- للحقيقة والتاريخ
- نحن والطائفية
- عصارة العمر
- محطات وطنية وقومية
- ما قَلَّ ودَلّ
- ومضات في رحاب الأمة

مجموعة د. وليد رضوان

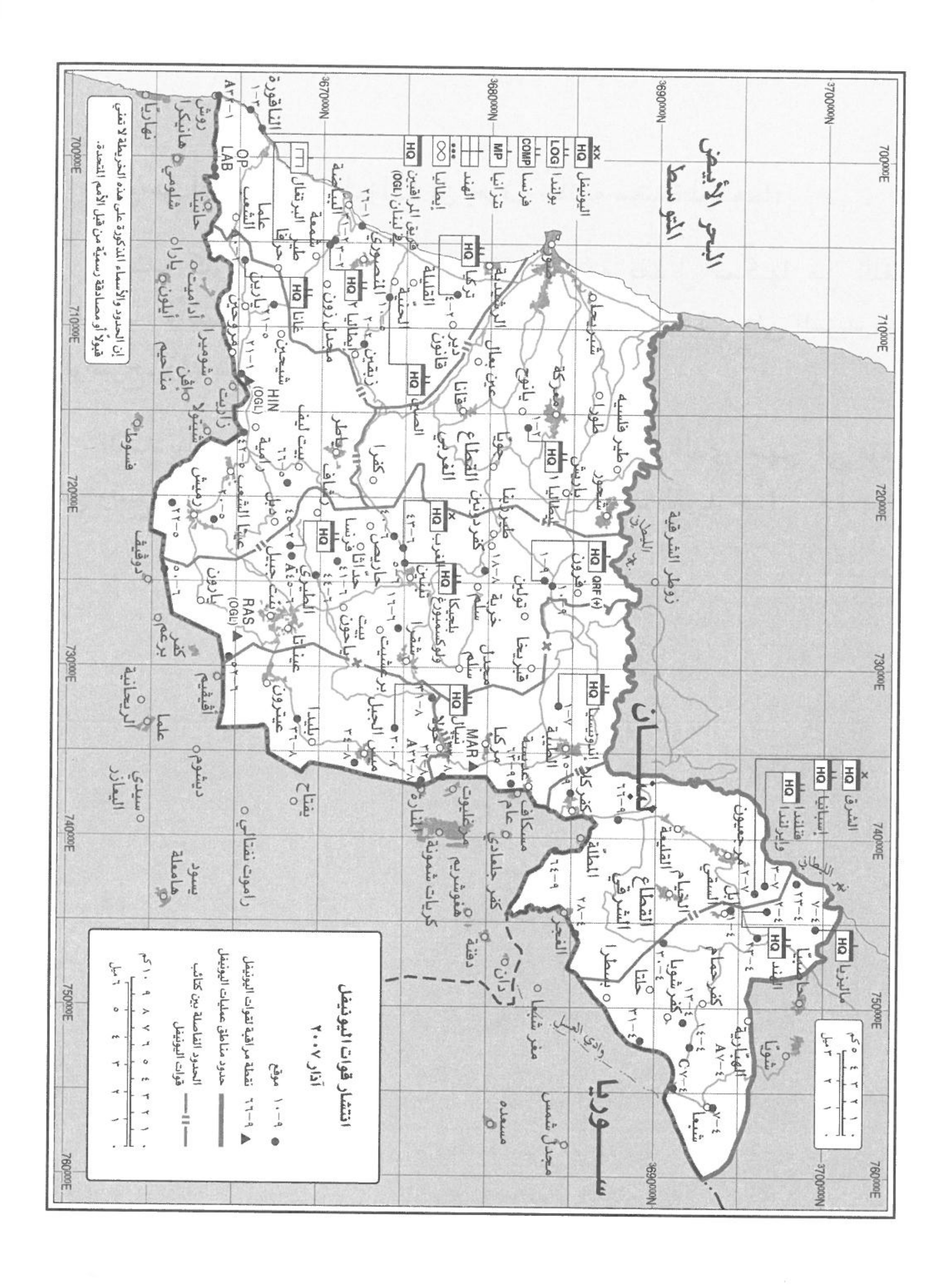
- مشكلة المياه بين سوريا وتركيا
- العلاقات العربية التركية
- تركيا بين العلمانية والإسلام

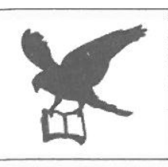
مجموعة جوزيف أبو خليل

- مبادئ المعارضة اللبنانية
- رؤية للمستقبل
- لبنان وسوريا مشقة الأخوة
- قصة الموارنة في الحرب
- لبنان... لماذا؟

مجموعة بول فندلي

- من يجرؤ على الكلام
- الخداع
- لا سكوت بعد اليوم
- أميركا في خطر





مجموعة كريم بقرادوني

- □ لعنة وطن
- □ السلام المفقود
- □ صدمة وصمود

مجموعة شكري نصرالله

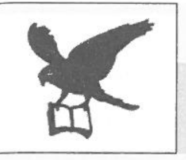
- □ **مذكرات قبل أوانها** - شكري نصرالله
- □ **السنوات الطبية** - شكري نصرالله
- □ **ستّ الستّات - علياء رياض الصلح** - شكري نصرالله



- □ **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح - (جزآن)** - عمر زين
- □ **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- □ **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- □ **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- □ **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- □ **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- □ **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- □ **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- □ **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- □ **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- □ **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- □ **اللوبي** - إدوار تيفنن
- □ **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- □ **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- □ **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- □ **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- □ **الأسد** - باتريك سيل
- □ **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- □ **طريق أوسلو** - محمود عباس
- □ **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- □ **النفط** - د. هاني حبيب
- □ **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- □ **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- □ **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- □ **الحصاد** - جون كوولي
- □ **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- □ **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- □ **حرب الخليج** - بيار سالينجر واريك لوران
- □ **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر واريك لوران
- □ **الماسونية** - **دولة في الدولة** - هنري كوستون
- □ **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- □ **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- □ **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- □ **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- □ **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- □ **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- □ **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- □ **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- □ **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- □ **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- □ **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف



- □ **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف
- □ **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- □ **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- □ **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- □ **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- □ **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- □ **المال إن حكم** - هنري إده
- □ **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- □ **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- □ **على خط النار** - مذكرات الرئيس الباكستاني بروزي مشرف
- □ **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- □ **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- □ **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- □ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- □ **إرث من الرماد** - تيم واينر
- □ **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- □ **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- □ **حروب الأشباح** - ستيف كول
- □ **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- □ **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- □ **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- □ **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- □ **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- □ **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- □ **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- □ **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- □ **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- □ **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- □ **. . .؟! أساس الملك** - غادة عيد
- □ **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- □ **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- □ **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
- □ **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- □ **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- □ **لبنان بين ردّة وريادة** - ألبير منصور
- □ **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- □ **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- □ **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- □ **هكذا.. وقع التوطين** - ناديا شريم الحاج
- □ **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
- □ **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- □ **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- □ **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- □ **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
- □ **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر
- □ **في سبيل أفريقيا** - دنيس ساسّو نغويسّو
- □ **عبد الحميد كرامي - رجل لقضية** - نصري الصايغ
- □ **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- □ **الطبقة الخارقة** - دايفيد ج. روثكوبف
- □ **بوّابة الحقيقة** - عبد السلام المجالي



- الأُخطبوط الصهيوني والإدارة الأميركية - علي وهب
- الصراع على السلطة في لبنان جدل الخاص والعام - زهوة مجذوب
- أوباما.. والسّلام المستحيل - سمير التنّير
- التحية الأخيرة للرئيس بوش - منتظر الزيدي
- حياة من أجل أفريقيا - عبدالله واد
- وثائق ويكيليكس الكاملة: لبنان وإسرائيل - إعداد مريم البسام
- الأحزاب السياسية في العراق - عبد الرزاق مطلك الفهد
- صيف من نار في لبنان - ألان بيلليغريني

صيفٌ من نار في لبنان

يخرج الجنرال آلان بيللغريني القائد الأعلى لقوات اليونفيل عن صمته، ويقدِّم شهادات حيَّة عن الفكرة الأكثر مأساوية وحرجاً في لبنان وفي جنوبه المستقل.

ينقل لحظة بلحظة معارك حرب تموز/يوليو ٢٠٠٦ برؤية الرجل العسكري الملتزم والحيادي بآن. ويرصد ارتداداتها في الداخل اللبناني وفي العالم.

ويلمح إلى اللعبة الدولية حيال وقف الحرب.

يعود إلى الوراء، إلى حيث تشكّل حزب الله وآلية تدريبه وتركيبة عناصره وتحرُّكاته، وتحصيناته قبيل حرب تموز.

يوضح الأهمية الاستراتيجية لموقع لبنان، واستهدافه الدائم.

يقدِّم وصفاً دقيقاً للواقع العسكري والاجتماعي والسياسي في جنوب لبنان.

يشير إلى المؤثرات التي طالت لبنان منذ النكبة مروراً بالنكسة وحرب تشرين وانتهاء بالاجتياحات الإسرائيلية الحاصلة.

يقف عند اغتيال رفيق الحريري، وعند القرارات الدولية الشديدة الوقع ومنها القرار ١٥٥٩.

يتحدث صراحةً عن واقع قوات اليونيفل المعيشي والعسكري وما تعرّض له على مدى ٣٢ عاماً. وكيف أصبحت جزءاً لا يتجزأ من الحياة السياسية اللبنانية. ويميط اللثام عن علاقات قوات اليونيفل بحزب الله وبالحكومة اللبنانية، وبالمواطنين الجنوبيين وكيف تتعاطى تلك القوات مع الجيش الإسرائيلي.

يؤكد أن اليونيفل خاضعة لشبكة تجسُّس إسرائيلية، وأن إسرائيل تسخِّر شركاء لها في الأمم المتحدة للحصول على كافة المعلومات التي تتجمّع لدى اليونيفل.

ISBN 978-9953-88-608-4

9 789953 886084

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص.ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٧٥٠٨٧٢ - ٩٦١١٣٥٠٧٢٢+

تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٩٦١١٧٥٢٥٤٧+

tradebooks@all-prints.com

www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر